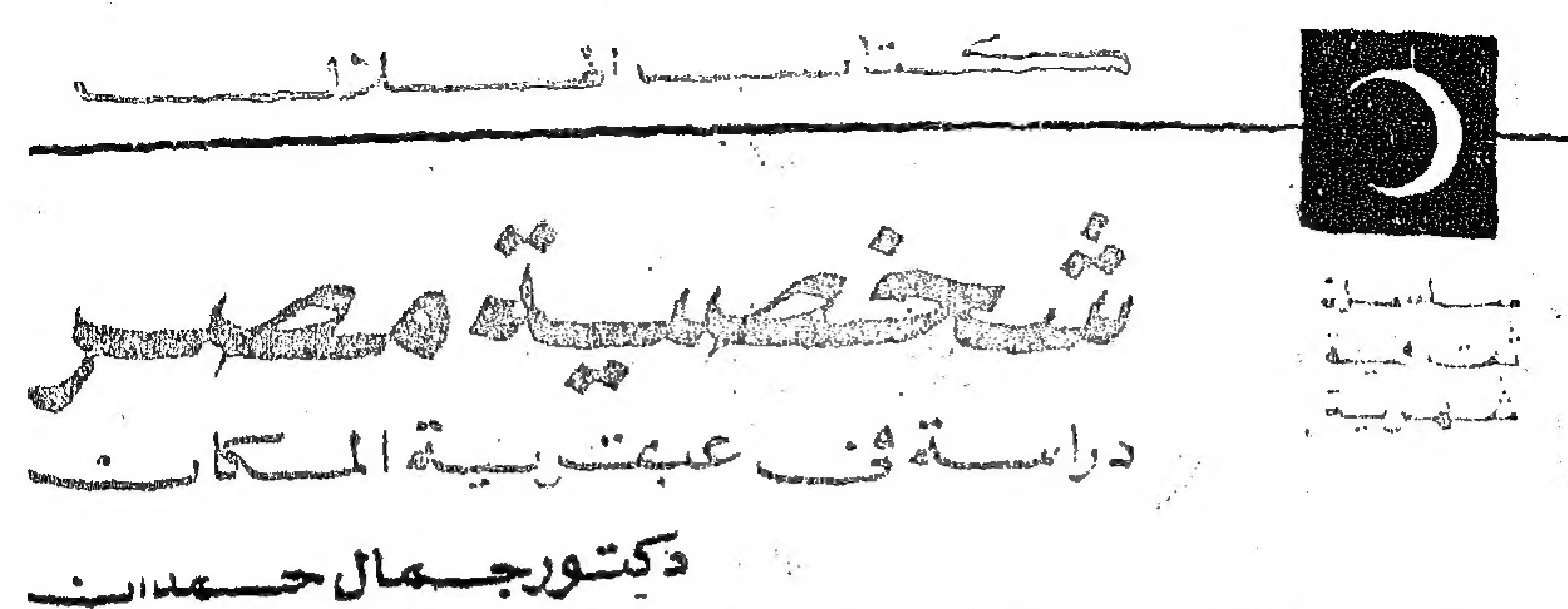


كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

شخصية مصر

دراسة في عبقرية المكان

دكتور جمال حمدان

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٩٦ ربيع الاول ١٣٨٧ يوليو ١٩٦٧

No. 196 — Juillet 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

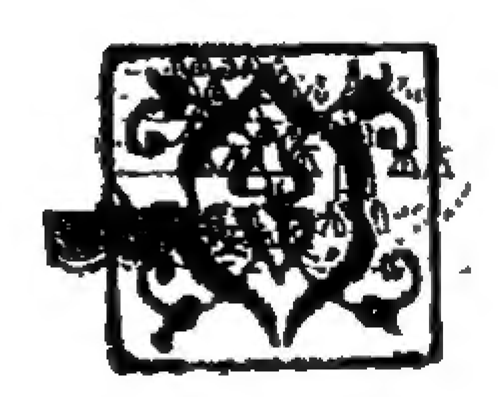
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج٠ع٠م — والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة •

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حلمي التوني

دكتور جمال حمدان

شخصية مصر

دراسة في عبقرية المكان

دار الهلال

مقدمة

فى الشخصية الاقليمية

اذا كانت الجغرافيا فى الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هى « التباين الارضى » أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الارض على مختلف المستويات ، فمن الطبيعى أن تكون قمة الجغرافيا هى التعرف على « شخصيات الاقاليم » . والشخصية الاقليمية شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، انها تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق ، وتريد أن تنفذ الى « روح المكان » لتستشف « عبقريته الذاتية » التى تحدد شخصيته الكامنة genius loci . ومن الواضح أن مثل هذه النظرة ليست تحليلية وانما هى تركيبية فى الصف الاول ، نظرة واسعة عالمية Weltanschauung كما يقول الالمان

وبديهى كذلك انها لا تقتصر على الحاضر وانما هى تترامى بعيدا عبر الماضى وخلال التاريخ ، لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الايجابية للاقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الاقليمية . والبيئة قد تكون فى بعض الاحيان خرساء ، ولكنها تنطق خلال

الانسان ، وربما تكون الجغرافيا صماء ، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق ان التاريخ ظل الانسان على الارض بمثل ما أن الجغرافيا ظل الارض على الزمان . ولهذا نجد أن البحث فى الشخصية الاقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم ، بل بحث فيه المؤرخون كثيرا ابتداء من سيريل فوكس فى مؤلفه المشهور « شخصية بريطانيا » الى حسين مؤنس فى « مصر ورسالتها » ، الى حسين فوزى « سندباد مصرى » وشفيق غربال فى « تكوين مصر »

ولكن طريق الجغرافى ربما كان أكثر غنى وتنوعا فى المناهج والطرائق حيث أنه يجمع بين الزمان والمكان ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا ، ومن الفلك حتى الانثروبولوجيا . ولهذا نجد الشخصية الاقليمية مطلبا أثيرا بين كبار الجغرافيين ابتداء من لابلاش فى مقدمته لكتاب لافيس عن تاريخ فرنسا « شخصية فرنسا من الناحية الجغرافية » ، الى اندريه زيجفريد فى كتابه « سيكولوجية بعض الشعوب » ، ومن ددلى ستامب فى « وجه بريطانيا » حتى حزين فى دراساته الاصيلة المتعددة عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ

وانه لطبيعى — أليس كذلك ؟ — أن يكون للجغرافى كلمته فى هذا المجال ، والا فالى من يتجه المواطن العادى والمثقف العام لمعرفة جوهر وطنه ؟ الى من سوى ذلك الذى « يتخصص فى عدم التخصص » كما وصف ، وهو هكذا وصف لأنه الاخصائى الذى يضرب بحرية فى كل العلوم ، يربط الارض بالناس ، والحاضر بالماضى ، والمادى باللامادى ، والعضوى بغير العضوى ، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الارض ... وفى هذا الوقت الذى يضطرب فيه الفكر فى مصر ويضطرم بحثا عن

شخصيتها العربية وتحديدا لمعدنها القومي الاصيل ولدورها الانسانى والحضارى ، لا شك تبرز الى المقدمة مسئولية الجغرافى الملتزم الذى يضع علمه فى خدمة مجتمعه ..

ومن المحقق ان طبيعة الجغرافيا الكاملة الكامنة لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الاقليمية ، فليست الشخصية الاقليمية تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضى والاحصاء ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد اساسا – وما ينبغى لها غير ذلك – على مادة علمية موضوعية بحتة . انها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى ، وذلك رغم ما قد يجده البعض فى هذا من تعارض ظاهرى (١) فكما يقول جلبرت أحد دعاة الشخصية الاقليمية ووريث مدرسة اكسفورد « ان الجغرافيا هى فن التعرف على شخصيات الاقاليم ووصفها وتفسيرها » ويضيف أن « شخصية الاقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطور وأن تتدهور ، ووصفها لا يقل صعوبة » (٢)

ولكنا نرى أن فن تناول المادة العلمية لا يكفى وحده للتشخيص الاقليمى ، بل لا بد من اطار من « فلسفة المكان » ، اطار يحدد تلك الشخصية . ولهذا فنحن أيضا مع دبنام حين يعرف الجغرافيا بأنها « فلسفة المكان » (٣) . ولا يعنى هذا فلسفة محلقة غامضة ، بل فلسفة عملية واقعية قد ترتفع برأسها فوق التاريخ

---

(١) Preston E. James, «The Region as a Concept», Geog. Rev. Jan. 1962, pp. 130-1.

(٢) E.W. Gilbert, «The Idea of the Region», Geog., vol. 45, 1960, pp. 157-175.

(٣) F. Debenham, Use of Geog, Lond, 1950, p. 11.

ولكن تظل أقدامها راسخة فى الارض ، فلسفة تحلق بقدر ما تحدق

ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا منهجا خلاسيا متنافرا يتأرجح ما بين علم وفن وفلسفة ، فاننا نبادر فنذكر بأن الجغرافيا نفسها وبطبيعتها علم متنافر غير متجانس فى مادته الخام ، وليس غريبا أن يكون كذلك فى منهجه . ويحسم ستامب الموقف بايجاز حين يقول « ان الجغرافيا فى نفس الوقت علم وفن وفلسفة » (١) ويمكن أن نضيف للتوضيح : علم بمادتها ، فن بمعالجتها، فلسفة بنظرتها . والواقع أن هذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة الى مرحلة التفكير ، من جغرافية الحقائق المرصوصة الى جغرافية الافكار الرصينة . وكما قلنا ، لا تتحقق هذه الطبيعة المركبة كاملة كما تتحقق فى الشخصية الاقليمية

والبحث الحالى — وله جذور أو ربما بذور فى عمل سابق للكاتب (٢) — يحاول أن يرسم صورة عريضة ولكنها دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر . ومصر لا شك موضوع مثالى لمثل هذا البحث نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود ، ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل . كما اننا فى المرحلة الحالية من تطورنا فى حاجة ماسة الى فهم كامل لوجهنا ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لامكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائصنا ونقائضنا — كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز او هروب . فليس هذا دفاعا عن مصر ولا هو محاولة شوفينية للتمجيد ، وانما هو تشريح علمى موضوعى يقرن المحاسن بالاضداد على حد سواء ويشخص نقاط القوة والضعف

---

(١) L. Dudley Stamp, Intermediate Geog., 1939, p.1

(٢) للمؤلف : دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ١٩٥٩

سواء بسواء ، وبغير هذا لا يكون النقد الذاتى . وقد لا يرضى هذا السطحيين والدعاة ، ولـكنا لهذا ندعم مناقشتنا بالمصادر والاسانيد الواضحة

وليست هذه أول دراسة من نوعها فى مصر بطبيعة الحال ، وان حاولنا أن تكون وافية دون اطناب . كذلك لا يمكن لمثلها أن تكون نهائية أبدا ، ولكنا نأمل أن تلقى من الضوء مثلما تنفث من الحرارة على شخصية من أغنى الشخصيات الاقليميـــة وأكثرها ثراء وتعددا فى الجوانب والابعاد

وتبقى فى نهاية هذه المقدمة كلمة أخيرة لا بد منها . مصر ، أم الجمهورية العربية المتحدة ، نقول ؟ هذا هو السؤال . ولقد ثار جدل فكرى حول هذه القضية فى الفترة الاخيرة ، وصميم المشكلة هو الظلال الوحدوية أو الانفصالية التى قد توحى بها هذه التسمية أو تلك . وبغير ما مفاضلة بين الاسمين ، فلعل المشكلة شكلية أكثر مما قد يظن بعضنا ، وليس ثمة تضاد أو تعارض فى الحقيقة . فمصر (منذ مصرايم) اسم « جغرافى » بمثل ما أن اسم كوكبنا هذا هو الارض واسم نهرنا هذا هو النيل ، وكل باق ولا مفر منه ما بقيت هذه الارض وهذا النيل . أما الجمهـورية العربية المتحـدة فاسم « سياسى » عبر عن حقيقـــة قامت وعن أمل شـــاهق مرموق . وهو بهذا لا يقصد به أن يقتصر على مصر حكرا الى الابد ، وانما المفروض ــ بالتعريف ــ أن يتسع يوما لدولة الوحدة العربية الكبرى

واذا كان كل من الاسمين قد أصبح علما تاريخيـــا بدرجة أو بأخرى ، فلا بأس من الاحتفاظ بهما معـــا واستعمالهما كل فى مجـاله الأنسب ، جغرافيـــا أو

سياسيا ، ولا معنى لافتعال معركة موهومة بينهما . واذا كان البعض يدعو الى اصطناع اسم توفيقي جديد يجمع بين الصفتين هو الجمهورية العربية المصرية ، فان الاسمين السياسيين ـ هذا وذاك ـ لا يجبان الاسم الجغرافى مصر أكثر مما يجب اسم الجمهورية العربية السورية الاسم الجغرافى سوريا او اسم الجمهورية العربية العراقية أو الجزائرية او اليمنية الاسم الجغرافى العراق أو الجزائر أو اليمن . ومن هذا المنطق وحده ؛ قلنا هنا شخصية مصر دون تحرج أو تجاهل للاسم البديل

ملامح شخصية مصر

ليس سهلا ان نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة ، لا سيما اذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر . ولكن البعض كثيرا ما ردد ان مصر « أرض المتناقضات Land of Paradox » ، ربما تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة من ناحية ، أو من ناحية أخرى بين خلود الاثار القديمة وتفاهة المسكن القروى ، أو بين الوادى والصحراء حيث يتجاوران جنبا الى جنب ، ولكن كما تتجاور الحياة والموت (١) . (ولن نذكر هنا « وكم ذا بمصر من المضحكات ... الخ » رغم أن به أكثر من مجرد خيال الشعراء) . ولكن اذا لم تكن هذه كلها نظرة سطحية ، فهى على الاقل ضيقة ؛ لانها لا تعرض الا لجانب واحد من مركب عريض . ولا تختلف محاولة التشخيص «بأرض الطغيان Land of Tyranny » عن ذلك كثيرا

---

(١) Maurice Hindus, In Search of a Future, Lond., 1949, p. 115.

والذى نراه هو أننا ازاء حالة نادرة من الاقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد او تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة . فهى بطريقة ما تكاد تنتمى الى كل مكان دون أن تكون هناك تماما . فهى بالجغرافيا تقع فى افريقيا ، ولكنها تمت أيضا الى آسيا بالتاريخ . وهى متوسطية دون مدارية بعروضها ، ولكنها موسمية بمياهها واصولها . وهى وان كانت اصلا موسمية فى مصدرها فقد أصبحت موسمية دائمة أخيرا على ما فى ذلك من تناقض . هى فى الصحراء وليست منها ، انها واحة ضد ـ صحراوية anti - desert ، بل ليست بواحة وانما شبه واحة هى

فرعونية هى بالجد ، ولكنها عربية بالأب . ثم انها بجسمها النهرى قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر ؛ وتضع بذلك قدما فى الارض وقدما فى الماء . وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم . وهى بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب تقع فى الاول ولكنها تواجه الثانى وتكاد تراه عبر المتوسط ، كما تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب . وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى ، وواسطة العالم الاسلامى ، وحجر الزاوية فى العالم الافريقى

واذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس أنها تجمع بين الاضداد والمتناقضات ، وانما انها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرى ، بين أبعاد

وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الاوسط» وتجعلها « سيدة الحلول الوسطى » ، تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمة نصفا ! وسط فى الموقع والدور الحضارى والتاريخي ، فى الموارد والطاقة ، فى السياسة والحرب ، فى النظرة والتفكير ... الخ

ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على العصور ورغمها . ان مصر جغرافيا وتاريخيا تطبيق عملي لمعادلة هيجل : تجمع بين « التقرير » و «النقيض» فى « تركيب » متزن أصيل . ونحن لهذا لا نملك الا أن نقول اننا كلما أمعنا تحليل شخصية مصر وتعمقناها استحال علينا أن نتحاشى هذا الانتهاء : وهى أنها « فلتة جغرافية » لاتتكرر فى أى ركن من أركان العالم ، فالمكان، الجغرافيا ـ كالتاريخ ـ لا يعيد نفسه أو تعيد نفسها . تلك هى حقيقة عبقريتها الاقليمية

والنظرية العامة التى نقدم فى تفسير هذه الشخصية الفلتة هى التفاعل ـ ائتلافا أو اختلافا ـ بين بعدين أساسيين فى كيانها وهما الموضع Site والموقع Situation . فالموضع نقصد به البيئة الطبيعية بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، اى البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة وجسم الوادى بشكله وتركيبه ... الخ . أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة الى توزيعات الارض والناس والانتاج حول اقليمنا ، وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها . الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة

بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهما نفسر شخصية مصرنا . فهما يختلفان حين نجد أن حجم

الموضع كان دائما لا يتكافأ مع خطورة الموقع الحاسم على ناصية العالم ، وحين نجد أن الاول ينتظم قدرا ما من عزلة ، والثانى يفرض فيضا من الاحتكاك . وهما يأتلفان فى الاثر حين يدعوان الى الوحدة السياسية والمركزية العنيفة ، ومن حيث أن زمامهما ليس محليا تماما وانما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة . وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة

ولكى نحدد ملامح هذه الشخصية لا يمكن أن نعرض عرضا تقليديا رتيبا لفصول جغرافية مصر الطبيعية أو البشرية ، فليس هذا هدفنا على الاطلاق ، وانما علينا ان نتحسس هذه الملامح ونتقصاها أنى كانت : فى الماضى او فى الحاضر ، فى الطبيعة أو العمران ، فى السياسة أو الاقتصاد ... الخ . وقد تقطع دراسة الملمح الواحد عبر عدد من هذه العناصر أو قد تتعامد عليها جميعا بلا حرج . وعلى هذا الاساس يمكن أن نتعرف فى ملامح هذه الشخصية وأبعادها على عشرة سنحللها تباعا وهى : التجانس والوحدة ، الطغيان الاقطاعى ، المركزية ، التبعية السياسية بعد السيطرة ، الاساس الخارجى للبناء الحضارى ، العلاقة بين الموارد والسكان ، التفاعل بين العزلة والاحتكاك ، تعدد الجوانب والابعاد ، الاستمرارية والتقطع ، ثم أخيرا الوطنية والقومية

واذا كان من المفيد ان نحدد مكان مثل هذه الدراسة من منهج العلم الجغرافى ، فربما صح أن نقول انها أدخل فى الجغرافيا الاقليمية ــ التى سميت حينا بالجغرافيا الخاصة ــ منها فى أى جانب آخر من الجغرافيا . الا انها هنا لا تنظر نظرة تحليلية تستهدف أساسا تقسيم مصر الى اقاليم داخلية ، وانما هى بالأحرى تنظر نظرة

تركيبية الى مصر كلها كاقليم واحد تبغى التعرف على مكانه وخصائصه ودوره فى العالم الواسع والوطن العربى الكبير بوجه خاص . انها تمثل الجوانب العامة من جغرافية خاصة ، او هى باختصار أقرب ان تكون لونا من الجغرافيا الاقليمية « الخارجية » منها الى الجغرافيا الاقليمية « الداخلية » كما قد نقول

مغزى الشخصية الاقليمية

غير أننا قبل أن نتهيأ لهذه الدراسة والتحليل ، نحتاج الى وقفة عند المغزى العملى أو الفكرى للشخصية الاقليمية بعامة سواء بالنسبة الى مصر او الى غيرها من البلاد العربية وغير العربية ، وما قد يمكن أن يكون لها من محمولات وظلال أو يقحم عليهـا من تخريجات او تأويلات سياسية بعيدة أو قريبة . فقد يرى البعض ان الحديث عن الشخصية الاقليمية وما يضغط عليـه او يوحى به من تفرد فى روح المكان وعبقرية ذاتية فى الاقليم ، هو أمر يؤكد الفروق الجغرافية على حساب المشابهات بالضرورة ، ويبرز الاختلافات المحلية فى وجه التجانس العام . .

وفى منطقة كالوطن العربى الكبير ، تسعى اليوم حثيثا الى الوحدة الشاملة فى نضال تاريخى بطولى ، الا يعنى هذا ــ هكذا قد يتساءلون ــ التأكيد على « الوطنية » المحلية الضيقة فى وجه « القومية » العربية المشرقة ؟ الا يعنى الحديث عن الشخصية المصرية انغلاقا وتشبثا اقليميا « بالمصرية » ازاء « العروبة » ؟ فاذا ما تكلمنا بعد ذلك عن الشخصية العراقية والشخصية السورية والجزائرية ، الى آخر الوحدات التى يتألف منها الوطن الكبير ، أفلا يعد هذا بصورة ما سعيا واعيا او غير واع

الى التفرقة والتمزيق فى وقت نحن احوج ما نكون الى التماسك والتلاحم ؟

وعلى الفور تتبدى لنا حقيقة الفلسفة الفكرية التى تكمن وراء القضية المثارة . انها اذن قضية المشابهات والفروق الجغرافية بين قطر وآخر من الاقطار العربية . قضية التفرد والتجانس . قضية الوحدة والتنوع . والمطلوب اذن ممن يتصدون لمثل هذه الدراسة أن ينقبوا عن أوجه الشبه وتأكيدها والضغط عليها . ونكاد نضيف ان المفهوم لذلك منطقيا وضمنيا أنهم مدعوون كذلك الى اهمال أوجه الاختلاف الطبيعى ان أمكن ، فكلما كنت وحدويا « طيبا » كان من الطبيعى أن تنقب عن التجانس الطبيعى داخل الوطن الكبير وتبرزه تجسيما وتضخيما ، وان امكنك أن تغفل الفروق وتعتم التفرد المكانى فذاك خير وأجدى وحدوية

ولكن هل حقا يعنى وجود الفروق الجغرافية بين وحدات الوطن العربى التفرقة السياسية ، وهل حقا تؤدى الاختلافات الطبيعية الى الخلافات القومية ؟ هل الحديث عن الشخصية الاقليمية لمصر او المغرب أو العراق .. الخ يترادف مع الحديث عن « المصرية والمغربية أو العراقية » .. الخ ويتضاد مع العروبة ؟ أهى ردة بصورة ما مباشرة او غير مباشرة الى الفرعونية والبربرية والاشورية ؟ باختصار هل يتعارض القول بوجود عبقرية مكان خاصة بكل او بأى قطر عربى مع دعوة القومية والوحدة العربية ؟

اما ان هناك فروقا طبيعية وجغرافية بين أجزاء الوطن العربى ، فتلك حقيقة أولية كالبديهيات لا يمكن لأحد أن ينكرها موضوعيا اكثر مما يمكنه ان ينكر أن هناك مشابهات وأوجه تقارب بين بعضها البعض . فهناك

تشابه أسي بين مصر والعراق كبيئتين فيضيتين ، والشام والمغرب الكبير نظائر جغرافية الى حد بعيد بطبيعتهما الجبلية المتوسطية . وبالمثل تكرر الوحدات الصحراوية من العالم العربى كثيرا من الملامح المشتركة . ولكن من الواضح تماما أن البيئة المصرية تختلف عن البيئة فى المغرب بمثل ما تختلف البيئة العراقية عن السورية . وهكذا

ولسنا نقصد بهذا أن نؤكد الفروق الطبيعية بين أقطارنا العربية لنطمس معالم التشابه بينها ، ولكننا نقول ان ثمة فروقا ، وليس يجدى فى مواجهتها علميا او قوميا أن نتجاهلها فى سبيل وحدة جغرافية منمطة او تجانس طبيعى باهت موهوم . انما الشخصية الاقليمية أشبه شىء بالشخصية الانسانية . فالشخصية ـ هذه وتلك ـ مركب معقد للغاية من عدد ضخم من العناصر وتوليفة معينة من السمات والصفات والملامح والمعالم . فاذا اشتركت شخصيتان فى الغالبية من تلك العناصر والقسمات ، ولكن اختلفتا فى قلة منهما مهما تضاءلت ، فليس علينا جناح أن نتكلم عن « تفرد » الشخصية فى كل منهما رغم التشابه الواسع المدى ، ودون أن يعنى ذلك أى تنافر أو تضاد بينهما

ولهذا فان من الخلط أن نظن أن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان لهذا القطر العربى أو ذاك يعنى تدعيم الدعوة الانفصالية ، وأننا اذا قلنا شخصية مصر فقد قلنا الفرعونية أو اذا قلنا شخصية الشام فقد قلنا الفينيقية .. الخ ، وأن القول بتفرد أى أو كل قطر عربى هو تبرير للتجزئة السياسية أو سند للانفصال يتعارض مع القومية والوحدة العربية

وحقيقة الامر أن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة

من الوحدة الطبيعية ، وانما من الوحدة البشرية تأتى . فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس اى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الاساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة ، وهذه جميعا أركان متوفرة فى القومية العربية ربما كما لا تتوفر فى قومية أخرى معروفة . ولا عبرة بعد هذا بتجانس او تباين الارض التى يحتلونها

ثم ان الوحدة السياسية وحدة وظيفية ، والوحدة الوظيفية فى اى مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى . فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى انتاجها ومواردها وامكانياتها ، الا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم ؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ « التنوع فى الوحدة » أو « الوحدة فى التنوع » .

واذن فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من اقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أوبأخرى داخل الاطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات انما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والابعاد . وهو فى نفس الوقت لا علاقة له بالتعدد الدستورى ولا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ، ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومي العربى الكبير أو على حسابه . لا ، ولا هو يمهد لنعرة محلية وانعزالية فكرية وسياسية بقدر ما يضيف الى العزة القومية الواسعة وينميها

واذا كنا قد جادلنا بأن الكلام عن شخصية مصر لايعنى اقليمية ضيقة فضلا عن شوفينية شعوبية ، ولا يضع الوطنية فى مواجهة ضد القومية ، فاننا نضيف الان انه لا يؤكد الوطنية من خلال القومية فحسب بل ويؤكد

القومية من خلال الوطنية تأكيداً صحياً بغير تعارض . واذا كانت بعض البلاد مثل الولايات المتحدة قد نجحت وحدتها لانها ـ كما قيل ـ قد تجاهلت عمداً وعن قصد كل الجغرافيا وكل التاريخ ؛ واذا كانت بلاد اخرى مثل كندا تعاني وحدتها لأنها تتذكر الجغرافيا أكثر مما ينبغى وتتذكر التاريخ أقل مما ينبغى ؛ واذا كانت بلاد اخرى مثل غرب أوربا تتعثر وحدتها لأنها تتذكر كثيراً جداً من التاريخ وقليلا جداً من الجغرافيا (١) ، اذا كان هذا فاننا فى الوطن العربى يمكن ان تنجح وحدتنا اكثر كلما تذكرنا الجغرافيا والتاريخ معاً اكثر واكثر ، لان التاريخ يجمعنا مثلما تفعل الجغرافيا ، والمكان والزمان عوامل وحدة بيننا ، بل وربما جاز لنا أن نقول ان الجغرافيا والتاريخ هما طوب وحدتنا العربية وملاطهـا أو هما لحمتها والسداة

وبعد ، فلقد كان ضروريا قبل ان نمضى الى شخصية مصر بافاضة أن نضغط على المغزى الفكرى للدراسة حتى لا نترك مجالا لتخريج أو تأويل مبتسر . فما نرى فى شخصية مصر مهما تبلورت أو تجوهرت الا جزءاً من شخصية الوطن العربى الكبير الملحمية الثرى ، وما نرى فى دراستها تعارضا أى تعارض مع أمل الوحدة الشاهق . واذا كنا قد خصصنا مصر بالدراسة فهذا امر طبيعى لجغرافى عربى من مصر ، ومع ذلك فانه يبقى املا كبيرا من آمال هذا الكاتب ان تتاح له فى المستقبل سلسلة كاملة فى الشخصيات العربية واحدة تلو الاخرى ابتداء من المحيط حتى الخليج

---

(١) W. G. East, An Historical Geog. of Europe, pp. 444—5.

الفصل الأول

التجانس والوحدة

من التجانس الطبيعي

التجانس الطبيعي صفة جوهرية فى البيئة المصرية . فالوادى كله وحدة فيضية ، أما التفرقة التقليدية بين الدلتا والصعيد فاختلاف فى الشكل والمساحة قبل أن يكون فى التركيب والنسيج ، ولا يبرر ما يقوله «كون» من أن « مصر من الوجهة الجغرافية ليست موحدة » (١) ، أو ما يقوله مايرز من أن مصر « كانت تتألف دائما من أرضين متميزتين ومتباينتين ، العليا والسفلى ، الوادى والدلتا » (٢)

واذا كان ثمة فارق فهو فى الدرجة لا فى النوع ، ولا محل لأى شيء كثنائية فى اللاندسكيب المصرى الذى يسوده النهر سيادة مطلقة ولا يغيب فيه عن عين الرائى أينما كان . وليس هناك انقطاع أو تغير فجائى ما بين الوادى الفيضى وسهل الدلتا ، حيث يبدأ الوادى فى الجنوب ضيقا مختنقا ــ كل العرض عند كلابشة ١٠٠ متر فقط ! ــ تحتضنه المرتفعات والحواف من الشرق والغرب ثم لا يلبث أن يتسع باطراد حتى يتراوح فى جذعه الرئيسى

---

(١) C.S. Coon, Races of Europe, N.Y., 1939, p. 92.

(٢) J.L. Myres, Dawn of Hist, H.U.L., 1933, p. 45

حوالى + او ــ ١٥كم بينما يأخذ الاطار التلى فى التواضع، حتى اذا بدأ الانفراج عند راس الدلتا لم يكن اتســـاع السهل فيها واتضاع التلال حولها الا استمرارا لاتجاهات تحددت منذ البداية . وفيما بين الوحدتين ، الوادى والدلتا ، يستمر انحدار السطح العام متصلا مطردا من الجنوب الى الشمال بلا انقطاع ظاهر

كل الفارق اذن أن الصعيد شق غائر ضيق ، بينما الدلتا مروحة مبسوطة مسطحة ، وهى أكثر طميية فى قلبها من الصعيد ولكنها أكثر منه رملية فى الاطراف . وفيما عدا هذا فالدلتا تتحلل فى النهاية الى مجموعة مخففة مصغرة متراصة من «الصعيدات» فى نمط أشبه ما يكون بورقة شجر مقلوبة ، عروقهـا هى الضفاف المرتفعـة وأرضيتها هى المجارى المائيـة (١) . والتباين المحلى المحســوس لا يبين حقـا الا فى أقصى الأطراف الهامشية شمالا فى الدلتا وجنوبا فى الصعيد الأقصى . فالأولى نطاق مستنقعى بحيرى ، والثانى شريط جنادل صخرى . اما الفيوم « فمصر الصغرى » لا بانفصالهـا الواضح عن الوادى كدلتا داخلية فحسب ، وانما كذلك من حيث هى تصغير جامع للدلتا والصعيد : انها بصيغة رياضية الجذر الجبرى لمصر Integer of Egypt : فواديها هو بحر يوسف ؛ أما المنخفض نفسه فبمثابة مجموعة من دالات مروحية صفت فى دائرة مغلقة بحرها المتوسط المشترك هو بحيرة قارون ، ومدرجاتها المشـهورة هى تضاغط لانحدار الدلتا الوئيد

وقديما فى ظل الرى الحوضى كانت وحـدة البيئـة وتجانسها تتجلى فى تمامها حين تتحول أرض مصر تحت

---

(١) A. E. Crouchley, Econ. Development of Modern Egypt, Lond., 1938, p. 3.

الفيضان الى بحيرة هائلة متصلة او خليج عذب واحد لا تقطعه الا سطوح السدود وقمم المدن والقرى ، بينما تعود بعد انحسار النيل فترسم صورة سلسلة مترامية لا نهائية من الأحواض المتشابهة سواء فى الصعيد أو فى الدلتا . واذا كان الرى الدائم قد خلق اختلافات اقليمية فى شكل اللاندسكيب ، حيث بدأ من الشمال وظل يغزو الجنوب على دفعات ، فقد كان ذلك أمرا موقوتا بالضرورة ، ونحن نرى اليوم آخر بقايا الحياض تختفى مع السد العالى ، وعاد أديم مصر الزراعية غطاء متجانسا من أطرافه الى أطرافه ، ترصعه ـ كوحدات زخرفية متكررة ـ نقوش الحقول والزراعات الدورية ، وتمنحه آجام النخيل العالمية « موتيف » موحدا من النوبة حتى فم البحر ، بينما تمثل ترعة الرى والمصرف ـ الاولى فى الألسنة العالية والثانى فى المواطى البينية سواء ذلك فى الدلتا أو فى الصعيد ـ موتيف هيدرولوجيا آخر يؤكد وحدة اللاندسكيب المصرى الحضارى

أما مناخيا فالامتداد عبر نحو ١٠ درجات عرضية هو « ترافرس » كالقطاع الطولى يخلق بعض فروق محلية بالضرورة ، ولكنها بالضرورة أيضا فروق لا تبين الا بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب . واذا كان بالشمال الأقصى شريط ساحلى دقيق من مناخ البحر المتوسط فهو اقليم مناخى متدهور أكثر منه اقليما أوليا متبلورا ، بينما يظل المناخ الصحراوى الجاف يحتل سماء مصر التى تقع برمتها دون المدار ، فان حدودنا الجنوبية تكاد تبدأ مع مدار السرطان . والواقع ان الفروق الحقيقية فى المناخ فى مصر هى الفروق الفصلية قبل أن تكون الفروق الاقليمية

وهذا التجانس الاساسى فى المناخ ينعكس فى الزراعة

بطبيعة الحال . فمصر كلها اقليم زراعى واحد على طوله ؛ أما اقاليمها المحلية فاقل من ثانوية أو حتى ثالثة فى مرتبتها التصنيفية ، ولا تكاد توجد — مرة أخرى — الا فى أقصى الاطراف الهامشية شمالا وجنوبا . ولذلك فالمحاصيل كلها عالمية التوزيع تقريبا ، وان تباينت ففى نسبها ومركباتها المحلية . أما المحاصيل المحلية بصرامة فهى ثانوية الاهمية للغاية بحيث تضيع فى زحمة التجانس القاعدى . ولهذا كله فان الفروق المحلية فى الانتاج الزراعى اقل بكثير من القاسم المشترك الأعظم وتتضاءل بجانبه (١)

واذا كان قد قيل ان مصر بامتدادها الطولى الواضح من الجنوب الى الشمال تكاد تطوى نطاقات القمح والذرة والقطن الأمريكية فى طية واحدة (٢) ، فهذا أصدق باعتبار الاطراف القصوى الشمالية والجنوبية فى الحقيقة ، أما جسم البلد وصلبه فأدنى الى أن يكون اقليما زراعيا متجانسا أو شبه متجانس . وأكثر من هذا فى الناحية الاقليمية العامة ، حين نحاول أن نميز فى الجغرافيا بين أقاليم مختلفة فى مصر ، نجد أن تقسيمنا يعتمد أساسا على المسافة اكثر منه على المساحة

وحتى اذا انتقلنا الى « أعمال الانسان » أو « الثوابت الحضارية Cultural immobilia » كما تسمى ، من قرى ومدن باعتبارها مظهرا للتفاعل المادى المباشر بين البيئة والانسان أو رد فعل جغرافى للنشاط والفعل البشرى ، فلن نخطىء وحدة التجانس القاعدى . فالقرية المصرية

(١) G. Hamdan, Evolution of Irrigation Agric. in Egypt in A Hist of Land Use in Arid Regions. Unesco, Paris, 1961, p. 131.

(٢) H. K. Selim, Twenty Years of Agric. Development in Egypt.

خلية اولية ، ولا نقول اميبية ، تكاد كما وصفها البعض تمثل امتدادا راسيا تشكيليا للأرض السوداء الأفقية ، وهى بعد تكاد تكون نسـخة مكررة فى كل الوادى وان اختلفت احجاما واوضاعا . وباستثناء حلات الصـيد البحيرية والبحرية فى أقصى الشمال ، وقرى النـوبة الفريدة جدا فى أقصى الجنوب ، لا نكاد نجد اختـلافات تركيبية ملموسة بين قرى الوادى أو المسكن القروى فيه ..

ومثل هذا عن المدن يقال . فباستثناء العاصمتين وقلة من الموانى ومدن القنال ، تشكل المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة ـ البندر التقليدى ـ وحدة مورفولوجية ثابتة الطابع والقالب والجو العام حتى ليؤكد جان لوزاك أن واحدة منها لا تعرف شخصية مدنية مستقلة تنفرد بها عمن سواها (١) . غير أن الامر فى النهاية انما هو ـ بغير حتم جفرافى ـ هذه العلاقة البسيطة : وحدة البيئـة الطبيعية : وحـدة البيئة العمرانيـة ، تجانس البيت الجغرافى الكبير : تجانس البيت السكنى الصغير

التجانس الطبيعى اذن حقيقة لا شك فيها . الا انه مع ذلك لا ينبغى المبالغة فى تقديرها الى الدرجة التى نصل فيها الى صورة باهتة الملامح . فكما يقول روبين فيـدن « نظرا لشـفافية التبـاين ودقائق التغير فى اللاندسكيب المصرى ، فقد يظن المرء خطأ أنه لا ملامح له . وقد يصل الظن به أخيرا الى انه لم ينتقل أبدا وأن تقدمه لم يكن الا وهما . فبعد سفر طوال النهار ، قد تحسب انه لم يكن ثمة الا منظر واحد عبره شاهدت تلاعب الضوء والنور والشكل اللانهائى : هذا فجر وهذا ظهر وهذا غروب » (٢)

---

(١) J. Lozach, Délta du Nil, Le Caire, 1935, p. 209.
(٢) Robin Fedden, Land of Egypt, Lond. 1939, p. 11.

لا يمكن القطع علميا بشأن الاصول الجنسية الاولى لسكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، أو ما يمكن أن نسميه مع بيجهوت « فترة تكوين الاجناس » ، اذ تتكاثر النظريات المتعارضة وتقل الأدلة اليقينية . والباحث فيما كتب عن تعمير مصر وأجناسها الاولى يدخل ـ فى معنى حقيقى جدا ـ فى متاهة كلها ضباب . ولو انه أخذ ببعض النظريات القديمة التى شاعت زمنا ، لكانت مصر ما قبل التاريخ مثلا بل أمثولة لاختلاط الاخلاط والأمشاج الجنسية ابتداء من البوشمن والزنوج الى الليبيين والاسيويين ... الخ

وكثير من هذه النظريات يصر على استيراد سكان مصر الأول من مصدر خارجى ، اما من الجنوب من افريقيا أو من جهة البحر الاحمر ، واما من الشمال من آسيا أو عن طريق الدلتا . ومنها ما يستمد السكان الأول من اختلاط وتصادم تلك الأجناس الدخيلة الوافدة (١) ..الخ غير أن الأبحاث الحديثة أثبتت جموح كثير من هذه النظريات وأنها بنيت على شبهات ثم نمت بالتأويلات

ومن المحتمل ــ مع طول المدى التاريخى ــ أن قد حدثت بعض موجات جنسية وافدة وربما تم بعض من الاختلاط حتى ما قبل عصر الأسرات ، ولكن حقيقتين آساسيتين ينبغى أن تعلوا فوق كل التفاصيل : الاولى كما يقول شانتر هى أن المصريين القدماء شعب أصيل

---

(1) W. M. Flinders Petrie, «Migraticns», Jour Rcy. Anthrop. Inst, 1906, pp. 5 ff.; A.C. Haddon, Wanderings of Peoples, pp. 56-7; A.H. Brodrick, Early Man, 1948

فى مصر autochtonous ولم يفدوا اليها من مكان آخر (١) ، والثانية هى أن احتمالات الاختلاط الهامة قلت مع ومنذ بداية عصر الأسرات التاريخية

وتشير الدراسات الأركيولوجية والانثروبولوجية الى انه قد لا يكون هناك اتصال واستمرار بالضرورة بين سكان العصر الحجرى القديم والحديث ، اذ يبدو أن الجماعات الاولى قد اختفت أو ربما انقرضت ، وحلت محلها الجماعات الثانية . ولكن الأدلة توحى بأن ثمة استمرارية جنسية ما بين سكان العصر الحجرى الحديث وما بين عصر ما قبل الأسرات الى عصر الأسرات ، بمعنى أن هذه العناصر جميعا قد دخلت بدرجة أو بأخرى وبصورة ما فى تكوين سكان مصر التاريخية . وعلى أية حال ، فلا شك فى استمرارية الجنس بين ما قبل الأسرات والأسرات (٢)

ومنذ ذلك الحين والتاريخ الجنسى المصرى ليس الا عملية نمو « وتجنيس » داخلى وتطور تدريجى طبيعى خال من العقبات أو الهزات الى درجة جعلته مضرب الامثال . يقول كون « لا بد أن تظل مصر القديمة ابرز مثال معروف فى التاريخ حتى الان لمنطقة معزولة طبيعيا اتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الاصيلة أن تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثر اطلاقا باتصالات أجنبية » . وفى النتيجة ـ يضيف نفس الكاتب ـ فان « التغيرات التى لحقت النمط الجنسى فى اى جزء من أوربا خلال السنوات الخمسمائة الاخيرة كانت أكبر منها فى مصر خلال خمسة آلاف » (٣) . وفى

---

(١) E. Chantre, Recherches anthropologiques dans l'Afri- que Orientale, Egypte, 1904, p. 30 2-3.

(٢) برودريك ، ص ١٧٤ ، ١٧٧ .

(٣) كون ، ص ٩٦

نفس المعنى ، وربما بتأكيد اقوى ، يقول برودريك « ... من الواضح طوال الستة آلاف سنة الاخيرة أو يزيد أنه لم يكن هناك أي تغير ملحوظ فى مظهر جمهرة المصريين . فالبداريون ، وأهل النقادتين ، ومصريو الأسرات والفلاحون الذين تراهم يعملون فى الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدى ـ المتوسطى » (١)

فمنذ فجر التاريخ اذن يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الاصل متجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسمية . وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم دون أن تحدث أى ابتعادات ملموسة عن النمط الأولى أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة . والواقع أن من أطرف الحقائق الانثروبولوجية بقاء او ثبات النمط المصرى عبر العصور Persistence فلم يكد يتحرك منذ آلاف السنين ، حتى أن ثمة من التماثيل الفرعونية من عصر الاهرامات حين كشفت فى القرن الماضى ما تعرف الفلاحون وعمال الحفائر على بعضه كشبيه وممثل لبعض أفراد من بينهم ! (٢)

وهذا الثبات وحده جدير بالدهشة والتساؤل ، لا لأنه يتحدى البعد الزمني الطويل فحسب ، وانما لأنه يتحدى كذلك القاعدة الاصولية من ان البيئات الغنية تجنح كمناطق اغراء وجذب بشرى الى الخلط والتنافر الجنسى (٣) ولكن الذى يفسر هذا هو التعارض بين اثر الموقع واثر الموضع . فالموقع مركزى مطروق بل قلب دوامة بشرية ، والموضع غنى ولكنه محمى معزول بدرجة لعبت غلالة الصحراء حوله دور « ماصة الصدمات أو

(١) A. H. Beodrick, Tree of Human Hist, Lond, 1951, p. 118.

(٢) H. Vallois, Races Hamaines, Paris, 1948, p. 40.

(٣) W. B. Fisher, Middle East, Lond, 1950, p. 77.

المصفى » الذى غربل الموجات الداخلة وكسر حدتها ، واخضعها للون قاس ولكنه صحى من الاختيار الطبيعى . واذا كان النطاق الساحلى الشمالى ابتداء من سيناء حتى مريوط ممرا عبوريا مطروقا، فمن الراجح كما حدث فى عصور ما قبل التاريخ أن كثيرا من الموجات التى انتقلت من غرب آسيا الى شمال افريقيا اخترقته دون ان تمس جسم مصر تماما أو ان تؤثر فيه بكثير أو قليل

وبين هذه الضوابط وتلك ، كان الحل الوسط هو أن مصر لم تتعرض اساسا للهجرات البشرية وانما للغزوات الحربية ، الأولى تتغلغل وتسرى غالبا فى الريف كما تسرى فى المدن ، أما الثانية فتقتصر على المدن تقريبا ، الأولى تمثل حركات ضخمة الحجم كما ، أما كيفا فهى « هجرات كلية » أى تشمل الجنسين ولهذا يكون تأثيرها الجنسى محققا ، أما الثانية فبضعة محدودة من حركة « ذكرية » بحتة ولذا تذوب ان لم تبد . فمن بين نحو ٤٠ موجة دخيلة عدت فى تاريخنا ، لا نجد الا ثلاث هجرات حقيقية هى الهكسوس والاسرائيليون والعرب

ولكن الهجرتين الأوليين طردتا تماما بعد حين ، وكان الاستقرار فيهما محليا أساسا حيث اقتصر انتشار الهكسوس على الدلتا بينما كانت أرض جاشان (وادى الطميلات) هى « حظيرة اليهود Jewish Pale » الاولى فى التاريخ ، بل انها باعتبارها ممرا لهم أكثر منها مقرا كانت حارة اليهود اكثر منها جيتو كبيرا . أما حجما ففى التوراة أن اليهود عند الخروج لم يكن يزيد عددهم عن ٦٠٠ الف ، أما تقدير فلندرز بيترى لقوة الهكسوس العددية فى قمتها بنحو مليونين أو ثلاثة فتخريج — تخمينى صرف لا سند له علميا — من عددهم عند الخروج وهو

٢٤٠ الفا ؛ الذى هو بدوره رقم لا ندرى مصدره (١)

أما الهجرة العربية ـ التى يسرف بيترى فى التقليل من قوتها العـــددية والدموية ، على عكس ما فعـــل بالسابقتين ، حتى ليصل بها على نفس الاساس الجزافى أو الخرافى الى ١٥٠ ألفا فى مجموعها طوال تاريخها من ذكور واناث ! (٢) ـ فتقف فى الحقيقة وحدها من حيث اثرها ووزنها . ومن المسلم به انها بدأت بأعداد محدودة ، كغــزوة ذكرية ، ولكنها سرعان ما تحــولت الى هجرة واسعة النطاق مختلطة النـــوع . وهى الاخرى بدأت كشبه استقرار على اطراف الصـــحراء وحواف المدن ـ خاصة الحوف الشرقى أى شرق الدلتا ـ وكشبه معسكرات فى المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت فى بطن الحوف اى داخل الأراضى الزراعية والريف وانتشرت فى المدن . وهكذا تم الاختلاط لا فى بؤرات المدن وحدها كما فى حالة اليونان والرومان من قبل، وانما فى تضاعيف الريف ، ولهــذا كتب للتعريب أن يكون تحــولا خالدا لا ظاهرة عابرة كالهللينية

ولقد كانت القبائل النازحة تتقاطر مع كل حاكم ، ولكن بعضها انسحب الى الجزيرة فى النهاية ، وليس من الممكن ان نقدر العدد المطلق أو النسبى للعنصر العربى الوافد عبر عدة قرون ، ولكنه لا شك لم يكن بسيطا رغم كل محاولات التقليل العامدة ، ولا عبرة بالقطع بتقديرات بيترى ولا بقوله ان « الفتح العربى كان تغييرا فى السادة الحكام أكثر منه تغييرا فى الجنس » (٣) . وبالمثل يقول شانتر فى تاريخ معاصر « أما عن العرب الذين كثــيرا ما يطلق اسمهم بطريقة غير سليمة على المصريين ، فقــد

---

(١) بيترى ، ص ١٤ (٢) السابق ، ص ١٥
(٣) السابق

نسب اليهم تاثير أكثر بكثير مما كان لهم فى الحقيقة » ، ثم يضيف أنه « يمكن القول بأن العرب هم الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من المصريين بالعرب » (١) . ولئن كان فى هذا بعض من الصحة ، فهو بالمعنى الجنسى ، ويكون السؤال لماذا ؟

لا لسبب سوى أن العنصر العربى من أصل قاعدى واحد مشترك مع العنصر المصرى ، فكلاهما اقارب جنسيا منذ ما قبل الاسلام ، بل وما قبل التاريخ . فالاختلاط الجنسى المصرى — العربى كان فى الحقيقة زواجا بين أقارب بعيدين . ولهذا قيل انه اذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافيا، فان مصر قد مصرتهم جنسيا (٢) . وايا ما كان ، فان هذا لا ينفى قدرا ، وقدرا كبيرا ، من اثر جنسى للعرب ، ولو أنه لم يغير من التجانس الاصلى للسكان . ويتضح هذا أكثر اذا قارنا بالسودان مثلا . فالاثر الجنسى البحت — الاثر الدموى — للعرب فى السودان واضح تماما رغم أن ما انصب منه فيه قد يكون اقل مما انصب فى مصر . والسبب فى ذلك أن هنا فى السودان يختلف الأساس الجنسى القاعدى نوعا ما بين السكان الأصليين والعرب الوافدين

ولعل من المفيد بعد هذا أن نذكر اختلاف السرعة بين الفتح والتحول الى الاسلام والتعريب . فاذا كان الفتح قد تم فى ضربة واحدة ، فقد تطلب التحول الدينى نحوا من قرنين الي ثلاثة أو اربعة ، والمقدر أنه اكتمل على عصر المماليك ، أما اللغة فكانت أثقل خطوة وتأخرت عنه (٣) . هذا وكما فى بقية المشرق العربى ، وبعكس ما نجد فى المغرب العربى ، سيلاحظ أن عملية التعريب فى مصر

---

(١) شانتر ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣

(٢) Encyclopaedia of Islam, art. Egypt.

(٣) Philip K. Hitti, The Arabs, 1948, p. 106.

جاءت أقوى من صبغها بالاسلام . فبينما نجد الاسلام كاملا فى المغرب والاقلية لغوية (البربر) ، نجد العربية كاملة تماما فى مصر بينما الأقلية دينية (الاقباط) . وبهذا يمكن أن نلخص الموقف كله فى مصر فى أنه كان عملية تغيير لسان أولا ، وقلب ثانيا ، ثم كان عملية تغيير جلد فى المرتبة الثالثة ، بينما لم يكن تغيير دم الا فى المرتبة الرابعة

والواقع أننا ينبغى ان ننظر الى الموجة العربية كشىء نادر خارق بطريقة ما . فمصر الفرعونية التى سيطرت على مناطق كثيرة من الشرق الاوسط وصدرت حضارتها المادية اليها ، لم تستطع أن تمد لغتها خارج حدودها ، فى حين ان العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ، ولم يكن لهم حضارة مادية خارج الدين واللغة ، استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حيثما ذهبوا . وربما يذكرنا هذا الوضع بالفارق بين اليونان والرومان ، فقد كان للأولين حضارة مادية وغير مادية كاملة ، وكان لهم امبراطورية هللينية ، ولكن رغم بعض « الأغرقة » اللغوية المؤقتة لم تستطع اللغة اليونانية أن تعيش نهائيا خارج اليونان ، فى حين أن الرومان الذين بدأوا كقوة عسكرية فقط بلا حضارة ثم استعاروا حضارة الاغريق وبنوا عليها ، استطاعوا أن يعمموا اللغة اللاتينية فى كل امبراطوريتهم

واذا كان يقال ان روما وان استعمرت اليونان حربيا فقد استعمرتها اليونان حضاريا ، فكذلك اذا كانت العرب قد عربت مصر لغويا ودينيا فقد مصرتهم مصر حضاريا وماديا . أما الفارق بعد هذا بين دور العرب والرومان ، بين التعريب « والرومنة » ، فهو أنه بينما تشعبت اللاتينية الى لغات محلية منفصلة ، ظلت اللغة العربية شيئا واحدا بين كل العرب بفضل قوة جاذبة

مركزية ، بفضل « جيروسكوب » لقوى خالد هو القرآن

وبعد الموجة العربية عادت الحركات الداخلة فاقتصرت على الغزوات لا الهجرات ، وهذا يصدق على أتراك الطولونية والاخشيدية وأكراد الايوبية وشراكسة المماليك، كما يصدق على أتراك وألبان وانكشارية العثمانية . وربما لا يشذ عن هذا الا الموجة الفاطمية من المغرب . وفى كل تلك الحالات كانت الاعداد الوافدة محدودة مهما بلغت ، وكانت مذكرة غالبا ، تتركز أساسا فى المدن ، وتمثل مستعمرات مغلقة تتزاوج غالبا من الداخل inbreeding . وفى هذه الحالة كانت ـ كما لوحظ كثيرا ـ عقيمة لا تعقب فى مناخ مصر ، مما كان يلزم معه لكى لا تنقرض أن تستورد دفعات جديدة منها من الخارج ، كما كان يحدث بين المماليك خاصة

غير أن البعض يرفض هذه النظرية المناخية ، ويرى ان سبب انقراض هذه المستعمرات الدخيلة انما هو التزاوج الداخلى الضيق أولا ، ثم ثانيا وظيفتها الحربية التى كانت تعنى الوفاة المبكرة للغالبية فى الميدان قبل أن تكون أسرة (١) هذا والا فانها كانت تتزاوج من المصريين وفى هذه الحال كانت تذوب فى الجسم الكبير دون أن تنسخ لونه الاساسي . وفى هذا المعنى يمكن أن نقرر أن مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسى فحسب ، بل وبالمعنى الجنسى أيضا

والى هذا جميعا ينبغى أن نضيف الرقيق ، الذى ظلت تجارته واستخدامه قاعدة خلال أغلب هذه المراحل ، والذى كان شديد التنوع فى أصله متراوحا ما بين الرقيق الابيض من الشراكسة والاسبان والسلاف

---

(١) W. Muir, Mameluke Dynasty of Egypt, Lond, 1896, p. 228.

.. الخ وما بين الرقيق الاسود من افريقيا والحبشة والسودان . ومعظم هذه العناصر ، التي وصلت احيانا الى أرقام لا يستهان بها .واستوطنت نهائيا ولم تغادر البلاد ، لايمكن الا أن تكون قد ذهبت في تكوين السكان العام وساهمت في تحديد النمط الجنسي بعد أن انصهرت في البوتقة المصرية سواء قبل أو بعد تحرير الرقيق

عزلة الموضع النسبية اذن حفظت على مصر شخصيتها الجنسية وتجانسها في النمط الجثماني . فمن الوجهة العملية كانت مصر عامة وحدة كبيرة واسعة من التزاوج الداخلي مما ثبت وكثف فيها صفاتها وملامحها . كذلك قد يضاف ان قصر متوسط الاعمار في مصر — وهو ظاهرة قديمة — كان معناه سرعة تعاقب الاجيال مما قد يعني زيادة تثبيت النمط الجنسي فيها . ولا شك كذلك ان ضخامة عدد السكان في مصر في اغلب مراحل تاريخها ، كانت من العوامل الهامة في تحديد نتائج المؤثرات الجنسية الوافدة . فمهما قد تكن هذه بلغت من قوة ، فان ضخامة المحيط المصري ديموغرافيا كانت كفيلة بابتلاعها وامتصاصها دون أن تحرف النمط الاصيل تحريفا جوهريا أو مبالغا فيه . وأخيرا فان ترامي البعد التاريخي المصري قد باعد زمنيا بين تلك المؤثرات وخفف بذلك من وقعها ، فكأن العامل التاريخي كان عامل ترشيح جنسي بمثل ما كان العامل الجغرافي مصفي وعامل امتصاص

ذلك كان التجانس الجنسي في مصر كما حدده تبلور الموضع . ولكن شكل هذا الموضع ساعد بدوره على تأكيد هذا التجانس . فالمعمور المصري كان دائما يدق على أطرافه القصوى شمالا وجنوبا ، ولكنه في مجموعه كان كتلة واحدة متصلة ، أشبه ببقعة زيت ممدودة ،

مما لم يترك مجالا لانقطـــاعات أو ابتعادات محلية أو توطنات تخصصية لكى تتبلور فى جيوب وأســـافين . وقد كان من الممكن أن يســـاعد شكل الموضع كشبه جزيرة صحراوية منعزلة على أن تتحول مصر الى حد ما الى صندوق مغلق الا من ناحية واحدة ـ كشبه قارة الهند على تصفير ـ بحيث تزيح فيه كل موجة لاحقة كل موجة سابقة الى الداخل ، وتنتهى الى نظام صـــارم للطبقات (الكاست) . ولكن كما رأينا ، وعدا الفارق الحجمى الهـــائل ـ لم تكن مصر مسرح هجـــرات بل غزوات ، كما انهـــا لم تعرف حاجزا لونيـــا أو حاجزا حضاريا ولا انقطاعا سكانيا ، ولهذا ظلت جسما متجانسا فى كل أجزائه .

وليس صحيحا مطلقا فى هذا المجال أن الموجة العربية الاســـلامية أزاحت الاســـاس « القبطى » الى جيب الجنوب المغلق فى الصـــعيد ، وذلك كما حدث مثـــلا للفرشات الاساسية فى الشام أو المغرب حيث التجأت الى المعاقل الجبلية والمرتفعات . فالانتشار العربى كان أشبه شىء بعملية الانتشار الفشائى الاسموزى : عالمية وسارية : عملية تفلفل لا زحزحة ، وتخلل لا ازاغة . ولهـــذا فقد أثبتت الابحاث الانثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى بين « الفلاحين والقبط » فارقا كالذى بين « العرب والبربر » فى المغرب : « رأى بعض المؤلفين أن بينهما نفس الاختلافات التى بين من يدعون بالعرب وبين البربر . ولكن علم الاجنـــاس لم يؤيد هذا الرأى : فالاقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئا واحدا » (١) . وهكذا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية ..

(١) فاللوا ، ص ٣٩

وفى هذا أيضا رد ضمنى وتوضيحى على النظرية الشائعة من أن الاقباط أقرب الى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين . ولا شك ان هذا صحيح ــ وانما بالنسبة الى جزء من المسلمين وليس كلهم . فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية ، فهؤلاء اذن لا يقلون قربا من المصريين القدماء عن الاقباط . ولكن لما كان « الاقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئا واحدا » ، فان هذا يؤكد مرة اخرى شدة تقارب العنصر العربى اصلا مع العنصر المصرى القاعدى . واذا كان قد لوحظ ان الاقباط افتح لونا بعامة ، فمن المعروف كذلك ان هذا فارق بيئى ، مهنى بالتحديد ، حيث لايرتبط الاقباط بالزراعة والعمل فى الخلاء وبالتالى لايتعرضون للشمس كالفلاح المسلم

وليس أقل خطأ تلك المحاولات السطحية عند بعض الكتاب الغربيين لتصوير أو تصور « نطاق قبطى » فى الصعيد الاوسط حاليا (١) ، وكذلك لم تكن مدينة الفيوم فى القرن الماضى ولا مدينة أسيوط فى الوقت الحالى (٢) « عاصمة » للأقباط الا فى المعنى المجازى جدا . فرغم أن نسبتهم ترتفع بين السكان محليا ، فهم لا يمثلون الاغلبية فى أى مساحة على أى مستوى : فليس ثمة تركزات أو توطنات محلية . بل أكثر من هذا ان نسبة الاقليات الدينية فى مصر تتناقص باستمرار مع الوقت بسبب تفوق معدل المواليد المسلمين تقليديا أولا ، والتحولات التى تحدث سنويا الى الاسلام ثانيا (٣) . فمثلا انخفضت نسبة المسيحيين فى مصر من ٨ ٪ فى

(١) Benjamin E. Thomas, in World Geog, ed, Free-man & Morris, 1958, p. 400

(٢) Chantre, p. 153; L.D. Stamp, Africa, 1959, p.208.

(٣) Charles Issawi, Egypt, 1946, p. 162.

عام ١٩٤٧ ، الى ٣ر٧ ٪ فى عام ١٩٦٠ ، الى ٦ر٦ ٪ فى عام ١٩٦٦

ومثل هذا يقال عن اسفين النوبيين . فهم وان مثلوا جيبا محليا واضحا ، الا انهم كأقلية لغوية يقعون على أقصى هوامش المعمور والرقعة السياسية . وعددهم ليس بالكبير ــ نحو ٥٠ ألفا حاليا . وحتى بعد هذا فمن الخطأ اعتبارهم أقلية فى أى معنى ، فهم ليسوا أكثر من « قبيلة » متميزة نوعا فى الجسم الكبير ، واذا كانت لهم لغة خاصة فهى لسان داخلى يجمع بينها وبين العربية . وسيلاحظ انه منذ مشاريع الرى فى خزان اسوان ، وبصفة أخص السد العالى ، حدثت عملية انتشار وانصهار للنوبيين فى تضاعيف السكان بحيث نرى تركزهم كجماعة محلية آخذا فى الذوبان ، وعملية تمام تمصيرهم آخذة فى الاسراع

نخلص من هذا كله بالتأكيد الى ان مصر القديمة والمعاصرة ، جنسيا وغير جنسى ، جسم متجانس اساسا . ومع ذلك وبعد كل ذلك ، فليس ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا ، يكفى أن نقول تجانسا نسبيا . كذلك فان هذا التجانس لايرادف النقاوة الجنسية تماما . فمن الواضح ان دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت الى عروق مصر وصبت فى شراايينها ، وليس من المتصور الا تكون قد طورت الاساس الجنسى بدرجة ما وفى خط ما . واذا كان بعضها شبيها أصلا بأساس السلالة المصرية ، فقد كان البعض الآخر بعيدا عنها كل البعد . وليس من الدقة العلمية فى شىء أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله ، فليس هناك أطر ثابتة الى هذا الحد كأنها أقفاص حديدية ..

وينعكس جماع هـذا كله فى الصورة الجنسية لمصر المعاصرة . فاذا كان المصرى فى الاعم الاغلب متوسط القامة ، طويل الرأس «برونث» ذا بشرة تضرب الى سمرة خفيفة ، واذا لم يكن هناك دليل على فروق اقليمية فى القامة أو شكل الرأس ، فثمة بعض فروق محلية ولكنها ملحوظة فى لون البشرة التى تكاد كمقياس مدرج تتبع خط العرض من الشمال الى الجنوب (١) ، حتى لقد يقال ان المصريين المحدثين يمتازون بتناقض خفيف بين الصفات العظمية والملامح الجلدية : تجانس كبير فى شكل الرأس وطول القامة ، وتباين محسوس فى لون البشرة

ولا شك ان جزءا من تفاوت اللون بيئى يرجع الى الفروق المناخية ، ولكن جزءا آخر بيولوجى مستمد من الدماء الدخيلة . ففى الشمال تشتد المؤثرات الشمالية ويكثر اللون الفاتح ، بينما تظهر المؤثرات الجنوبية شبه الزنجية أو المتزنجة على استحياء فى الجنوب ، بينما أن المدن الكبرى العاصمية هى نسبيا أشد المناطق خلطا وانصهارا . لكن يخفف من وقع المؤثرات الدخيلة فى اقصى الشمال والجنوب انها تتفق الى حد بعيد مع أقل المناطق كثافة سكان . كما أن هذه الفروق السطحية لا تقلل أو تعدل من الوحدة الجنسية الاساسية للشعب المصرى ، ويخطىء لا شك من قد يرى المصريين ـ من خلال اللون وحده ـ مخلطين بقدر يذكر ، فى حين ان الصفات الوراثية الدفينة والحيوية تكشف عن وحدة قاعدية نادرة

والحديث عن التجانس الجنسى ، ينقلنا تلقائيا الى التجانس اللغوى والدينى ، حتى تكتمل لنا صورة مصر

---

(١) كون ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠

المعاصرة بشريا . فأما التجانس اللغوى فكامل كأكمل ما فى العالم العربى ، بل هو مطلق فى الواقع ، فليس ثمة من أقليات لغوية كما رأينا الا جيب النوبة وبربرية واحة سيوة ، وكلها لا تزيد عن بضع عشرات من الآلاف . ومع ذلك فهم مزدوجو اللسان جميعا ، بينما استعارت النوبية من العربية ثلث مفرداتها ، كل ذلك كخطوة لا شك فى سبيل التعريب المطلق . قارن هذا بالمغرب أو الجزائر أو العراق لتدرك مدى تجانس مصر اللغوى

اما دينيا ، فان الاقليــة القبطية وان كانت بعــددها المطلق تمثل أكبر جزيرة مسيحية فى اى دولة عربية — ٢٫٠٠٨٫٠٠٠ فى تعداد عام ١٩٦٦ — فان نسبتها محدودة اذا قورنت ببعض البلاد العربية : ٦٫٦ ٪ مقابل ١٦ ٪ فى سوريا مثلا . وفضلا عن هذا فان هذه الاقلية من صميم الجسم المصرى الكبير ، شــديدة التماسك فيه والالتحام به . وقد فشلت كل محاولات الاســتعمار الحديث فى خلق مشكلة الطائفية ليضرب بها الوحــدة الوطنية

الى الوحــدة :
طبيعيا وسياسيا

تستمد مصر وحــدتها الطبيعية من الخارج ، من الموقع ، ومن الداخل من الموضــع . فهى من الخارج واحة صحراوية أو بالاحرى شبه واحة ، أو هى جزيرة — فى الحقيقة شبه جزيرة — فى محيط الصحراء حيث تبدو كالكأس الطويلة أو الزهرة ساقها الصعيد وزهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم (١) ، وآخرون يقولون كالنخلة :

---

(1) John Ball, Contributions to the Geog. of Egypt, Cairo, 1939, p.11.

صعيد باسق ، ودلتا كالمظـــلة المفتوحة ، بينما الفيوم عرجونها . والمهم انها على استطالتها عالم واحد متناه صارم الحدود والمعالم ، ملمومة فى نفسها ومتماسكة ، وجسمها يبدو كأقدم وأضـــخم وأكثف جزيرة بشرية منفردة فى افريقيا وقلب العالم القديم

وهى فى كل هذا وبكل هــذا تتنافر بوضوح تام مع الصحراء المحيطة حتى ليبدو الفاصل بين الحياة والموت كالخط الصقيل وحتى ليمكن للمرء أحيانا أن يضع قدما على الارض السوداء وأخرى على رمل الصحراء (١) . وهذا وحده يجعلها تبدو منذ اللحظة الاولى كوحـــدة متميزة بذاتها . فالصورة الطبيعية واضحة بسيطة كل البساطة حتى لقد يبالغ البعض فيعدها ســـاذجة كما يفعل مارش فيليبس الذى يقول : « ان جغرافية الوادى صنعت للأطفال » ! (٢) وآخرون يقولون ان لمصر تاريخا ولكن ليس لها جغرافيا .. وبغض النظر عما فى هـــذا وذاك من مغالاة ان لم يكن مغالطة ، فان تلك البســاطة وذلك الوضوح الاساسيين فى مورفولوجيـــة مصر من عوامل تبلور شخصيتها ووحدتها . كذلك كان الشعور المشترك بالاخطار الخارجية المتواترة منذ فجر التاريخ قوة لاحمة بلورت الشعور بالذات وطنيا (٣) ..

ويمكننا أن نعبر عن تبلور جسم مصر جغرافيا بطريقة أخرى . فثمة فى العالم دول كثيرة تملك قلبـــا مركزيا واضحا ، ولكن يعوزها حدود طبيعية بارزة ، كما هى حال بولندا مثلا . وثمة على العكس بلاد تمتاز بحدود طبيعية قوية ، ولكنها تفتقر الى بؤرة عقــدية ناضجة ،

---

(١) J.A.Wilson, in Before Philosophy, Pelican, 1949, p.39.

(٢) L.M. Phillipps. Works of Man, Lond. 1932 p. 45

(٣) ويلسون ، ص ١٢٢

كما هو شأن ايطاليا . وأسوأ من الاثنتين دولة لا تملك قلبا ولا أطرافا طبيعية ، كألمانيا . أما مصر فهي — كفرنسا — من الندرة القلائل التى تتمتع بحدود طبيعية حامية مانعة كأقوى ما يكون ، لا تقل هنا عمقا عن الصحراوين الشاسعتين ، وفى نفس الوقت تتبلور وتتجسد بصرامة ولهفة حول نواة أو قلب بالغ النضج والجاذبية ويوشك ألا يقل فى امتداده عن الوادى برمته

بل ان مصر — أكثر من فرنسا — هى المثال الكلاسيكى للدولة — الوحدة والوطن الانسب optimum territory فى كل كتب الجغرافيا السياسية (١) ، وتمتاز — أكثر من فرنسا مرة أخرى — برقعة سياسية منتظمة تكاد تؤلف مربعا نموذجيا . واذا بدت حدودنا السياسية الحديثة خطية هندسية فلكية ، ومن ثم مصطنعة تتنافر مع الحدود الطبيعية خلفها ، فتلك فى الحقيقة ضرورة تنظيمية وذلك تنافر مفهوم بين الحدود كخطوط وبين التخوم كمناطق

ولكن تركيب مصر الداخلى لا يقل خطورة عن شكلها الخارجى فى منحها كيانا موحدا . فمن أعلى حوض عند جبل السلسلة فى أسوان الى أدنى حقل فى « الجزيرة الخضراء » عند المصاب ، تؤلف مصر سلسلة متصلة الحلقات متكاملة هيدرولوجيا ووظيفيا يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة كما لو فى أوان مستطرقة ، فلا يمكن أن تخطط لمشاكل الماء فيها تخطيطا محليا ، بل لا بد من أن تعالج كوحدة هيدرولوجية واحدة والا اختل فيها ذلك « التوازن الايكولوجى » الحرج الدقيق ، وبالتالى اختلت فيها عناصر الحياة . بمعنى آخر ، انها كل غير

---

(١) Y. M. Goblet, Political Geog. and World Map. Lond 1955, pp. 187—8.

قابل للتجزئة ، ولا يمكن أن تدار أو تحكم كمدة وحدات مستقلة ..

وعامل النقل والمواصلات ـ كالهيدرولوجيا ـ عامل توحيد وظيفى محقق فى بيئة مصر النيلية . ففى تناسق نادر ، يتضافر النهر مع الرياح فى ربط أجزائها ربطا محكما : النهر ينحدر من الجنوب انحدارا تدريجيا لطيفا (١ : ١٠٫٠٠٠ ـ ١٤٫٠٠٠) آخذا بيد الملاحة الهابطة فى يسر وسهولة ، والرياح الشمالية السائدة ـ التى عرفها اليونان من قديم بالرياح الاتيزية Etesian ـ تساعد الملاحة الصاعدة ضد التيار . وقد كان النهر وملاحة النهر أساس انتشار الحضارة داخل الوادى ، وكان أيضا وسيلة توحيده سياسيا

والواقع ان رقعة ما من مصر لا تبعد عن النيل أو فروعه أكثر من كيلومترات قليلة ، بل فى الجنوب يتحول الصعيد الخطى برمته الى شارع هائل يطل على النيل مباشرة ، ويتحول النهر الى « طريق متحرك» كما يعبر جوردون تشايلد (١) . ولعله ليس من مجرد الصدفة البحتة أن الرومان ـ و « الطريق الرومانى » أشهر من نار على علم حيثما دخلوا ـ لم يدخلوا شيئا منه فى مصر : لقد الغى الطريق المتحرك الحاجة الى الطريق الرومانى ..

وعلى أساس هذه الوحدة الطبيعية الآمرة ، وعلى أساس ما رأينا من تجانس طبيعى وبشرى محكم ، كان طبيعيا أن تظهر جرثومة الوحدة السياسية فى مصر منذ أول فرصة ممكنة . هنالك تبدأ مرحلة ما يسميه بيجهوت « فترة تكوين الامم » ، وهى مرحلة لم تعرفها

---

(١) V. Gordon Childe, Social Evolution Lond., 1951. p. 139.

دول أخرى الا بعد ذلك ببضعة الاف من السنين . بل لا تزال بعض الدول العربية اليوم تعيشها أو تعانيها . تلك المرحلة تبدأ مع بدء الاستقرار الزراعى حيث تحولت القبائل الرحل والعشائر الرعوية الطوطمية السحيقة الى أقاليم مقاطعات أو دول مدن هى التى تعرف باسم Nomes وبها انتقلت وحدة المجتمع من وحدة دموية مغلقة الى وحدة سكنية واسعة ، من وحدة قرابة ضيقة الى وحدة جوار رحبة (١) ..

والتاريخ يسجل لنا مرحلة سابقة للتاريخ كانت تتقاسم مصر فيها كوكبة من تلك المقاطعات ، أشبه ما تكون بمرحلة الاقطاع السياسى ودول المدن التى لم تعرفها أوربا الا فى العصور الوسطى ، أو هى أشبه ما تكون بالـ Pays فى فرنسا حتى الثورة . وقد كانت تلك الوحدات فى الحقيقة وحدات هيدرولوجية محلية . ولكن هذه المرحلة كانت قصيرة العمر ، واختزلت هذه الوحدات الى وحدتين رئيسيتين هما الوجهان البحرى والقبلى . ولا يوشك فجر التاريخ أن يبدأ حتى يكون توحيدهما قد تم من الوجه القبلى وذلك منذ نحو ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فكانت مصر بذلك أول « أمة » بمعنى القومية الصحيح وأول « دولة » بالمعنى السياسى الكامل . كانت أول دولة نووية من النوع الكثيف Intensive State بالمعنى الجيوبولتيكى

وهنا نرى ان بيئة مشابهة طبيعيا وحضاريا كالنهرين تتأخر وحدتها السياسية عن ذلك كثيرا . والسبب ان مصر أولا نهر واحد صغير المساحة ململوم ، بينما العراق نهران منفسحان فى رقعة مترامية نسبيا ، ثم ان مصر شبه واحة صحراوية متفردة بينما العراق شبه واحة

(١) A, Moret, De Clans aux Empires. Intensive State

استبسية تتلاشى بالتدريج فى البلاد المجاورة دون تحديد قاطع ..

والواقع ان مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط ، وانما هى أطول دولة حافظت على وحدتها القومية عبر التاريخ ، فلم يحدث خلال ٦٠٠٠ سنة أن انفرط عقد وحدتها وتدهورت الى انفصاليات اقليمية الا فى حالات نادرة شاذة للغاية أغلبها مفروض من قوى أجنبية دخيلة كغزو الهكسوس حين انفردوا بالدلتا وظل الصعيد معقل الدولة الوطنية المستقلة ، وكعهد الانحلال والاقطاع فى الدولة الوسطى ، وأخيرا كعهد الاقطاع المملوكى ..

بل القاعدة انه حتى فى ظل الاستعمار الاجنبى لم تفقد مصر وحدتها . فلم يحدث أن تقاسمها أكثر من مستعمر فى أى فترة أو خضعت لاكثر من قوة فى وقت واحد ، وذلك بعكس ما عرف الشام والعراق مرات ومرات فى تاريخهما . ولقد قيل فى هذا الصدد ان المشكلة فى الاستيلاء على مصر ليس غزوها وانما الوصول اليها (١) ، لانه متى تم هذا ووضع الفازى قدمه على موطىء ما منها قادته الطبيعة بسهولة الى بقية أجزائها كما لو بالانحدار والجاذبية ، أو كالفقاعة الهوائية فى الميزان المائى تقطعه من طرفه الى طرفه مهما بدأت

وأيا كان الامر ، ففى معظم هذه الحالات كان الصعيد — هل نقول ابتداء من أحمس حتى عبد الناصر ؟ — هو قاعدة التحرير أو اعادة التوحيد كما كان فى البدء قاعدة التوحيد . وهذا يرمز ببلاغة الى دور الصعيد فى الوحدة القومية طوال التاريخ . فمن البديهى أن الصعيد ، ومساحته نصف مساحة الدلتا وشكله ملموم

(١) Stamp, Africa, pp. 210 ff.

على نفسه رغم طوله ، أسهل توحيدا وتماسكا من الدلتا . ولئن كانت الدلتا فى نظرتها النفسية والحضارية تأخذ من سعة ورحابة أرضها ، بينما يأخذ الصعيد فى نظرته وعقليته من ضيق قاعدته وعزلتها نوعا ، فان هذا وان كان يعنى الثراء والتقدم والتفتح المادى النسبى للدلتا ؛ فانه يعنى للصعيد العصبية والعزيمة والشكيمة. وكما يلخص حزين ببلاغة « لئن كانت الدلتا قد أمدت مصر بالمال ، فقد أمدها الصعيد بالرجال » (١) . وبهذا يتكامل دور كل منهما فى صنع الوحدة الوطنية

وأخيرا سنرى ان هذه الوحدة التاريخية التى لم تنقطع والتى كانت جزئيا ثمرة للتجانس البشرى قد ضاعفت بدورها من هذا التجانس حتى قل أن نجد شعبا متماثلا فى ملامحه الجسمية والنفسية ، فى مزاجه وتقاليده ، باختصار فى « طابعه القومى » ، كالشعب المصرى

ولربما زدنا هذه الحقيقة وضوحا اذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخرى مجاورة . فى الشرق العربى مثلا ، عبر العصور الطوال كما فى يومنا هذا ، نجد أن سوريا تمتاز فى كل نواحى حياتها وكيانها بمعادلة اقليمية أساسية تعد مفتاحا لكل أعماق شخصيتها : انها تتألف من عدد كبير من الوحدات الضئيلة : فى الارض والطبوغرافيا ، فى العروق والسلالات ، فى اللهجات والاتجاهات ، فى الطوائف والملل ، حتى فى المدن والواحات ! انها فى ذلك كله كومة مفككة من الاحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصى وتراب.

---

(١) S.A.S. Huzayyin, Place of Egypt in Prehistory Cairo, 1941, pp. 314 ff;

« البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام » ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٤٢ ، ص ٤٤٦ - ٤٤٧

والعراق أكثر تجانسا وتماسكا ، فهو يتألف من عدد أقل من وحدات أكبر حجما ، فهو بنهريه وقوميتيه وبيئتيه الطبيعيتين السهل والجبل ... الخ أقرب الى الثنائية التركيبية - الى حجرين كبيرين نوعا . أما مصر فى هذه المتتالية التصاعدية فتأتى على القمة : فهى حجر واحد Monolith وحجر ضخم عند ذلك Megalith فهنا جسم بشرى واحد ووحيد ، ووسط جغرافى واحد بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد . وهى لذلك كله أبعد ما تكون عن التنافر الداخلى أو التخلخل التركيبى ، ومنه تستمد ثقلا ووقعا وقوة اندفاع فرضت نفسها على تاريخ المنطقة ، كما سنرى بعد قليل

الفصل الثانى

من الطغيان الإقطاعى إلى الثورة الاشتراكية

لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب والاستكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هى من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور ، فهى فى الحقيقة النغمة الحزينـــة الدالة Leitmotiv فى دراما التاريخ المصرى . ولا ينبغى لنا أن نخجل أو أن تأخذنا العزة فنهرب أو نكابر فى هذه الحقيقة ، كما أن من الخطأ أن ندع هذه تترسب فى نفوسنا كعقدة تاريخية ، بل لابد أن نجابهها بالتحليل العلمى والتشريح الموضوعى لنرى الى أى حد هى ظاهرة ظرفية مؤقتة رغم طول ما أزمنت ، أو الى أى مدى هى نتج طبيعى ــ كما يزعم البعض ــ للمركب البيئى ، وبالتالى جزء لا يتجزأ من مركبنا الحضارى

فهذا البعض يرى أن النهر بذر فى التربة الفيضيـــة جرثومة الطغيان حين أصبحت زراعة الرى هى أساس الحياة فى الوادى . ولكننا سنرى أن النهر وان كان يدعو الى كثير من النظام والتنظيم ، فهو لا يمكن أن يكون لعنة الطغيان ، بل سنجد أن ما تكرر فى بعض فترات تاريخنا من مظاهر الطغيان لم يكن الا انحرافة اجتماعية من صنع

الاقطاع لا النيل ، ومن فعل الجغرافيا السياسية لا الطبيعية . ولنبدأ بأوليات الايكولوجيا الاجتماعية فى مصر القديمة .

ايكولوجية النيل الاجتماعية

الحقيقة الكبرى فى كيان مصر هى أنها بيئة نهرية فيضية لا تعتمد على المطر الطبيعى فى حياتها وانما على ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الرى ــ الرى الصناعى ــ لا الزراعة المطرية . ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق فى حياة المجتمع النهرى وطبيعته . ففى البلاد التى تعيش على الامطار مباشرة يختزل المجهود البشرى الى حده الادنى . فبعد قليل من اعداد الارض والبذر يتوقف العمل أو يكاد حتى الحصاد . وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود . وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر او يتحكم فى توزيعه

حقا انالزراعة المطرية عرضة لذبذباتالمناخ ، وفلاحها من ثم تحت رحمة الطبيعة ، لكنك لست بحاجة ــ ولن تستطيع ان أردت ، وهذا هو المهم ــ أن « تخطط » المطر . من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ، ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه . وهذا فى نفس الوقت يمنح الفلاح فرصة للفردية بدرجة أو بأخرى

أما فى بيئة الرى فالامر مختلف كل الاختلاف . فالوادى فى فجر تاريخه ليس مصرفا طبيعيا ولكنه مستنقع اسفنجى ملارى مشبع . ولا زراعة ولا تعمير الا بعد التصريف و « التقنيل » . لابد ــ يعنى ــ من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الارض مجرد اعداد لاستقبال البذرة . وبعد هذا فلا بذر حتى توصل

المياه الى الحقول ، أى لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية الى مساقى الحقول . حتى تزرع اذن لابد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة. ثم ما جدوى تلك الشبكة اذا لم تسيطر على أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعنى أى جدوى فيها بغير « ضبط النهر » ؟

وأكثر من هذا ، ما جدوى الجميع بغير « ضبط الناس » ؟ ان زراعة الرى اذا تركت بلا « ضابط » يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية . ذلك ان كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسىء استعماله اما بالاسراف أو بحبسه تماما عمن يقع أسفله . اى أن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة — أو موت — كل حوض سفلى . وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع . كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد . ان العلاقات المائية داخل الوادى بأكمله ، أشبه ما تكون بقانون الاوانى المستطرقة ، فكل تغير فيها هنا يستتبعه بالضرورة تغيير هناك ، وأى مضخة كابسة هنا هى بمثابة مضخة ماصة هناك ..

المحصلة اذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل الى شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء الى عملية دموية ، ويسيطر على الحقول قانون الغاب والادغال . ولو تركت البيئة المصرية غابا اجتماعية لما تطورت عن الغاب الطبيعى الذى بدأت منه . والواقع أن البيئة الفيضية يمكن أن تجعل من « المجتمع الهيدرولوجى » — كما يسميه برون (١) —

---

(١) J. Brunhes, Geog. Humaine, 1934, Vol. II p. 794

مجموعة من المصالح المتعارضة ، فتصبح سلسلة الاحواض سلسلة من المتنافسين . ومما له مغزاه أن كلمة منافس فى اللاتينية مشتقة من كلمة نهر — Rivalus, Rivus (١) وليس صدفة كذلك ان المصريين القدماء اشتهروا بكثرة الخصام والتقاضى ، وفيما بعد بالاخذ بالثأر (٢) ..

فى ظل هذا الاطار الطبيعى يصبح التنظيم الاجتماعى شرطا أساسيا للحياة ، ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة أعلى توزع العدل والماء بين الجميع ، سلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهر فيضى فى حياتها ومصيرها. وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وانما بين الاثنين يضيف الرى سيدا آخر هو الحاكم . هنا يصبح الحكم والحاكم « وسيطا » بين الانسان والبيئة أو وصيا على العلاقة بينهما وهمزة الوصل بين الفلاح والنهر . اى أن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة ، وانما خلال الحاكم . وبتعبير آخر فان الحكومة — فكرة وجهازا — هى بالضرورة أداة التكامل الايكولوجى بين البيئة والانسان . انها تبدأ نتيجة وضرورة جغرافية ، لتنتهى « عاملا جغرافيا » بكل معنى الكلمة

ومن تلك العناصر جميعا يتألف فى النهاية المجتمع الهيدرولوجى النموذجى الذى تنسج خيوطه من ثلاثة : الماء ، والفلاح ، والحكومة — والاخيرة طرف فى المعادلة لا يقل أصالة وضرورة وحتمية عن الطرفين الآخرين . بل اننا يمكننا أن نذهب الى حد القول بأن أصل وظيفة

---

(١) E.C. Semple, «Irrigation ...in Mediterranean», A.A.A.G, Sept. 1929, p.142.

(٢) H. El-Saaty, Juvenile Delinquency in Egypt, Thesis, 1948, pp. 43-7.

الحاكم والحكم فى المجتمع الهيدرولوجى على وجه التحديد هى وظيفة وزارة الاشغال والرى أكثر منها وزارة الزراعة بعامة ، وأن أساس الملك فيه هو وظيفة « محكمة المياه »
Water Court

وها هنا يكمن الفارق الجوهرى بين زراعة الرى وزراعة المطر . فالحكومة فى ظل الاخيرة لا غنى عنها حقا ولكن فى أبعاد وحدود أضيق بكثير منها فى زراعة الرى ، فوظائفها هناك أقل ، وليست بحاسمة بالضرورة ، وفى النتيجة فان سلطانها ونفوذها لا يتضخم الى هذا المدى الذى تمكن له زراعة الرى . ونحن قد نستطيع أن نتصور بيئة زراعة المطر بلا حكومة لحين ما ، أو لأحيان، دون أن تنهار فيها الحياة كلية وبالضرورة ، ولكنا نعجز تماما عن أن نتصور المجتمع الهيدرولوجى مجتمعا أناركيا أو فوضويا دون أن يتهدد كيانه فى ذاته وصميمه

فاذا ما التفتنا الى مصر القديمة بصورتها الفرعونية ، فستجبهنا هذه الملامح الى حد نادر المثال . فقد عد فرعون ضلعا أساسيا فى مثلث الانتاج الى جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس (١) ، وأصبحت العبقرية الضلع الثالث فى مثلث الحضارة الى جانب الضلعين الأخرين الحاجة والامكانية (٢) . وليس صدفة بعد هذا أن كلا من هذه الاطراف الثلاثة قد عبد وأله . فمن ناحية كانت الديانة والميثولوجيا المصرية القديمة تعطى مكانا بارزا لكل من النيل (حابى) والشمس (رع) كآلهة ، بينما — للمقارنة الدالة — لم يكن للرياح الشمالية أو القمر أهمية ذات بال . ومن ناحية أخرى ، اذا كان فرعون قد تحول الى الملك — الاله ، فذلك أساسا بصفته

(١) Ch. Perain, Méditerranée, Paris, 1936, p. 119.
(٢) R.B. Dixon, Building of Cultures, 1928, p. 43.

ضابط النهر ، بصفته الملك ــ المهندس ، وبصفته بطريقة ما « صانع المطر » البعيد (١) .

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن العقد الاجتماعى،كما يقول سايس ، كان قائما على الماء : « اعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى » (٢) . ومثل هــذا العقد لا يمكن أن يتصور أو أن يقوم فى ظل زراعة المطر . ولم يكن غريبا كذلك أن يكون الحكم الفردي المطلق ، الاوتوقراطيــــة العارمة ، هى نظام الفرعونية الطبيعى . ولعله لم يكن من الصدفة بعد ذلك كله أن مصر الفرعونية لم تشتهر بقــانون كبــير ولم يعرف فيهـــا « منحـــة قوانين «law - givers من مثل حمورابى أو الرومان

واذا قلنا الاوتوقراطية فقد قلنا ــ أو اقتربنــا على الاقل نظريا من ــ جرثومة الطغيان . فمن هذه السلطة المطلقة كنقطة ابتداء يكون الانحراف الى بذرة الطغيــان سهلا ، ويكون الخط الفاصل بين الطرفين دقيقا حرجا. وبديهى أن الحكم المطلق ليس مقصـــورا على البيئـــة الفيضية ومجتمع النهر الهيدرولوجى ، ولــكنه فيهما أيسر منالا وأقرب تحقيقا ، واذا ما تحقق ، أكثر اطلاقا وتسيدا دائما ، ومن ثم فهو أقرب ما يكون الى احتمالات الانحراف الى الطغيان

ولعل الحكم الاوتوقراطى المطلق قد أدى وظيفته فى البداية والى حين ، حيث وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها . غير انه لم يلبث أن تعدى نفسه الى القهر السياسى والاجتماعى حين أصبح موزع المــاء هو مالك الماء ، والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب. وفى هذا التحول كانت ملكيـــة الارض بالتحـــديد هى

---

(١) ويلسون ، ص ٤٣ ، ٥٦ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) E.H. Carrier, Thirsty Earth, 1928, p. 45.

الفيصل . فأدوات الانتاج الاساسية فى العالم الفيضى الزراعى هى فى التحليل الاخير الارض والماء ، فاذا كان الماء دم الحياة فان الارض جسمها ، واذا كانت الارض خامة الزراعة فالماء وقودها

غير أنه لما كان الماء فى يد الحاكم بحكم البيئة الفيضية ، أى كان « مؤمما » بشكل ما ، فقد كان العامل المتغير فى المعادلة هو الارض ، فاما أن توزع بنوع من المساواة بين الجميع واما أن تحتكرها قلة من الاقوياء . وما كان أيسر على من يتحكمون فى الماء باسم المجموع ، ومن ثم يملكون القوة المسبقة ، أن يتحكموا فى الارض أيضا بالامتلاك والاحتكار – تذكر « اعطنى أرضك وجهدك .. الخ » . وبذلك كله تجمعت كل خيوط القوة فى يد فرعون حتى أفسدته السلطة وتحول الحكم المطلق الى طغيان وجبروت وكبت ، وأصبحت الفرعونية هى الاقطاعية ، والملكية (بفتح الميم) هى الملكية (بالكسر)

وذلك بالدقة مفتاح التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة . وليس يقصد بالفرعونية فى هذا فرعون وحده بطبيعة الحال ، بل وتلك الشرنقة الكثيفة من الاقطاع والكهان والموظفين من القمة حتى « شيخ البلد » . فكان هيكل المجتمع يتحلل فى عناصره الأولية الى : ملكية أوتوقراطية طاغية ، تعتمد على أعمدة ثلاثة : لاندوقراطية اقطاعية عارمة (ملاك الارض) ، وثيوقراطية اقطاعية هى الاخرى ومتورمة (رجال الدين) ، الى جانب بيروقراطية منتفعة متضخمة ، والكل يقوم على قاعدة عريضة من بروليتارية فلاحة مسحوقة

فأما الملكية الاوتوقراطية فيرى البعض ببساطة أن فرعون كان « أعظم محتكر شهده التاريخ » . وأما حكم الملاك فكان يمارس على المستوى المحلى بانتظام كدعامات

الملكية فى الاقاليم . اما حكم الكهنة فقد وصل الى درجة خطيرة حقا حيث تضخمت طبقة رجال الدين الى كتلة غليظة الحجم وتضخمت ملكية المعابد الى حد شاذ وصل فى أيام رمسيس الثالث فى القرن ١٢ ق. م الى ١٠٧٤٤١٨ فدانا ، ١٦٩ بلدة ، عدا ١٠٣١٧٥ خادما . بل فى تاريخ آخر وصل الى خمس سكان مصر وثلث أرضها الزراعية (١) . وواضح ان رجال الدين كانوا من اكبر المنتفعين بالنظام مثلما كانوا دعاته وعملاءه ومن اكبر ضواغط المحافظة والاستقرار

والخلاصة أن المجتمع كان ينقسم تقليديا الى أقلية تملك ولا تعمل وأغلبية تعمل ولا تملك ، الذين يملكون والذين لا يملكون Haves & Have nots ، أو بالأحرى الذين يملكون والذين يملكون . وفى كثير من الحالات تدهورت الفرعونية الى « دولة بوليسية » تحمى الاقطاع وحكم الملاك وتجعل الفلاحين فيه « عبيد الارض » . وليست الاهرام فى راى البعض الا نصبا تذكاريا هائلا للطغيان (٢) ، وهى لاترمز كما ترمز الى البناء «الهرمى» للمجتمع . وسواء صح هذا أم لم يصح ، فان الفارق بين عظمة وخلود الآثار وبؤس وزوال المساكن العادية فى مصر القديمة ليس الا وظيفة للطغيان الاقطاعى

واذا لم تكن مصر القديمة قد عرفت نظام «الكاست» ، فقد عرفت طبقية صارمة جامدة تضعف فيها الحركة الاجتماعية كثيرا . ومع ذلك فمن المهم أن نقرر أن مصر لم تعرف طوال تاريخها طبقة اقطاعية وراثية كما عرفت أوربا الاقطاعية فى الريف والاقاليم (٣) . ولعل بعض

---

(١) ويلسون ، ص ١٢٣
(٢) محمد فهمى لهيطة ، علم الاقتصاد للمصريين ١٩٣٩ ، ص ٢٦٦
(٣) شارل عيسوى ، ص ٥ ، ١٤٩

السبب فى هذا أن « الملكية الغيابية Absentee Landlordism
كانت القاعدة فى مصر ، فلم يكن الملاك يقيمون فى أراضيهم
فى الريف ليكونوا شبكة من الطغيان الصغير التى تناظر
الطغيان المركزى . كذلك من حسن الحظ أن الطبيعة
كانت كثيرا ما تتدخل لتصفى الاقطاع مؤقتا وتفرض
عنصرا من المرونة الاجتماعية

فكثيرا ما أثبت النيل الطائش طبيعيا أنه فى الحقيقة
النيل النبيل اجتماعيا : فقد كانت المجاعات والاوبئة
التى تترتب على جموحه أو جنوحه كثيرا ما يستتبعها
اعادة توزيع قومية للثروة تحول الفقراء الى أغنياء .
ويضع عبد اللطيف البغدادى أيدينا على هذه الظاهرة
التى تواترت كثيرا مع المجاعات الدورية ، فيذكر
التفاصيل الغريبة للاغنياء الجدد الذين ظهروا من
البروليتارية بعد المجاعات بطريقة غامضة فجائية ،
وكيف كان « موتان » الناس بالجملة يترك الثروات
والعقارات مهجورة خاوية تبحث عن أى مالك أو محتل
أو واضع يد جديد ... الخ (١)

ومع ذلك فقد كان الاقطاع هو القاعدة الاصولية
والاستغلال المطلق هو « الامر اليومى » . ولقد كانت
السخرة والكرباج والتعذيب من وسائل الارهاب منذ
الفراعنة وحتى العثمانيين ، وكانت تتدرج على كل
المستويات ابتداء من الحاكم خلال الباشا والعمدة حتى
الخفير النظامى (٢) . تلك جميعا كانت طفيليات بشرية
قديمة أزمنت فى كيان المجتمع المصرى ، مثلما ازمنت
الطفيليات العضوية فى ايكولوجية بيئة الرى . وكما

---

(١) Abdollatiphi Historiae Aegypti, Oxford, 1800, pp. 260 ff.

(٢) A. Moret, Le Nil et la Civilization Egyptienne, 1926.

امتصت هذه الاخيرة دم الفلاح وحيويته ، امتصت تلك منه روحه والمادة

مضاعفات وعوامل مساعدة

وثمة بعد هذا عوامل ساعدت على احكام الطغيان . فالبلد ــ المعمور ــ صغير المساحة صارم الحدود : «عالم متناه » كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ليس فيه من معاقل الالتجاء او دروب الهرب ما تعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلا . ولا يمكن لهارب او ثائر متمرد أن يبتعد كثيرا عن يد السلطان وقبضته ، الا اذا آثر النفى الذاتى تقريبا الى نهاية العالم فى مستنقعات وبرارى الشمال المنعزلة او مفازات النوبة المهجورة كما فعل المماليك الفارون من محمد على ومذبحة القلعة . وحتى فى الناحية الدينية ، حين حدثت فتنة المذاهب المسيحية أيام الرومان ، لم يكن الاضطهاد الدينى الا صورة متخصصة من قاعدة الطغيان ، ولم يكن من ملجأ الا أطراف الصحراء كما فى الصعيد حيث لم تزل تقوم الأديرة والصوامع المعزولة كذكرى لهذا التاريخ

وعدا الوباء والمجاعة كما سنرى ، فان شيئا لم يستطع أن يقتلع الفلاح ــ تلك الطينة البشرية الموغلة الجذور فى الطينة النيلية ، وذلك القعيد داره Sedentee الا فرط الطغيان والظلم ، كما حدث أيام المماليك ومحمد على حين يسجل المؤرخون هرب الفلاح المصرى الى الشام . ومع ذلك فالهجرة كانت دائما كمهرب من الطغيان أمرا نادرا جدا ، لأن عزلة الوادى الجغرافية داخل شرنقة شاسعة من أشد الصحراوات جفافا وضراوة جعل أقرب المهاجر الممكنة شرقا أو غربا أبعد من أن تجعل الهرب بالهجرة مشروعا عمليا واشد ارغاما

للفلاح على البقاء من قوة الطغيان المحلى على الطرد . اى أن العزلة الجغرافية التى حدت من الهجرات الداخلة، حددت أيضا من امكانيات الهجرة الخارجة ؛ مما مكن للطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح من الناحيتين

وقد أكد أثر طبيعة الاقليم العامة عامل آخر داخلى هو نمط السكنى . فالسكنى النووية المجمعة كانت ، كما هو معروف ، قانون البيئة الفيضية بالضرورة . ولم تكن حلة الكومة أو التل من الناحية الاجتماعية الا مجتمع « تل النمل » : مجتمعا يلغى الفردية ويفرض التنميط الجمعى والتعايش السلمى وغريزة القطيع ، ويركز رقابة وسلطة الحاكم مما يجعل السلامة فى الخضوع ، وحول الفلاح الى وحدة ميكانيكية مسحوقة. ومما له مغزاه أن نصوص الاخلاق فى مصر القديمة تلح دائما على كلمة « الصمت » كفضيلة أساسية تتطلبها من الفلاح الفقير ، وهى كلمة يمكن أن نترجمها ــ كما يقول ويلسون ــ « بالهدوء ، السلبية ، السكون ، الخضوع ، الذلة ، والانكسار » (١)

أما الفردية العارمة rugged individualism واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد التى يمكن أن تشجع عليها السكنى المبعثرة فى البيئات الجبلية أو الوعرة ، فلم تعرفها مصر ، وحتى العزب التى ظهرت أخيرا جدا منذ قرن ونصف قرن لا تمثل سكنى مبعثرة بمعنى الكلمة (٢) . وهذا كله قد يعنى النظام والوداعة والاستقرار ، ولكنه يمكن أن يكون له ثمنه الباهظ من انعدام روح المبادرة وزمام المبادأة ، فضلا عن روح

(١) ص ١٢٥

(٢) E.Huntington, Character of Races, 1927, p.193; Finch & Trewartha, Elements of Geog., 1942, pp.638-9.

المغامرة ، وينتهى بالفلاح فى النهاية الى جهاز استقبال وخضوع

وطبيعى أن هذه البيئة الاجتماعية كانت كفيلة بأن تفرض نوعا مريضا من « الانتخاب الاجتماعى » ، نوعا يعتبر انتخابا عكسيا لا يكون فيه للعناصر الأبيـة أو المتمسكة بحقوقها أو كرامتها نجاح اجتماعى مرموق ، بل الارجح أن تضاد وتباد ، بينما تفره العناصر الرخوة أو السلسة المنقادة أو الهلاميات الاخلاقية . ولهذا فان الصفات والمزايا الاخلاقية التى يجدر بالبيئة الفيضية أن تعلمها ـ وعلمتها بالفعل حينا ـ لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيـان الاقطـاعى وفى ظل انتخـابه الاجتماعى المعوج الى نقائضها . فالنظام والقانون أصبحا جبنا واستكانة ووشاية أو سلبية ، وروح التعاون التى تربط السكان أصلا ضد «العنصر» تحولت الى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت الى الأخـذ بالثـأر ، وأما المزاج الانطلاقى Extravert الذى غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان ، وكذلك الى روح السخرية المريرة المشهورة

ولقد اسهب المؤرخون العرب فى سرد هذه الخصائص بما لا يدع مجالا للشك فى جديتها . فكانت العرب تقول بأسلوب العصر : « قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك ، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك» (١) . والمقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاقهم ـ المصريين ـ « الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة والسعى الى السلطان . . » . ويقول « ولهم خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة

---

(١) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ج ١ ص٧٩ ـ ٨٠

عليه وتلطف فيه » حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم (١) . وقد كان نابليون يكرر دائما انه لو كانت كل جيوشه كالمصريين ، لملك العـالم ، يعنى أنهم يفعلون ما يؤمرون . وقد مكن كل هذا بدوره لمزيد من الاسراف فى الطغيان على كل المستويات دون رادع

وقد أدى هذا كله الى أن أصبح الفلاح مغلوبا على أمره يائسا ـ اذا استعرنا ثلاثية فلير المشهورة ـ من « الحياة » نفسها ، ومحروما من امل «الحياة الجيدة» ، ولهذا كان متنفسه الوحيد هو « الحياة الجديدة » : انتاج الأبناء . وكان لهذا نتائجه التى اكدت مرة أخرى فرص الطغيان . فمن ناحية بحث الفلاح عن التعويض عن الحياة فى الحياة الاخرى ، فكان الدين ملجأه ومهربه . ويضغط هيرودوت فى هذا الصدد بصورة غير عادية على شدة تدين المصرى القديم . ومن ناحية أخرى كانت الحياة الجديدة تعويضا عن الحياة الجيدة ، وهذا فى ذاته كان من عوامل ارتفاع الخصوبة البيولوجية وضغط السكان المزمن فى مصر

والواقع أن شيئا لم يبز خصوبة التربة المصرية سوى خصوبة السكان البيولوجية ، وما قاله المؤرخون العرب فى العصور الوسطى فى هذا الصدد لا يختلف كثيرا عما يقوله كتاب اليوم . فالمقريزى يكتب فى القرن الرابع عشر « ورجالهم يتخذون نساء عديدة ، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال ، وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ونساؤهم سريعات الحمل ... » (٢) . هذا بينما يقول كاتب أوربى معاصر ساخر « ان لعبة الجنس

---

(١) الخطط ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠

(٢) السابق ، ص ٧٧

هى الرياضة الوطنية » (١)

والمهم أن هذا الافراط البيولوجى أدى الى شدة انخفاض المنفعة الحدية للانسان واتضاعه وهوانه على الحكام وزاد من فرص الطغيان والاستبداد . وقد كان الحكام يرحبون دائما بهذا الافراط البيولوجى والديموغرافى لانه يزيد من قبضتهم وتسلطهم . ويعبر اميل لودفيج عن هذا بصيغة الكثافة ـ كثافة السكان ـ فيقول « هذه الكثافة التى حتى منذ آلاف السنين كانت تتناسب مع مجموع السكان ، كان لا يمكن الا أن تخلق قوما اما اجتماعيين للغاية أو غير اجتماعيين على الاطلاق . وقد قرر النيل الاحتمال الأول » (٢) وقد كان «الفلاح» بكل صفاته الموجبة والسالبة هو النتج النهائى بل الفتات النهائى لعملية الاختيار الاجتماعى الطاحنة الطويلة هذه ، حتى أصبح عند شبنجلر « نمطا » اجتماعيا بذاته هو « نمط الفلاح «Typus des Fellachen » (٣)

ترجمة حديثة

واذا نحن تركنا التاريخ البعيد الى التاريخ القريب ، فستتضح لنا نفس الملامح الاجتماعية بصورة أو بأخرى . فمنذ محمد على ـ وهو علم حديث على الاوتوقراطية المطلقة ـ وهذه الملامح تتكرر من جديد ، كأنما التاريخ يعيد نفسه حقا . فكما وضع الفراعنة نظام الرى الحوضى بجهد الفلاحين ، اصطنع محمد على نظام الرى الدائم بتسخير الملايين على مدار السنين فى شق الترع وتطهيرها

---

(١) William Vogt, Road to Survival, 1949, pp.251-2.

(٢) E. Ludwig, The Nile. Life-History of a River, Lond., 1936, vol.II, p.21.

(٣) O. Spengler, Der Untergang des Abendeslandes, München, 1927, vol.II, p. 125.

وتعميقها وبناء القناطر والجسور ومواجهة الفيضـانات العالية واستصلاح البرارى ، كل أولئك بالسخرة غالبا وتحت الكرباج دائما . وكما كان فرعون مالك الارض ، اعلن محمد على نفسه المالك الوحيد وصادر ملكية الفلاح تاركا له حق الانتفاع وحسب . لقد تحولت الملكية الى الملكية ، وتحول المحتكر الوحيد الى صورة كالحة من راسمالية الدولة . غير انها لم تلبث فى الواقع أن تحولت وارتدت بالفعل الى اقطاعية عاتية حين أقطع الابعاديات والرزق والشفالك والوسايا لأسرته فى الدرجة الاولى ولعملائه فى المحل الثانى

والقصة بعد محمد على وحتى ثورة يوليو لا تخرج عن تدعيم الهيكل الاقطاعي وتأكيده باطراد ، مع دخول الاستعمار الاجنبى طرفا فى المعادلة ، ثم هى لا تخرج فى النهاية عن تطعيمه برأسمالية نامية. وفى مرحلة اكتماله، كان بناء النظام يتلخص فى الاوتوقراطية بقهرها الطبقى والطغيان السياسى ، تقوم على ساقين من اللاندوقراطية الاقطاعية الثقيلة و «البنكوقراطية» الراسمالية البازغة . وهذا يكرر هيكل البناء الفرعونى فيما عدا أن ثيوقراطية المعابد والكهنة قد أعطت اليوم مكانها لبنكوقراطية المال والصناعة . .

ونحن نستطيع أن نختزل جوهر النظام فى هرم توزيع الملكية الزراعية . فالمقدر بصورة تقريبية عامة أن من بين الملايين الخمسة أو الستة من الافدنة التى كانت تمثل رقعة مصر الزراعية ، كان نحو المليون للأسرة المالكة ، ونحو مليون آخر لطبقـة الاقطـاع ، ومثله للاستعمار ولطفيليات الاستعمار ممثلا فى الملكيات الاجنبية من أفراد وشركات عقار واستصلاح ، بينما لم يكن لكتلة الشعب الا البقية الباقية. وبصيغة أخرى ، قدر أن نصفا فى المائة

من مجموع السكان كان يملك نصف الدخل القومى . وحول هذه النواة النووية كانت تتراتب حلقات وطبقات المجتمع حتى تصل الى أوسع واعرض قاعدة من المعوزين والمعدمين ، حتى أصبحت مصر رمزا حيا للاقطاعية المتحجرة الطاغية . أو كما قال هيندس ، « ان مصر عشية أصلاحها الزراعى كانت اجتماعيا أكثر تأخرا من فرنسا عشية الثورة » (١)

والجدول الآتى يلخص توزيع ملكية الارض الزراعية فى مصر ١٩٥٢ فى نهاية عصر الاقطاع . وسنرى منه أن نحو ٩٤ ٪ من الملاك كان يتقاسم ٣٥ر٤ ٪ أو نحو ثلث الارض ، بينما كان ثلثا الارض (٦٤ر٤ ٪) حكرا لنحو ٦ ٪ من الملاك ، من هؤلاء نحو ٣ر٠ ٪ أى ٣ فى الالف يبتلعون وحدهم أكثر من ثلث الارض (٣٤ر١ ٪) .

فئة الملكية	عدد الملاك بالالف	٪	المساحة المملوكة بالالف	٪
— ٥	٢٦٤٢	٩٤ر٣	٢١٢٢	٣٥ر٤
٥ — ١٠	٧٩	٢ر٨	٥٢٦	٨ر٨
١٠ — ٥٠	٦٩	٢ر٤	١٢٩١	٢١ر٥
٥٠ — ١٠٠	٦	٠ر٢	٤٢٩	٧ر٢
١٠٠ — ٢٠٠	٣	٠ر١	٤٣٧	٧ر٣
+ ٢٠٠	٢	٠ر٠٧	١١٧٧	١٩ر٦
المجموع	٢٨٠١	١٠٠ر٠	٥٩٨٢	١٠٠ر٠

حتم بشرى لا جغرافى

تلك اذن فى أبعادها القديمة والحديثة صورة مجتمعنا الفيضى بنقطها المضيئة والمظلمة . وعلينا الان أن نتساءل:

(1) Hindus, p. 130.

هل هذه الملامح تشكل « الطابع القومى » المصرى حقا ؟ وهل هى قدر غاشم مكتوب سطرته بيئة طبيعية عمياء وأملته على أبنائها ؟ هل حقا ما يلمع اليه البعض أحيانا من أن خير ما فى مصر جغرافيتها الطبيعية وشر ما فيها جغرافيتها البشرية ؟ ـ يقصدون بذلك روعة نيلها وخصبها ومناخها من ناحية ولوعة مجتمعها وبؤس فلاحها وهوانه من ناحية أخرى ؟

من المحقق علميا أن الطوابع القومية فكرة مؤقتة متطورة ، ليست موروثة ولكنها مكتسبة ، وقد تتأرجح بين شعب واحد من النقيض الى النقيض فى بضعة عقود ـ هذا ان لم تكن فكرة شخصية بدرجة أو بأخرى . وأما قدرية الحتم الجغرافى فبريئة هنا تماما من هذه السوالب والشوائب الاخلاقية التى نالت الشخصية المصرية ونالت منها فى بعض الاحيان والحالات . يقول سترابون : « لو انك ناقشت القضاء والقدر ، فستجد أشياء كثيرة فى شئون الناس والطبيعة قد تفترض أنها قد يمكن أن تؤدى أداء أفضل بهذه الطريقة أو تلك ، مثلا لو أن مصر تكون لها كفايتها من المطر بنفسها دون أن تروى من أرض اثيوبيا » (١) ومع ذلك فمن الانصاف أيضا أن نضيف الى قول سترابون أن زراعة الرى هى التى علمت مصر الحضارة والنظام والقانون ، هى التى فجرت التاريخ والحضارة فى مصر دون سواها لأول مرة ، وهى التى وحدتها مبكرا ومنحتها النظام والقوة التى خلقت بها أول امبراطورية فى التاريخ

ولهذا يعود السؤال : هل حقا كان الطغيان والاستبداد وظيفة طبيعية للنهر ، وهل يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟ هنا تتبلور لنا متناقضة فذة فى وجودنا التاريخى

(١) Strabo, Book IV, p. 12.

والاجتماعى . فلا شك أن البيئة الفيضية تحتم قيام حكم قوى فعال وتنظيم سياسى مؤثر . ولكن ما معنى هذا ؟ ببساطة أن النظام النهرى وايكولوجية النيل تؤهل بطبعها وتلقائيا لعنصر كامن أصيل وبعيد المدى من الاشتراكية . نعم ، الاشتراكية ، والاشتراكية التعاونية بالدقة !

فالماء ، عصب الحياة وأهم أدوات الانتاج ، مؤمم بالضرورة والتعريف ، الدولة هى التى تملكه باسم الناس وهى التى تقوم بتوزيعه — ببيعه — على الناس كل بحسب حاجته اى كل بحسب مساحة أرضه . أما التعاونية فلأن مواجهة أخطار النهر وذبذباته الجامحة ، وبناء القرى المجمعة ، ونظام الحياة اليومية فى القرية من تنظيم للمياه والدورة الزراعية ... الخ ، كل أولئك لا يمكن الا أن يتم كعمل جماعى منسق يقوم على التعاون . وقد زاد هذا الدور خطورة وأهمية بعد الرى الدائم ومشاريعه وسدوده وقنواته ومصارفه ، وبعد أن أصبحت مصر الزراعية كلها وحدة ادارية واحدة تديرها وزارة الزراعة

لهذا ولمثله لم تكن دورين وارينر تبالغ حين رأت بذرة الاشتراكية كامنة فى تربة الزراعة المصرية وحين وجدت جنينها يعيش — وان يكن مجهضا — فى رحم الاقطاعية اللاندوقراطية . فكما تقول فى جملة عابرة ولكنها معبرة عن مصر ما قبل الثورة « من حيث تنظيم الانتاج ، تعتبر مصر بالفعل مزرعة ادارية ضخمة ، تقوم فيها مصلحة الرى بمراقبة كمية الماء الموزعة ومعها مساحات المحاصيل . وللحكومة رقابة على الزراعة ، على أساس من التخطيط ، اكبر بكثير جدا مما لأعظم وأشد الحكومات

اشتراكية فى العالم » (١)

وفى تركيب القرية نفسها وسيكولوجيتها وزراعتها قدر كبير متوطن من التعاونية والاشتراكية التلقائية . وقد كان من الممكن أن يجنح هذا كله الى لون من اشتراكية الدولة ، ولكن طغيان الحكم المطلق انحرف به الى اقطاع الارض ، بل والى رأسمالية الدولة كما فعل محمد على حين صادر كل الملكية لنفسه كخطة أو خطوة تمهيدية لأن يصفيها بعد ذلك الى اقطاع أسرى بعينه

الانتهاء العلمى الموضوعى اذن واضح بكل جلاء ولا يترك مجالا لتأويل : ان البيئة الفيضية انما تمهد نظريا للاشتراكية . ليست الجغرافيا الطبيعية (البيئة الفيضية) اذن ، ولكنها الجغرافيا السياسية (الطغيان الاقطاعى) هى التى شوهت وحرفت الطابع القومى الى حين . لا وليس الطغيان الاقطاعى نفسه من عمل البيئة ، فالنيل لم يفرض العبودية السياسية على مصر ولكن الاقطاع اتخذه عذرا وحجة لها . ولا بد أن نعترف أن فى الايكولوجيا الاجتماعية للنيل ، كما عرضناها آنفا من وجهة النظر التى تلقى باللوم على النهر ، شيئا كثيرا من الصحة فى تشخيص الاعراض والامراض ، ولكن فيها أيضا شيئا أكثر من المغالطة والخطأ فى تعليلها وتفسيرها

وقد يفيد هنا أن نورد ردا مبكرا على النظرية الفجة التى سادت منذ القرن الماضى والتى تود أن تحمل النيل وزر الطغيان الاقطاعى . فنجد بارتلمى سانت هيلير يقول « منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبودية السياسية ، وانى أبعد ما أكون عن القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن ، وانى لمدرك أن ثمة

---

(١) Doreen Warriner, Land & Poverty in Middle East, 1948, p.48.

كثيرا من الناس أكثر عبودية وبؤسا دون أن يكون لديهم نيل . كل ما أود أن أقول هو أن النظام الطبيعى لهذا النهر العظيم كان فى مصر أحد أسباب الطغيان ، لقد وجد الطغيان فيه نوعا من الضرورة ، وكذلك حجة وذريعة خاصة » (١)

ورغم ندرة الثورات والانقلابات الشعبية وغلبة طابع الاستقرار الجمودى الذى فرضه الكبت والطغيان ، فان التاريخ من جانبه لا يعدم أن يسجل انتفاضات عدة على الطغيان ، لعل أهمها ثورة ايبور فى الدولة القديمة ، ولكنها انتكست كما انتكست فيما بعد حركات تحررية وثورات على الظلم والاستبداد . وفى القرن الاخير كانت التطورات الحديثة والحضارة المعاصرة عوامل مذيبة بطبيعتها للرواسب القديمة ، ولهذا تكاثرت الانتفاضات التى نجح آخرها ـ ثورة يوليو ، التى تمثل فى الحقيقة النقيض المضاد للانقلاب الذى بدأ مع محمد على ـ نجاحا وصل الى تحقيق الشخصية الكامنة للبيئة الفيضية وهى الاشتراكية العميقة التى توزع الارض كما توزع الماء ، وتدعو الى كرامة الفرد وكرامة المجتمع معا . ولعله ليس من الصدفة أن شعار الثورة كان يدور أبدا حول العزة والكرامة ، وكانت دعوته التقليدية أن « ارفع رأسك فقد مضى عهد الاستعباد »

ولهذا فنحن فى الحقيقة لم نكن بازاء حتم طبيعى بقدر ما كنا ازاء « حتم بشرى » ، حتم الطغيان والاستبداد. ومن الثابت الآن عند كثير من الجغرافيين أن الحتم الجغرافى ـ على علاته الفلسفية ـ كان كبش فداء برىء وقناعا كاذبا ما أكثر ما اتخذه الاقطاع فى الداخل ليبرر

---

(1) B. Saint-Hilaire, Lettres sur l'Egypte, Paris 1857, p. 191.

نفسه مثلما اتخذه الاستعمار من الخارج ليبرر كثيرا من دعاويه الاحتكارية أو الابتزازية . ولهذا فنحن نلخص شخصية مصر السياسية فى أن النيل بطبعه يدعو الى الاشتراكية والمجتمع التعاونى ، ولكن الاقطاع الطبقى والطغيان الاوتوقراطى هو وحده انحرافة بشرية لا طبيعية ـ وان طالت وأزمنت

ان مصر ليست « أرض الطغيان » كما يتوهم البعض، وان كان هذا قد طغى على أجزاء من تاريخها بعض الوقت . لا ، وليست « أرض النفاق » هى ، وان كانت حدثت بعض انحرافات اجتماعية عابرة . وليست وداعة الفلاح وصبره ضعة واستكانة ، كما أن نظامه وطاعته ليست خوفا وظمعا ، وانما هى جميعا خامة الحضارة والتقدم نشأها النيل ولكن شوهها الاقطاع . وقد بقى النيل وزال الاقطاع

وهنا لا بد من وقفة مركزة عند هذه الثورة التى أزالت الاقطاع والتى تعكس جوهر مصر الاصيل لا من حيث حقيقة بيئتها الفيضية فحسب بل ومن حيث دورها ومكانها فى العالم . فاذا عدت الثورات الكبرى التى غيرت وجه عالمنا الحديث كانت بلا شك ثلاث : الفرنسية والروسية وهذه المصرية . لكن لهذه شخصيتها المتفردة تاريخيا واجتماعيا . فالاولى كانت ثورة البورجوازية ضد الاقطاع ، ولكنها ظلت طبقية رأسمالية وتأخذ بالديموقراطية التقليدية الشكلية والملكية الفردية المطلقة . أما الثانية فأتت بمثابة ثورة على الاولى : ثورة البرولتاريا ضد البورجوازية ، وهى اذا كانت لا طبقية ، فانها أخذت بديكتاتورية الطبقة العاملة ونزعت الملكية الفردية لتفرض الشيوعية المطلقة

أما الثورة المصرية فكانت تاريخيا بمثابة ثورة بدورها

على هذه الثورة الاخيرة بصورة مباشرة أو على الاثنتين السابقتين بصورة غير مباشرة . فهى ثورة كل فئات الشعب العاملة ـ لا فئة واحدة ـ ضد كل من الاقطاع والبورجوازية على حد سواء لا على حدة . وهى لا طبقية تذيب الفروق بين الطبقات ولكنها لا تفرض ـ كالثانية ـ ديكتاتورية أى طبقة ، وتأخذ بالديموقراطية الثورية لا التقليدية كالاولى. وهى بعكس الاولى نفى للرأسمالية، ولكنها بعكس الثانية لا تنكر الملكية الفردية بل توسعها بعد أن تهذبها

بمزيد من الاختصار : من حيث الشكل : الثورة المصرية كحدث تاريخى أتت ثورة بيضاء أو قل خضراء بلون الوادى ، بعكس الثورتين الأخريين . من حيث الموضوع : أتت الثورة المصرية ثورة الاشتراكية بالمعنى الدقيق ، حيث كانت الفرنسية ثورة الرأسمالية والروسية ثورة الشيوعية . وشكلا وموضوعا : اذا كانت الفرنسية هى « التقرير » ، والشيوعية هى «النقيض» ، وكان كل منهما يجنح الى التطرف الى أقصى اليمين أو اليسار ، فان الثورة المصرية هى بحق « التركيب » الذى يجمع بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما ، ولا تعرف التطرف بل تقف فى الوسط . فشكلا وموضوعا اذن ، الثورة المصرية نبت بيئى أصيل يعبر عن طبيعة المركب الفيضى من تعاونية كامنة واعتدال الحد الاوسط وسلمية المجتمع المائى

والجدول الآتى يلخص الانقلاب الذى أحدثته وتحدثه الثورة الاشتراكية فى توزيع الملكية الزراعية ، حيث يعطى التوزيع كما سيكون بعد اتمام تنفيذ قرارات يوليو عام ١٩٦١ . ومنه نرى ان نفس سفح هرم الملاك (٩٤ ٪) الذى كان يملك قبل الثورة ثلث الارض سيملك الآن

نصفها ، وان قمة الهرم القديمة (٥ ٪) التى كانت تملك ثلثى الارض ستملك الآن نصفها فقط . وبهذا سوف يكون قد انتقل نحو ١٣ ٪ من الارض الى نحو ربع مليون أسرة جديدة تضم أكثر من مليون نسمة

فئة الملكية	عدد الملاك بالالف	٪	المساحة المملوكة بالالف	٪
ـ ٥	٢٩٢٠	٩٤ر٧	٣٠٤٠	٥٠ر٦
٥ ـ ١٠	٧٩	٢ر٥	٥٣٠	٨ر٨
١٠ ـ ٥٠	٦٩	٢ر٢	١٣٠٠	٢١ر٦
٥٠ ـ ١٠٠	١١	٠ر٣	٦٣٠	١٠ر٥
١٠٠ ـ ٢٠٠	٥	٠ر١	٥٠٠	٨ر٣
٢٠٠ +	—	—	—	—
المجموع	٣٠٨٤	١٠٠ر٠	٦٠٠٠	١٠٠ر٠

الفصل الثالث

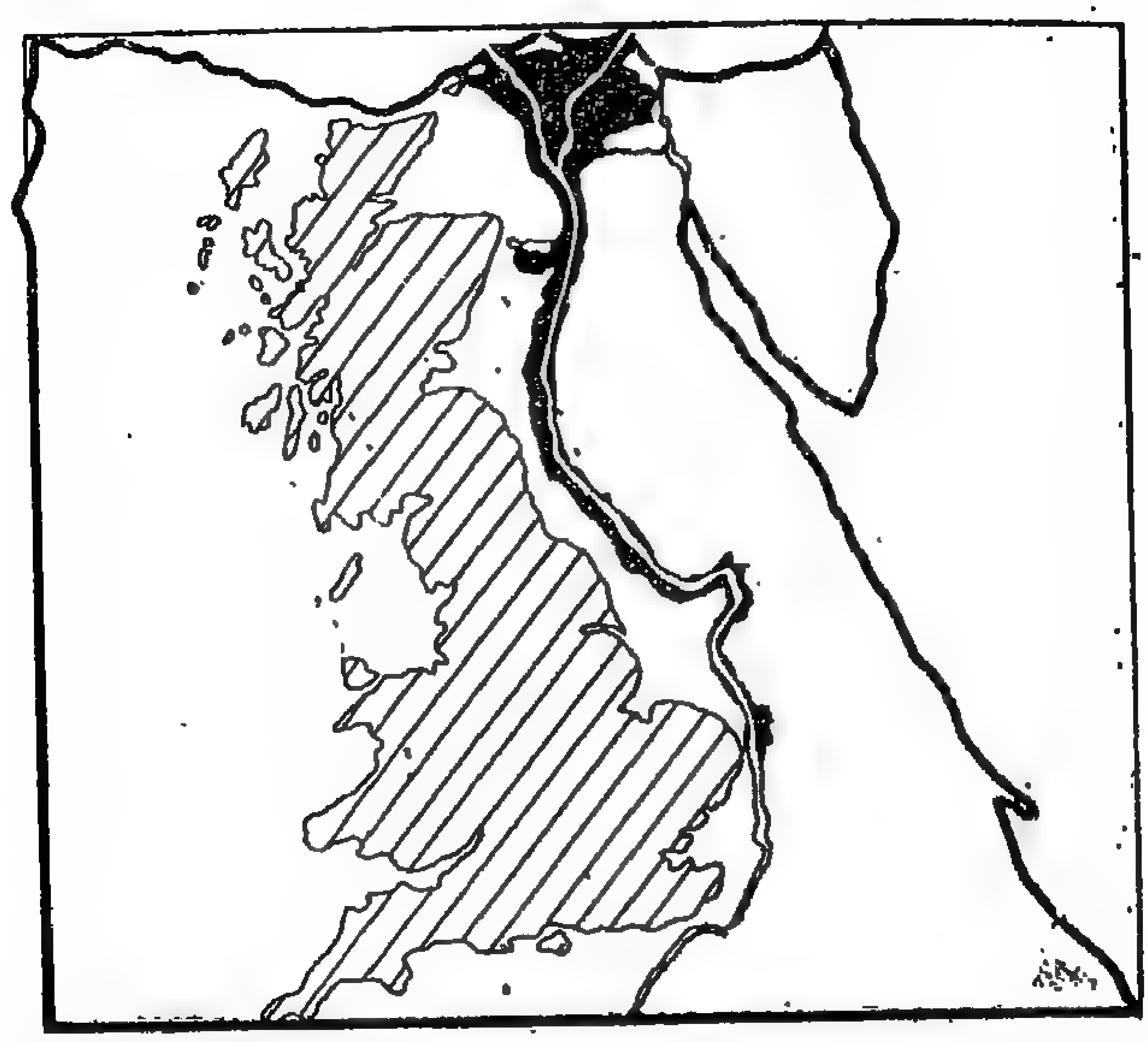
مركزية رغم الامتداد

المركزية الجغرافية

لعل من أبرز ملامح الشخصية المصرية ، المــــركزية الصارخة طبيعيا واداريا . وهى صــــفة متوطنة لأنها قديمة قدم الاهرام ، مزمنة حتى اليوم (١) . وترقــد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة ، فنحن ابتداء ازاء مركزية مورفولوجية أى تركيبيـــة صريحة . فتبلور الوادى الضئيل داخـــل شرنقة الصحراء الشاسعة ، وتجسمه حول النيل ، يجعله جســما ملموما ونسيجا ضاما .. وصحيح ان فى الدلتا انفراجا ، وتشــعبا ، وتشعبا ، وفى الصعيد امتدادا خطيـــا لايستهان به . فالصعيد وحده يترامى بتعرجاته نحو ١٠٠٠ كم ، بينما تغطى مصر من الشمال الى الجنوب ١٠ درجات عرضية ، أى نحو طول الجزر البريطانية ، ولكن دون أن تتعدى شريحة من مساحتها . ولقد سبق أن عبرنا عن هــذا بأن مصر مسافة لا مساحة . وليس هذا النمط المفرط فى الاستطالة مع الضيق بالنمط الاقتصـــادى من حيث المواصلات أو الانتاج أو الادارة ، بل انه ـــ ابتــداء ـــ قضى على الاطراف المتطوحة فى أقصى الجنوب بالاهمال

(١) Stamp, Africa, p. 208.

والتخلف .. ومع ذلك فان التجانس الداخلى العام مع التباين الصارم مع الصحراء المحيطة يعود فيؤكد وحدة المجموع الطبيعية كشبه واحة أو كشبه جزيرة فى الصحراء



(شكل ١) : مصر وبريطانيا : مقارنة فى المساحة والامتداد

واذا نحن تناولنا الدلتا على حدة فلن نجد لها بسهولة قلبا او بؤرة حاسمة. فاذا كان بها حزمة خطوط طبيعية ضابطة على المحور الشمالى الجنوبى تقريبا ، ونعنى بذلك فروع الدلتا وترعها ، فهى تعدم أى محاور طبيعية عرضية بين الشرق والغرب تتعامد عليها وتخلق فيما بينها عقدية طبيعية فعالة . بل ان من الحقائق المعروفة تاريخيا وحتى يومنا هذا صعوبة الحركة والمواصلات عبر الدلتا بالعرض ، وكثيرا ما تدور الطرق حولها

بعيدا عن قلبها اما نحو الساحل شمالا أو نحو رأسها جنوبا ، وذلك منذ أيام النقل بالدواب حتى عصر السكك الحديدية والسيارة

ونتيجة لهذا وتعبيرا عنه نجد باستمرار أن أهم مدن الدلتا وأكبرها حجما انما تنتشر على سواحلها البحرية أو أطرافها الصحراوية وليس فى قلبها الزراعى الفنى ، سواء ذلك أيام تنيس وبلبيس ودمياط ورشيد الاسلامية أو الاسكندرية وبورسعيد ومدن القنال المعاصرة . واليوم لا تزيد طنطا عن مدينة متوسطة الحجم ، وهى رغم ما تتمتع به من توسط هندسى مؤكد ، الا أن العقدية الطبيعية تنقصها وقصارى مالها الآن من عقدية هى عقدية اصطناعية مكتسبة من فعل شبكة المواصلات الحديدية . والخلاصة أنه اذا كان للدلتا بؤرة أو عقدة حقيقية فهى انما تستقطب فى رأسها ، أى خارجها ، أى انها تمنح غيرها العقدية اكثر مما تحتفظ بها لنفسها

ومثل هذا يفعل الصعيد . فاذا نحن اعتبرنا الصعيد على حدة فسيتضح على الفور افتقاره الكامل الى قلب طبيعى سائد بأى درجة . فامتداده الخطى كالشق الممدود أو الانبوب المغلق يجعله طولا بلا عرض ، ويجعل محور الحركة والتوجيه فيه وحيدا لا يكاد يترك لنقطة فيه فضلا أو امتيازا على نقطة أخرى الا أن يكون مجرد التوسط الهندسى البحت . واذا كان ثمة تقاطعات لطرق محلية مع الصعيد كطريق قنا ــ القصير أو درب الاربعين ، فدورها ثانوى للغاية لايخلق عقدية بأى معنى

وينعكس هذا بالتالى على أحجام المدن باعتبارها قمم اللاندسكيب الحضارى . ففى كل الاقاليم الشريطية الضيقة ، نجد أن أثقال المدن تتوزع على طولها وعلى قطاعاتها فى تقارب وتكافؤ نسبى ، حتى لا تكاد واحدة

منها تظهر على الاخريات بوضوح ، فضلا عن أى سيادة. ذلك نمط تعرفه جيداً مدن الساحل الجزائرى كما تعرفه مدن ايطاليا ، وهو بالدقة ما نجده فى الصعيد . فهنا نجد أهم أحجام المدن الرئيسية متقاربة متواضعة باهتة التضاريس ليس فيها علم بارز . وحتى قريب لم يكن الصعيد كله يملك مدينة واحدة مائة ألفية ، ولم تتجاوز أسيوط هذه العلامة الا مؤخرا . ولهذا لم يكن غريبا أن يوصف الصعيد ، الذى يتكدس فيه السكان بكثافة أشد من كثافة الدلتا ، بأنه قد يكون شارعا رئيسيا مكتظا من حيث السكان ، ولكنه يظل مجرد زقاق مغلق من حيث المدن .

هكذا اذن ، اذا كان كل من الوادى والدلتا على حدة تنقصه البؤرية والمركزية المحددة ، فانهما فيما بينهما يخلقان مركزية حادة عند التقائهما فى منطقة القاهرة . فالواقع أن منطقة القاهرة هى « خاصرة الوادى » بكل معنى . فمدا العقدية الهيدرولوجية الاساسية التى تأخذ ــ مع انفراج فرعى الدلتا ــ شكل حرف Y. الافرنجى ، هناك عدة أصابع ثانوية من اللاندسكيب الطبيعى تشير اليها بقوة : لسان وادى الطميلات من الشرق ، ووصلة شبه واحة الفيوم من الغرب .

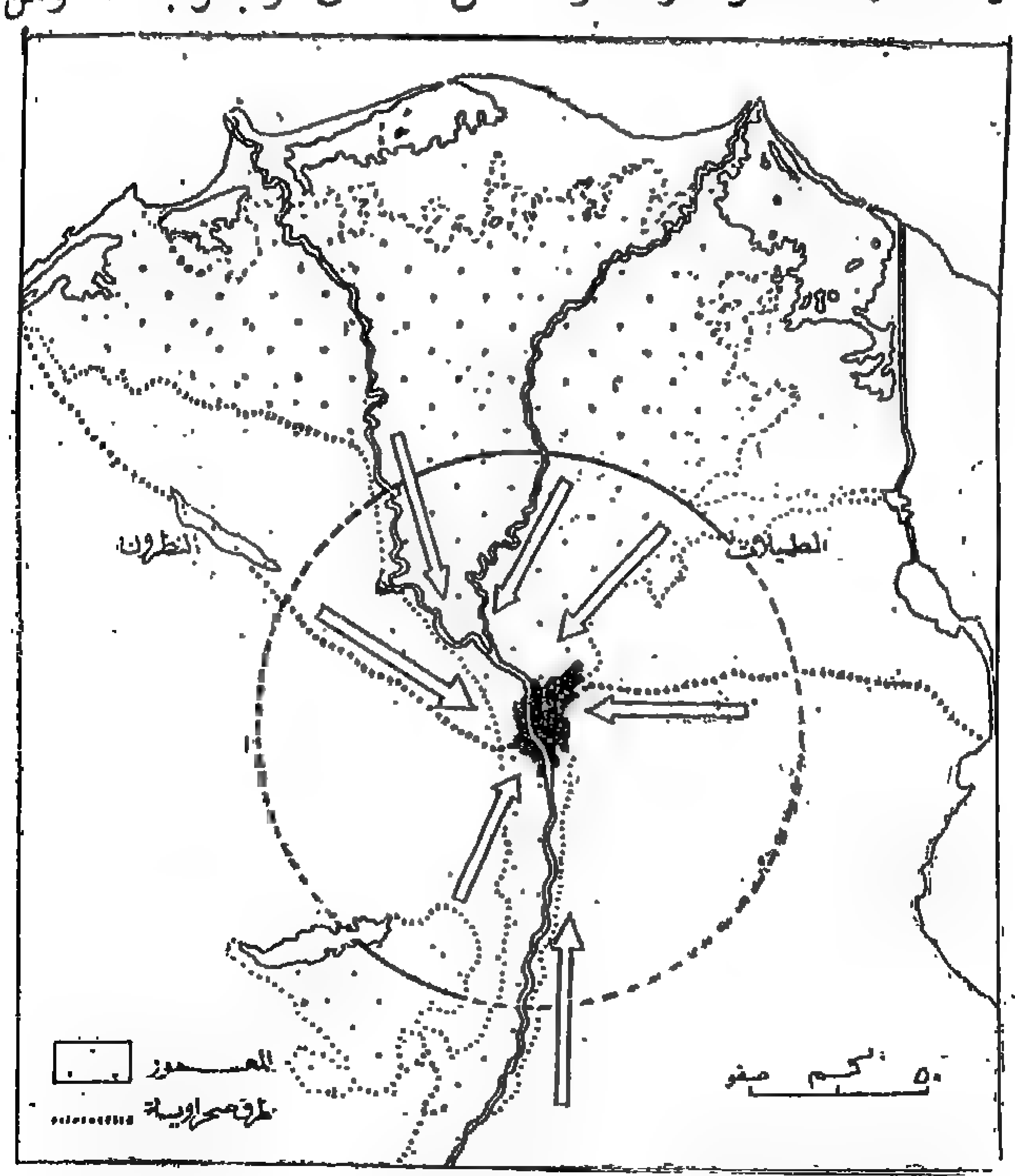
فاذا أضفنا أن الطرق الصحراوية بين الشرق والغرب على طول السواحل الشمالية تنثنى جنوبا مستهدفة القاهرة لتتحاشى صعوبة اختراق الدلتا بشبكة ترعها المتراصة (١) (تماما كما تتحاشى طرق المواصلات البعيدة المدى كل مناقع وأهوار الجنوب الرخوة فى العراق مستهدفة أول أرض صلبة عند منطقة بغداد) (٢) :

(١) Benjamin Thomas, loc. cit., p. 414

(٢) Fisher, p. 367.

اذا أضفنا هذا فان القاهرة تبرز لنا «كخاصرة الصحراء» أيضا مثلما هى خاصرة الوادى ان كل الطرق تؤدى الى القاهرة!

منطقة القاهرة اذن عنق الزجاجة ، عنق مصر . هى من الناحية الهندسية البحتة مركز الثقـــل الطبيعى ، ومن الناحية الميكانيكية نقطـــة الارتكاز التى يستقطب حولها ذراعا القوة والمقاومة من شمال وجنوب ، ومن



(شكل ٢) مركز العاصمة : كل الطرق تؤدى الى القاهـرة : الدائرة ونصف قطرها ٧٥ كم تضم + ربع سكان مصر فى ثمن مساحتها

الناحية الحيوية نقطة التبلور ، ومن الناحية الوظيفية ضابط الايقاع بين كفتي مصر . انها تبدو — كما قال ريكلي — كما لو كانت موقعا من اختيار الآلهة (١)

هذا من حيث الشكل . ولكن المضمون لا يقل عن شكل الاقليم أثرا في التوجيه نحو المركزية . فقد لايكون موقع القاهرة متوسطا من حيث المسافة المطلقة بين الشمال والجنوب ، ولكنه متوسط تماما من حيث وزن المعمور الفعال . فالصعيد أضعاف الدلتا طولا ، ولكن الدلتا ضعف مساحته ، بينما يتقارب الاثنان سكانا بدرجة أو بأخرى . فقد كان بالدلتا في عام ١٩٦٠ نحو ٩ر١٠ مليون مقابل ٢ر٩ للصعيد . وفي عام ١٩٦٦ كان بالدلتا نحو ٠٠٠ر٧٢٦ر١٤ نسمة وبالصعيد ٠٠٠ر٣٠٧ر١٠ ، وذلك على أساس أن هذه المقارنات تستبعد القاهرة من أي من الوجهين .

والى جانب هذا فان نمط الكثافة وتوزيع السكان في مصر يجعل من القاهرة قمة طبيعية وتتويجا لزحف سكاني صاعد نظيم يبدأ من اقصى شمال الدلتا وأقصى جنوب الصعيد على السواء. فبروفيل الكثافة في الوادي برمته أشبه شيء بالهرم المدرج ، سقفه منطقة القاهرة . والواقع أن دائرة نصف قطرها ٧٥كم ومركزها القاهرة ، تضم وحدها ربع مجموع سكان القطر في ثمن مساحته فقط ، أي بكثافة ضعف المعدل القومي ، وذلك بحسب أرقام عام ١٩٤٧ ، بينما تشي أرقام عام ١٩٦٦ بمزيد من التركز : فنفس الدائرة تضم الآن ٣ر٢٨ ٪ من سكان مصر

ومعنى هذا ان هنا مركز الثقل البشري في الوادي ، هنا « النواة النووية » للدولة . ولهذا كان طبيعيا أن

(١) M. Clerget, Le Caire. Etude de Geog. urbaine, 1934. t. I.

توصف القاهرة بأنها « زر ماسي يمسك مروحة الدلتا ويد الصعيد » (١) ، أو كما يقول ستامب « من وجهة نظر مصر الحديثة ، ربما كانت القاهرة أكثر عواصم العالم منطقا فى توقيعها » (٢)

وليس أدل على هذه المركزية من البعد التاريخى . فلم تكن طيبة فى الجنوب عاصمة وطنية الا لفترة ريادية قصيرة ، وبالمثل كانت تانيس فىشرق الدلتا تجربة عابرة مرتبطة ببعض مراحل التوسع المصرى فى الشرقالاوسط وحاجتها الى رأس جسر متقدم (٣) . اما الاسكندرية فلم تكن عاصمة الا كانحرافة استعمارية لقوة بحرية موقوتة بل انها كثيرا ما عدت مدينة أجنبية النشأة والسكان ألصقت بالساحل المصرى . وفيما عدا هذا فمنطقة رأس الدلتا ، سواء منذ منف أو طينة ، أو هيليوبوليس أو أون ، ثم الفسطاط او القاهرة ، هى العاصمة الطبيعية لمصر طوال تاريخها الالفى

بل ربما كانت القاهرة أو بالاصح منطقتها أقدم عاصمة فى العالم ، وان كان لدمشق أن تفخر بأنها أقدم عاصمة احتلت بغير انقطاع فى التاريخ . وها هنا اذن ــ كما فى بغداد عند خاصرة الرافدين ــ واحد من تلك المواقع الجغرافية الخالدة النادرة التى قد تدور فى فلكها واطارها مجموعة متعاقبة عبر العصور منالمواضع المدنية المختلفة ولكنها لا تستطيع أن تخرج عنمجالها المغنطيسى ومن أسر جاذبيتها الطبيعية الغلابة . وهذا جميعا بفعل المركزية الجغرافية القوية

---

(١) Lozach, op. cit.   (٢) Stamp, Africa, p. 213.

(٣) حزين ، « البيئة والموقع ... الخ » ، ص ٤٤٩ ، عبد الفتاح وهيبة ، دراسات فى جغرافية مصر التاريخية ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ١٣٧

المركزية الوظيفية : البيروقراطية

غير أن الى جانب الشكل والمضمون تركيبيا ، هنـــاك عامـــل هام يدعو الى مزيد من المركزية وهو العـــامل الوظيفى . فالبيئة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجى ، ولهذا أصـــبح الرى مرادفا للتنظيم ، والتنظيم المركزى ، الذى يخضع فيـــه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . ولئن كان هـــذا من أقوى عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة فى مصر ، كما أنه علم الشعب النظام أساس الحضارة ، الا أن هذا أيضا بدأ دور الحكومة الطـــاغي وارسى نواة الموظفين الثقـــيلة Officialdom ، وأصبحت البيروقراطيـــة المركزية عنصرا أصيلا فى مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلا عنيدا فى موكبها . أصبحت مصر مجتمعا « حكوميا » كما قد نقول ، فالحكومة وحدها هى التى تملك زمام المبـــادرة وامكانيات العمل . وقد كان لهذا قيمته فى بعض المراحل والمشاكل، ولكنه خلق فىجميعها روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية فىالسكان

والذى يتعمق تاريخ مصر الاجتماعى ستروعه ولاشك تلك البيروقراطية العاتية التى تمتـــد على طوله بغير انقطاع ، حتى لتشكل نغمة دالة عليه وملمحا أساسيـــا آخر من ملامحه . فالبيروقراطية فى مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الاهرام تبدأ ، وفيها تتلخص. ويكفى بعدها أن نرى صور «كبار الموظفين» على النقوش والآثار القـــديمة ، وأن نعرف أخبـــارهم المتواترة فى البرديات والسجلات العديدة حتى ندرك خطورة الدور الذى لعبته الهيئة البيروقراطية فى القديم . بل ان شئت رمزا بليغا ففىالنحت تجده : ابتداء من تمثال «الكاتب» حتى تمثال « شيخ البلد » ، فهذه جميعا نصب تذكارية

وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطيـــة الفرعونيـــة الثقيلة . بل لقد اعتبر ماكس فيبر نظـــام الموظفين فى الدولة الحديثة « النموذج التاريخى الذى سارت عليه البيروقراطية فيما بعد »

وسير التاريخ تدلنا كذلك على أن رخاء مصر وازدهار اقتصادها واستقرار العمران فيها كانت جميعا رهنـــا بدرجة ما بدور الجهاز الادارى . فمـــا أكثر الازمات والمجاعات التى كانت تجتاح الوادى اذا ما فسد الجهاز أو عطب ، وما أكثر ما كانت عودة الرخـــاء والنظـــام مرتبطة باصلاح جذرى فيه . وحسبنا فى هذا أن نشير الى قصة يوسف أيام المجاعة واســـتدعاء بدر الجمالى أيام الشدة المستنصرية فى أخريات الفاطمية . وأغلب من كتبوا عن مصر ، ابتداء من لودفيج الى شارل عيسوى الى مورو برجر ، متفقون على أن قليلا من البلاد هى التى يلعب فيها الجهاز الادارى مثلما يلعب فى مصر أو يأخذ الحجم المتورم والثقل الضاغط الذى يأخذه فيها

ولا شك أن وراء هذا خلفية جغرافية مقنعة بما فيه الكفاية ، أو فلنقل بدرجـــة ما . فوظيفـــة الدولة ــ الحكومة ــ فى المجتمع الهيدرولوجى وزراعة الرى أضخم بلا ريب من الوظيفة المألوفة للدولة . «فكعامل جغرافى» بمعنى الـكلمة لابد منه ، وكأداة كبرى فى تغيير صفحة الاقليم واعادة تشكيله وتخليقه بالمشاريع الهندســـية والعمرانية الكبرى والمنشآت النهرية ، تكتسب الدولة فى البيئة الفيضية دورا اضافيا وجوهريا لا تعرفه دولة المطر العادية . ثم الى جانب هذا الجهاز الفنى الضخم بمعناه الهندسى المباشر ، لابد من جيـــش من الخبراء والمشرفين على عمليـــة الزراعة التى لا يمكن أن تتم على أسس فردية عشوائية

حول هذه النواة الصلبة من التكنوقراطيين ، تترى بالضرورة حلقات كثيفة من البيروقراطيين ، تبدأ بالجهاز المالى الذى يحاسب على ثمن الماء ، وتمتد الى الجهاز البوليسى الضرورى لضبط الامن ومراقبة حقوق الماء ، لتنتهى أخيرا الى جهاز ادارى آخر لخدمة تلك الاجهزة جميعا بالمعنى المكتبى المباشر . ولعل هذا القطاع الاخير هو جانب الربح المركب فى نمو جهاز « الضبط والربط »

وانعكاسا لهــذه الوظائف يبرز فى تاريخنــا القديم والحديث دور عدة وزارات بعينها ، تشمل الاشــغال والرى والزراعة والمالية والداخلية ، بدرجة لا تعرفها بالتأكيد دول اخرى كثيرة . هذا بينمـــا يرمز لها على مستوى التطبـــيق وعلى الطبيعـــة اســـاطين القرية الكلاسيكيين ابتداء من المهندس والمساح الى العمدة والصراف

والنتيجة المنطقية بعد هذا جيش حقيقى من الموظفين ، يصبح فى ذاته ملمحا أو طبقة فى تركيب المجتمع وبصورة قد لا تعرفها بلاد كثيرة . اذ تصبح الحكومة أكبر « صاحب عمـــل » فى البلد ، ويكاد يتحول المجتمع الى مجتمع حكومى كما قلنا . ولمـــا كان الجهاز يمثل الســلطة والقوة من ناحية ، وكان نصيب البرولتارية المنسحقة هو الكبت والاستبداد من ناحية اخرى ، فانه يكتسب جاذبية نادرة ، ويصبح « للميرى » قداسة وبريق تجعله جنة التصعيد الاجتماعى

ومن الجدير بالملاحظة اننا نجد البيروقراطية ـ كنتيجة لهذا ـ ترتبط أساسا بطبقــة البورجوازية ، وبخاصة بورجوازية المدن . واذا كانت البورجوازية فى مدن أوربا فى العصور الوسطى ترتبط فى أذهاننا وفى الواقع بطبقة التجار أساسا ، فمما له مغزاه أنهـــا ارتبطت فى مصر الزراعية الفيضية بفئة البيروقراطية من موظفين واداريين

وحكام بصفة تقليدية . ولعل التعبيرين الدارجين : « الميرى ، والطين » أن يلخصا أقطاب القوة فى مجتمعنا التقليدى الى وقت قريب

وقد كان الانتقال من الرى الحوضى الى الدائم فى عصرنا الحديث خطوة اساسية أكدت بل وربما ضاعفت كل عناصر هذا المركب الهيدرولوجى - البيروقراطى . فمن المعروف أن الرى الدائم ضاعف مهام ووظائف الدولة ، ولذلك لم يكن غريبا أن عملية خلق جسم كبير أو نواة من البيروقراطية الحديثة انما تبدأ مع محمدعلى وعلى يديه . حتى اذا ما وصلنا الى العقود الاولى من القرن الحالى لم يعد لدينا شك فى أنالجهاز البيروقراطى قد خلق أو أسهم فى خلق طبقة وسطى - عليا وسفلى - من بورجوازية المدن تمثل شريحة أساسية ومتشعبة فى المجتمع المتغير

وحتى ما قبل الحرب الثانية لم يكن هناك شك فى أن الصفة الغالبة على المجتمع المصرى الحديث أنه «مجتمع موظفين » ، وأن مدننا الرئيسية كانت الى حد كبير «مدن موظفين» . وأسوأ من هذا أنه كان مجتمع موظفين لا وظيفى ، لانه كان جهازا مستهلكا أكثر منه منتجا ، وكان نموه خضريا أكثر منه ثمريا كما يقال ، اذ أن تضخمه الحجمى تعدى حدوده السليمة حتى وصف بأنه أصيب « بداء الفيل » ، وحتى قال البعض أن مصر كما تعانى من افراط السكان مع انخفاض المعيشة تعانى من افراط البيروقراطية مع انخفاض الكفاءة

والارقام المتاحة فى هذا المجال لا تترك مجالا للشك فى أن البيروقراطية أوشكت أن تكون ملمحا جغرافيا عندنا. فقد قدر عدد الموظفين فى عامى ١٩٥٠ - ١٩٥١ بنسبة ٢ر٢ ٪ من مجموع السكان العام ، بالمقارنة الى ٣ر١ ٪

فى بريطانيا . وقد يبدو الفـــارق محدودا ، ولكنه اذا نسب الى قوة السكان العاملة وحـــدها لبدا جذريا . على أن الخطر النسبى يتضح من مقارنة تكاليف هـذا الجهاز . فقد قدر أن أجور الموظفين فى عامى ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ابتلعت ٣٥ ٪ من ميزانيـــة الدولة ، وفى عامى ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ قدرت النسبة بنحو ٤٠٫٥ ٪ ، بل وصل تقدير ثالث الى ٤٦ ٪ ـ هذا مقابل ٩ ٪ فى بريطانيا (١)

ولا شك أن الموقف قد تغير الآن بعد ان انتقل الانتاج الى الملكية العامة وأصبحت الدولة الاشتراكية هى اكبر « صاحب عمل » تماما . والارجح أن هذه المسئوليات الجديدة المضافة الى الجهاز البيروقراطى بين يوم وليلة قد أعادت التوازن بين الحجم والوظيفة ، مثلما يحدث فى اقتصاد يعانى من افراط السـكان ثم يتكشف فيه فجأة مورد اقتصادى كالبترول مثلا .. غـــير أن هـذا لا يغير من الحقيقة التاريخية وهى المركزية الوظيفية ـ متمثلة فى البيروقراطية ـ فى مصر الفيضية

المركزية الحضارية : العاصمية

من بين المركزية التركيبية والمركزية الوظيفية ، تخرج لنا القمة النهائية المجسدة للمركزية فى مصر عموما ، ونعنى بها المركزية الحضارية التى ترادف توا العاصمية المتطرفة . فمنذ عرفت مصر العواصم الموحدة والعاصمة فيها تحقق حجما هائلا بالنسبة لمجموع حجم الدولة وعلى حسابه ـ والمركزية تورث الحجم . ولقد كانت المعادلة الاقليمية فى مصر تتألف تقليديا من رأس كاسح وجسم كسيح . وسواء كانت فى طيبة أو طينة ، أو فى الاسكندرية

---

(١) Morroe Berger, Bureaucracy & Society in Modern Egypt, Princeton, 1954.

أو القاهرة ، فان العاصمة كانت دائما تسود الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية . وقد لا نبالغ كثيرا اذا قلنا ان تاريخ مصر ليس الا تاريخ العاصمة أو يكاد . والمتصفح لتاريخ الجبرتي مثلا ، ومن قبله السيوطي أو ابن اياس ، لا يمكن أن يخطيء هذا الاحساس (١) .

حقيقة لقد لعبت بعض الاقاليم دورا تاريخيا مرموقا ، ولكن مثل هذه الاقاليم انما لعبته بصفتها أقاليم حدود وتخوم معرضة للاخطار الخارجية . فدور الموانى الساحلية والنهرية ابتداء من المنصورة ودمياط أيام الصليبية الى رشيد والاسكندرية وبورسعيد ضد « الفرنجة والفرنساوية أو الانجليز » هو دور خاص . أما الاقاليم العادية فليس لها تاريخ تقريبا ، انما لها روتين ، أو هي على الاكثر « سندرلا » لتاريخ العاصمة. والاحساس الطاغي هو بايجابية العاصمة وسلبية الاقاليم ، كأنما العاصمة تاريخ محفوظ أو مجمد بمثل ما يبدو النهر عندها تاريخا سائلا أو جاريا ، ثم خارجهما يتخلخل التاريخ أو يختفى ..

وكنتيجة لهذا نجد أنه فى وقت ما من أيام البطالمة والرومان تعدت الاسكندرية المليون من مجموع قد لا يتجاوز ١٠ ملايين (٢) . ومن قبل كانت طيبة ثم منف أعظم مدينة فى العالم فى وقتها. ومن بعدها كانت القاهرة أكثر من مرة فى العصور الوسطى كبرى مدن العالم كذلك ـ عاصمة العالم ان جاز القول ـ كما يؤكد لنا المقدسى فى القرن العاشر : « ... وفسطاط مصر اليوم

---

(١) الجبرتي ، عجائب الاخبار، القاهرة ، ١٨٨٤ ، ابن اياس ، تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٣١١، هـ ، السيوطى ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة، الشرفية.

(٢) T. Walek — Czernecki, Pop. de l'Egypte Ancienne, Cong. Intèrn de Pop. Paris, 1937, vol II, p.8

كبغداد فى القديم ، ولا أعلم فى الاسلام بلدا أجل منه »(١)، وكما يكرر الرحالة البنــدقى بيلوتى Piloti فى القرن الخامس عشر : « مدينـــة القاهرة هى أكبر مدينة فى العالم من بين المدن الواقعة فى حدود علمنا » (٢) ..

وفى أيام الحملة الفرنسية حين كانت مصر قد هبطت الى ٢ر٥ مليون ، ظلت القـــاهرة تحتكر وحدها خمس المجموع ، فقـــد كانت تدور فى حدود نصف مليون . ونحن الآن نعيش فى « قاهرة » حقيقية بين بقية المدن والاقاليم تضم زهاء ٥ ملايين نسمة من مجموع قدره ٣٠ مليونا . ولنا أن نتساءل : لماذا كانت دولة كايطاليا يبلغ سكانها حجم سكان مصر مرتين تقريبا بينما لا تزيد عاصمتها حجما عن نصف سكان القاهرة ؟ والواقع أننا ننسى أن القاهرة حاليا ليست أكبر مدينـــة فى افريقيا فحسب ، ولكنها أكبر مدينة فى نطاق ضخم من العالم القديم يشمل كل أوربا جنوب الالب والـكربات وآسيا جنوب القوقاز وغرب السند

وهذا ما ينقلنا الى فكرة « المدينة الاولى » كمقياس مقـــارن . فنحن نستطيع أن نعبر عن مكانة القاهرة فى كيان مصر اذا نحن نسبنـــاها الى المدن التالية لها فى الحجم ، ثم قارناها ببلاد أخرى . فالنسبـــة المئوية للمدن الثلاث الكبرى فى مصر هى ١٠٠ : ٢ر٤٥ : ٣ر٧ ، للقاهرة والاسكندرية وبورسعيد على الترتيب . قارن هذا على سبيل المثال بمكانة الجزائر العاصمة فى الجزائر الدولة حيث الجزائر ١٠٠ : وهران ٢ر٤٨ : قسنطينة

(١) جورج فاضلو حــورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى مترجم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢٨

(٢) P.H. Dopp, «Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age», Bull. Soc. Geog. d'Egypte, 1951, p. 131

٢٧٫٤ ــ او فى ايطاليا حيث روما ١٠٠ : ميلانو ٧٥٫٢ : نابولى ٦٠٫٧ . وكما يتفق ، فان هذين المثلين هما أشبه بمصر من حيث الشكل الجغرافى الخطى الضيق المستطيل، ولكن بينما يؤدى هذا النمط الى توزيع الاثقال على المدن الكبرى بشيء من العدالة والتقارب أو فى انحدار تدريجى معقول ، نجده يؤكد طغيان كفة القاهرة فى ميزان القوة فى مصر

ليس هذا فحسب ، فالحجم الخام وحده ليس كل الوزن . فلئن كانت القاهرة لا تتعدى سدس الدولة من حيث العدد المجرد ، فهى قد تزيد على نصفها من حيث الوزن الفعال . فلو قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والاملاك والصناعات والمرافق والخدمات الراقية ، وكذلك ما لا يمكن قياسه رقميا كالسلطة والنفوذ ... الخ ، فقد ترجح العاصمة كفة بقية البلد ببساطة وسهولة . ولهذا ليس من المبالغة فى شيء أن نقول انه اذا لم تكن « مصر هى القاهرة » ــ كدنا نقول امبراطورية القاهرة ! ــ فانها على الاقل قد أصبحت مجرد ضاحية شاسعة للعاصمة. وليس من مجرد الصدفة على الارجح أن مصر من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم البلد على العاصمة فى العرف الدارج رغم اختلافهما رسميا

ومن الملاحظ أن سقوط العاصمة فى أى فترة من

فترات التاريخ كان معناه تلقائيا سقوط مصر، ولا شذوذ لذلك الا حالة واحدة تقريبا هى الهكسوس . ومعنى هذا أن بقية الاقاليم على امتدادها أفقر وأعجز من أن تنظم كوحدات مستقلة فعالة للدفاع الوطنى فى حالة سقوط العاصمة ، حتى تكون نوايا وخلايا متعاقبة للمقاومة والاسترداد والتحرير

وهناك فيما نرى علاقة قرابة بل خط نسب مباشر يجرى بين ضخامة العاصمة الطاغية وضآلة الاقاليم الممعنة من ناحية ، وبين جبروت الاهرام والآثار الفرعونية وتفاهة وضعة بيوت المصرى القديم من ناحية أخرى . ولئن كان معنى هذا علاقة وظيفية بين الطغيان الاقطاعى وبين المركزية الجامحة ، فليس هذا الا تحصيل حاصل. فما المركزية العنيفة الا ترجمة ادارية وعمرانية للطغيان السياسى والاقطاع الاجتماعى . وقد لاحظنا من قبل فى مكان آخر علاقة ارتباط مباشرة بين شكل هرم المدن فى مصر وهرم الطبقات ، فكلا الهرمين مفرط التفلطح : له قاعدة واسعة ولكنها واطئة ، وقمة ضيقة لكنها شامخة : وبين الطرفين تختفى الطبقة الوسطى أو تكاد (1)

فاذا كان هرم الطبقات يتألف تقليديا من قاعدة عريضة جدا من البرولتاريا الفقيرة ، ومن قمة ضيقة ولكنها ثقيلة جدا من الاغنياء ، لا يفصل — أو يصل — بينهما بالكاد طبقة وسطى معقولة الحجم ، فكذلك نجد هرم مدننا ينقسم الى مجموعتين بينهما برزخ لايلتقيان ، اذ يهوى بعد القاهرة والاسكندرية بصورة درامية الى المدينة التالية بورسعيد التى تتصدر بذلك حفنة من المدن الضئيلة أو المتواضعة أو العاجزة . ويمكن أن نعبر عن هذا رقميا اذا ذكرنا أن مجموع العاصمتين فى عام ١٩٦٠ كان ٤٫٨٥٩٫٠٠٠ مقابل ٤٫٩٦٥٫٠٠٠ لبقية مدن مصر جميعا ، أى انهما يمثلان وحدهما نصف (٤٩٫٤٪) مدن مصر

---

(1) G. Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959, p. 19.

ومن الطريف أن نفس الشكل المعوج يمتـــد حتى التعليم ، لا كصدفة ولكن فى علاقة وظيفية مباشرة : فقد ثبت أن مصر تكاد تتصدر العالم فى نسبة المتعلمين تعليما عاليا بالنسبة الى عدد المتعلمين ، بينما هى من أعلى البلاد فى نسبة الامية ! وقد كانت مصر قبل الثورة تنفق على التعليم العالى ضعف ما تنفقــه على التعليم العام . وكل هذا عرض من أعراض ومضاعفات الرأس الكاسح والجسم الكسيح ، مثلمـــا هو من أســـبابها ومضاعفاتها

والحقيقة أن نظام الطغيان الاقطاعى الذى اعتمد على الملكية الغيابية قد نزح دخول وعوائد الانتـــاج الاقليمى ليصبها بلا هوادة فى العاصـــمة وبقدر ما كان النزيف الاقتصادى والحضارى فى الاولى بقدر ما كانت التخمة فى الثانية . والواقع ان الانتقال من العاصمة الى الاقاليم يكاد يكون لفداحته كالانتقال من قارة الى قارة أخرى . وبقدر ضآلة المسافة الجغرافية ، بقدر ضخامة المسافة الحضارية ، حتى لنجدنا ازاء ازدواجيـــة حضـــارية صارخة ـ ولا نقول انفصاما فى الشخصية الحضارية. ان ضخامة وعظمة العاصمة المركزية فى ناحية ، وفقر وتحجر الاقاليم فى الناحيـــة الاخرى ، لم يكن طوال التاريخ الا الترجمة المبـــاشرة للتناقض الشنـــيع بين اللاندوقراطية فىناحيةوالبرولتارية الزراعية فىناحيةأخرى

كذلك لا ننسى دور البيروقراطية ، فهى سبب بقــدر ما هى نتيجة للمركزية. فمنذ البداية تركزت هذه الهيئة الطاحنة فى العاصمتين جغــــرافيا بدرجة عنيفة حرمت الريف والاقاليم من الحد الادنى من خدماتها ، وذلك رغم أنها ما قامت أصلا الا لخدمة هـــذا الريف وتلك الاقاليم وبفضل انتاجهـــا . ورغم ادخال الحكم المحلى

اخيرا ، ورغم ما تعرض له الجهاز من عملية جراحيـة لاعادة توزيعه جغرافيا ، يظل جيش الموظفين رابضـا مرابطا فى العاصمة والمدن الـكبرى ، ولا يزال القطاع الاكبر من الجهاز البيروقراطى عاصميا متروبوليتانيا أولا ومدنيا ثانيا

والارقام التاليـة عن مدى التركيز « النقطى » فى القاهرة ابلغ دليل على أن العاصمة لم تزل « بالوعة » للطاقة البشرية انتاجية واستهلاكية فى الوطن

نسبة السكان الى الدولة	١٠ر٨ ٪
نسبة موظفى الدولة	٣٠ ٪
نسبة المهندسين الزراعيين فى القاهرة	٥٣ ٪
نسبة الاطباء البشريين فى القاهرة والجيزة	٥٢ر٢ ٪
نسبة الاطباء البيطريين فى القاهرة والجيزة	٤٨ر٢ ٪
نسبة المهندسين الجامعيين فىالقاهرة والجيزة	٥٨ر٧ ٪

ومن الواضح أن كثافة البيروقراطية فىالعاصمة تعادل كثافتها القومية بعامة ثلاث مرات على الأقل ، وضعف هذا فى خطوط معينة . وليس هذا مما يدعو فى شىء الى « مركزية التخطيط ولامركزية التنفيذ » . والمطلوب الان بلا تردد عملية تفتيتوبعثرة لهذه الارساباتالبيروقراطية الثقيلة ليعاد توزيعها أفقيا على رقعة الوطن بحسب كثافة السكان وبحسب الحاجات الاقليمية الحقيقية

ويترتب على هذا كله أن مصر لم تعرف « الاقليمية Regionalism » كفلسفة مكانيـة طوال تاريخهـا الاسـتبدادى الاقطاعى : لم تعـرف الا اللااقليميـة irregionalism الوائدة التى تركت ريفنا مجرد « صحراء حضارية » مجرد « صحراء خضراء » كما قـد نقول . بل كدنا نرى انفصالا شبكيا بين العاصمة المتخمة والريف الانيمى ، حتى قيل أن هناك « مصرين » : مصر

العاصمة – اقطاعية ، لاندوقراطية وبيروقراطية مستغلة ، ومصر الاقاليم – بروليتارية زراعية مأزومة مستغلة · الاولى فقاعة حضارية براقة ، والثانية قوقعة حضارية راكدة

وليس صدفة أن أول مرة تتحقق فيها الاقليمية بالمعنى الصحيح ونعرف فيها الحكم المحلى الرشيد ، هى أول مرة تتحقق فيها نهاية الاقطاع وحكم الملاك ، وذلك منذ الثورة الوطنية المعاصرة . هذا ، وليست الاقليمية أو اللااقليمية سياسية فحسب، بل واقتصادية وأدبية كذلك . لذلك نجد أن الحكم المحلى لا يعود الى الاقاليم وحده بل ومعه الانتاج والصناعة والثروة والملكيات ، كما أن الفنون الشعبية والاداب الفولكلورية التى طال اهمالها ، بل واحتقارها ، بدأت تجد تقديرها والاحترام . ولم تعد السلطة والنفوذ والثروة والانتاج والفنون والاداب مركزة تماما فى العاصمة ، بل أخذت تنتثر فى لامركزية واضحة خلال كل خيوط الشبكةالقومية

غير اننا نخطىء كثيرا اذا ما رددنا المركزية المزمنة فى مصر الى أصول الموضع وحده ، فان موقعنا تكاتف هنا فى الواقع مع شكل الموضع وطبيعته وأثره ليضاعف منها ومن طغيانها . فمنذ البداية والموقع الحرج الحساس يفرض على مصر أن تبدو فى أعظم قوتها وأن تكتل كل أمكانياتها لتتقدم الى العالم جبهة مهيبة رادعة . لقد كان لمصر دائما دور خارجى عبر الحدود خطير ، وكثيرا ما كان هذا الدور طموحا بدرجة أكبر من امكانياتها الموضعية المتواضعة بالمقياس العالمى . ولهذا بدت أحيانا كأنها تتطلع الى ، وتحاول ، أكثر من طاقتها (١) . بدت كرأس كبير ينوء به جسم صغير . وكان هذا الرأس بطبيعة الحال هو العاصمة حيث تتركز كل المسئوليات

(١) Hindus, P. 128.

والتطلعات الخارجية ، بينما كانت الاقاليم هى الجسم المتواضع . كان الراس يمثل الموقع الباهظ ويرتبط به ويرمز له ، بينما تجسد الموضع المحدود فى جسم الريف. ومن هذا التناقض نشأت متناقضة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، وربما بدت الصورة النهائية كقزم ضخم الجمجمة

تلك هى الصورة الاساسية التاريخية بعامة . ولكنها تعدلت تعديلات ثانوية مرحلية بما يؤكدها أو يخففها . فالاحتكاك الحضارى الذى بدأ منذ نحـــو قرن ونصف الان دعا الى قدر كبير من المركزية حتى يمكن خلق مركز حضارى حديث غنى فى بيئة متخلفة فقيرة . ولم يكن من الممكن أن تتعدد مثل هذه المراكز بل لزم أن تحشد حشدا فى بؤرة واحدة . وحتى فى يومنا هذا ، يلاحظ أن كل الدول المتخلفة التى بدأت التحضر حديثا ، تملك عاصمة ضخمة بالنسبة لحجمها وغالبا ما لا تملك بجانبها مدينة أخرى تستــحق الذكر . أى أن المركزية العنيفـة هى ضرورة مرحلية فى بداية التطور الحضارى

ومن الناحية الاخــرى فقد أدى الانقــلاب الزراعى والحضــارى من الرى الحوضى الى الرى الدائم الى مضاعفة امكانيات الموضــع وموارد الريف ، كمــا أن اقتصاد المحصول الواحد والاقتصاد الحديث المتجر يدعو الى ، ويمكن لمزيد من ، المركزية اذا ما قورن بالاقتصاد المعاشى واقتصاد الحبوب والكفاية الذاتية القديم

كذلك منذ خرجت مصر من عزلتها لتعيد تأكيد بعدها العربى ، أصبحت القاهرة تلعب دورا قد لا نغالى ان قلنا انه دور عاصمة العرب غير الرسمية . ولقد قيــل بحق ان القاهرة هى باريس الشرق الاوسط ، اذا كانت بيروت هى فيناه . فاذا علمنا انه قيل من قبل ان فينا

هى باريس شرق أوربا ، لعرفنا الخيط الذى يجمع بين الاشباه الاربعــة : انها المركزية العــارمة الطاغية بأمر التاريخ وبحكم الجغرافيا . وهكذا تظل المركزية ملمحا تاريخيا أساسيا فى شخصية مصر ، ولكنها تتطور الان نحو مزيد من التــوازن والتــكافؤ وذلك مع التطورات التكنولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعيةالحديثة

وفى مجتمع بدأ يأخذ بالتخطيط الاشتراكى يجب أن يكون مفهوما لنا ان المركزية العارمة فى شكل العاصمة الطاغية ليستالا الترجمة المكانية للاقطاع أو الرأسمالية، بينمــا ان الاقليميـــة المتوازنة هى لا شىء ان لم تكن « اشتراكية المكان » ، وأن اللااقليمية فى حقيقتها ليست الا نظام الطبقات استلقى على الارض . ولهذا فنحن ندعو — على ضوء الشخصية الاصيلة لمصر — الى تصــفية المركزية العاصمية واعادة توزيع القيم الاقليمية فى شبكة متكافئة حضاريا وبشريا واقتصاديا حتى نتحاشى خطر التخمة وانفجار الشرايين فىالرأس — العاصمة — والشلل الزاحف ولين العظام فى الاطراف — الاقاليم

ولن يكون فى هذا تحقيق للعدل والكفاية الاقليميــة داخليا فحسب ، بل ان فيه أيضا قوة وسلامة للدفاع الوطنى فى حالة الخطر الخارجى ، وهو اعتبار أصــبح أكثر خطرا واحتمالا منه فى أى وقت مضى بعد أنأصبحت مصر قوة طافرة لها أعداؤها ، بل انه اعتبار كان يمكن أن يوضع موضع التنفيذ كما علمتنا حرب السويس

واذا كانت الدولة الاشتراكية تأخذ بقوة بالتخطيط القومى ، فانها لا يمكن أن ترى فى التخطيط الاقليمى ، الذى هو توزيع جغرافى للخطة القومية ، ترفا كماليا أو بذخا غير اقتصادىكما تفعل بعضالدول غير الاشتراكية. وكما تسعى اشتراكيتنا الى تذويب الفروق بين الطبقات

الاجتماعية ، ينبغي أن تعمل على تذويب الفـــروق بين الاقاليم الجغرافية . وفى مقابل اعادة توزيع الثروة بين الافراد ومعهـا ، ينبغى أن تتم اعادة توزيع الثروة والحضارة والخدمات بين أقاليم الدولة

وكما أن العدالة الاجتماعية لا تعنى المساواة المطلقة التنميطية بل العدل فى تكافؤ الفرص بين الافراد ، فكذلك لاتعنى العدالة المكانية تسوية كل بقعة فىالدولة بمثيلاتها، وانما المقصود تكافؤ الفرص بين الاقاليم حتى تنمو كل منها بحسب مواهبها الجغرافية الكامنـــة وامكانياتهـا الطبيعية ، بعيدا عنضغوط الاندفاع التاريخى أو القصور الذاتى أو المواقع والمزايا التراكمية المكتسبة

وانطلاقا من هذا المنطق ، فان دارس مصر لا يملك الا أن يرى انه قد آن الاوان لكى تعلن مدينة القاهرة الكبرى – وربما الاسكندرية الكبرى كذلك – « مدينة مغلقة » للتنمية لمدة عشر أو حتى خمس سنوات مؤقتا ، فلا يضاف الى وظائفها الراهنة – والمدينة أى مدينـة ليست الا حزمة منالوظائف فى التحليل الاخير – لايضاف جديد أو زيادة سوى ما تحتمه الصيانة والتعويض ، وذلك تجميدا لحجمها الراهن بعد أنفات أوان تخفيضه. لابد أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج ولمدة موقوتة الى نهر قليل الروافد كثير المصـاب ، تحويلا لشرايين الحياة الى الاقاليم والمدن الاقليمية والريف العريض ، الى أن تتخلق فيها ومنها أقطاب للتنمية « Pôles de developpement » الاقليمية فعالة ومؤثرة

ويترتب على هـذا أن نحقق « سـقفا » أعلى لنمو العاصمة ، و « أرضية » لنمو المراكز الاقليمية . وبديهى أن تحقيق هذا لا بد أن يشمل كل وظيفـة من حزمة وظائف العاصمة لا سيما الصناعة بقوة عمالها والادارة

بجيش موظفيها . أما منع الهجرة الى العاصمة بقانون فليس حلا ولا محل له ، لا ديموقراطيا ولا عمليا . انما الحل فى الضبط غير المباشر والتخطيط بالاقناع persuasive planning ، وذلك بأن تنقل العاصمة ـ أعنى وظائفها وخدماتها ومرافقها ومزاياها ـ الى الريف ، لا أن تمنع الريف أن ينتقل الى العاصمة



(شكل ٣) : فى كل هذا النطاق من العالم القديم تأتى القاهرة كأكبر مدينة واضخم عاصمة

الفصل الرابع

من إمبراطورية إلى مستعمرة

بين الموقع والموضع

من الغريب حقا أن مصر بعد أن أنشأت أول امبراطورية فى التاريخ تدهورت الى أطول مستعمرة عرفها التاريخ !. فتاريخ مصر يقع بوضوح فى مرحلتين متناقضتين : مرحلة أولى كانت تمثل فيها قوة طاردة مركزية من الناحية السياسية ، أنطلقت فيها الى العالم المجاور وفرضت عليه نفوذها ونشرت فيه ظلها السياسى ، واستمرت هذه المرحلة نحو الف سنة متقطعة حتى نهاية الدولة الوسطى أو الحديثة تقريبا . ثم تلت هذا المرحلة الثانية التى تصل بنا الى العصر الحديث بلا انقطاع تقريبا ، وفيها تحولت مصر سياسيا الى قوة جاذبة مركزية خضعت لقوى دخيلة واصبحت مستعمرة تابعة ــ اصبحت مجرد ظل نفسها سابقا

وهذه المتناقضة وتلك الثنائية ظاهرة جذرية فى الخلفية التاريخية لمصر ، بحيث تستدعى تحليلا دقيقا وتعليلا محددا لا يضيع فى زحمة آلاف الحقائق الجارية وجزئيات التاريخ بل يعتصرها اعتصارا . غير أننا اذا كنا قد ميزنا بين مرحلة الامبراطورية ومرحلة المستعمرة،

فانما هو من قبيل الاختزال التبسيطى ، فلم تخل المرحلة الاولى من فترات انتكاس فقدت مصر فيها استقلالها ، كما أن المرحلة الثانية لم تعدم فترات توهج وانبعاث أكدت مصر فيها وجودها وشخصيتها كاملة أو شبه كاملة ، على الأقل موضوعا ان لم يكن شكلا . غير أن السمة العامة لكل من المرحلتين تظل هى السائدة

لقد كانت مصر « أول أمة » فى التاريخ القديم نمت فى نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح ، وبعدها كانت « أول دولة » بالمعنى السياسى المنظم تظهر على مسرح العالم القديم . ولم يمض قليل حتى كانت أعظم قوة سياسية فيه ، كانت « أول امبراطورية » فى التاريخ حققت لنفسها نطاقا ممتدا من السيطرة والنفوذ وصل بسرعة شمالا الى سوريا والى مشارف النهرين وميديا ، ووصل غربا الى برقة وتخوم نوميديا ، وجنوبا حتى اتيوبيا بمعناها الواسع القديم

وقد انتابت هذه الامبراطورية دورات من الانكماش والاتساع ، ولكنها ظلت بعامة أعظم حقيقة سياسية فى الشرق القديم لمدة نحو ألف عام . وفى أواخر المرحلة حين استطاع الهكسوس أن يحتلوا شمال مصر لم يدم هذا طويلا ولعب الجنوب ـ لا سيما الاقصى ـ دور المعقل الوطنى وقاعدة التحرير . وعادت الامبراطورية الفرعونية مرة ثانية تتواثب وتتفجر فى محيطها التقليدى فى غرب آسيا وشمال افريقيا

غير أنها بعد قرون من الازدهار أخذت تذبل وتتحطم تحت طرقات الغزو الفارسي والاشورى بل والليبى والنوبى ، الى أن كانت الضربة القاضية على يد الاسكندر حين تحولت الى ولاية اغريقية بطلمية . فمنذ لك الحين فقدت استقلالها بلا انقطاع تقريبا ، فتوالت عليها فتوحات

الرومان والعرب والعثمانيين لتختتم بالاستعمار الاجنبى الاوربى الحديث . وقد يقال ان خلاصة هذه الدورة ان مصر نمت نموا مبكرا للغاية وسابقا لأوانه ، ولكنها بالمثل انتهت قبل الاوان ، وبهـذا اختزل « العصر البطولى Heroic age » فيها الى قطاع صغير من دورة حياتها وتاريخها . ولربما يذكرنا هذا بفرنسا فيما بعد فى تاريخ أوربا الحديث حين كانت أول أمة ثم دولة ثم امبراطورية عرفتها أوربا الحديثة ، ولكنها لم تلبث أن فقدت مكانها مبكرا لقوى صاعدة جديدة .

أول امبراطورية

وأيا ما كان ، فالسؤال الحرج هو : لماذا هذا النضج المبكر وهذه البداية المبكرة من ناحية ، ثم تلك الشيخوخة والنهاية المبكرة أيضا بعد ذلك ؟ والرد على ذلك هو علاقة التفاعل المتغيرة عبر التاريخ ان تضافرا أو تنافرا بين العـاملين الجغرافيين الجوهريين الموقع والموضـع . والموضع الجغرافى كما قلنا هو البيئة الطبيعية المحليـة داخل مصر نفسها ـ شكلها وطبيعتها ووزنهـا . فهى كواحة فيضية تستقطب حول النهر قد تجانست بشريا وتوحدت سياسيا منذ البداية ، وعلمتها دورة النهر النظام والقانون ، ثم منحتها زراعة الرى « قاعدة أرضية » تعد بمقياس العصر ضخمة هائلة : قوة انتاجية سخية واكتفاء ذاتى تقريبا ، وقوة بشرية نادرة قوامها الكثافة لا المساحة . وعلى ضوء امكانيات الرى الحوضى يمكن أن نقدر قوة تحمل مصر بالسكان طوال العصور القديمة هذه بنحو + أو ــ ١٢ مليونا مع احتمالات خطأ معقولة . وحول هذا كله كانت الصحراء « الرحم الجغرافى » الذى ولد فيه هذا الموضع فى الاول ، ثم « الدرقة » الطبيعية التى حمته جميعا بعد ذلك

فاذا ما أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا انما نقف فى واسطة العقد فى كل معنى : فحولنا منتشرا فى كل الجهات شتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ، ضعيفة الموارد والتنظيم : دول رعاة (الليبيون والجزيرة العربية) أو أنصاف رعاة (سوريا) ودول ملاحين وصيادين (الاغريق) وفى النادر دول فلاحين (العراق) . ولم تكن رقعة المعمور الفعال حينئذ **Orbis Terrarum** تزيد عن هذا الاطار كثيرا ، تبدأ بعدها منطقة شبه ظل باهت لا وقع لها ولا خطر

وبهذا كانت مصر القمة والقلب معا : القمة موضعا والقلب موقعا . وليس من الصعب بعد هذا أن نعلل لسر قوة العسكرية المصرية القديمة Wehrmacht . كما كان طبيعيا أن يغرى ثراؤها وخصبها بها بعض هذه الاطراف الفقيرة اما فى تسللات متلصصة أو فى مغامرات تشنجية لا تخرج فى مجموعها عن طمع من جانب الرمل فى الطين أو الرعاة فى الزراع . وبهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر ارض المعركة ، والمعركة التأديبية أساسا Land of insolence — كما يقول الامريكيون الان (١)

من هنا أدركت مصر أن حدودها الطبيعية انما تبدأ خارجها فى فلسطين وفى برقة ، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الاوسط تقريبا . ومن هنا توسعت الامبراطورية الى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر « السلام المصرى Pax Aegyptiaca » . بل اننا يمكن أن نزعم بقليل من خشية أن الامبراطورية المصرية كانت فى جوهرها

(١) C. S. Coon, Caravan, Story of the Middle East N. Y., 1951, p.19.

وفى معنى ما « امبراطورية دفاعية » أساسا ، حتمتها كما سنرى ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق القديم

وقد كان من السهل على مصر أن تمد ذراعيها بعيدا يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا بفضل موقعها الاوسط الفريد . والتاريخ بعد هذا يسجل أن أغلب معارك مصر الحاسمة ـ الدفاعية ـ انما تمت على أرض الشام ، ابتداء من مجدو تحتمس الى حطين صلاح الدين الى مرج دابق الغورى . وعلى العكس من ذلك انتهت أغلب المعارك الدفاعية التى تمت على أرضها الى معارك خاسرة ابتداء من ريدانية طومان باى الى أهرام نابليون

استراتيجية الامبراطورية

وقد يكون من المناسب هنا أن نتوقف عند استراتيجية الامبراطورية المصرية ، علها أن تكشف لنا عن جانب أو جوانب من شخصية مصر الاقليمية ، وعن العوامل الثابتة والمتغيرة فى توجيهها التاريخى . وينبغى ابتداء أن نميز فى هذه الاستراتيجية بين عدة معادلات للقوة تعاصرت أو تعاقبت بحسب تلك الدورات . فثمة أولا معادلة الصراع بين الرمل والطين أى بين الصحراء والنهر ، أو الاستبس والمزروع ، أو أخيرا بين الرعاة والفلاحين . والأغلب أن هذه كانت معادلة محلية نوعا ، وتسود فى المراحل المبكرة عامة ، ثم لا تلبث أن تترك مكانها لمعادلة أهم وأوسع هى معادلة الصراع بين قوى البر والبحر ، بين قوى الفلاحين والملاحين ، أو كما يسميها البعض بين ذئاب البر وذئاب البحر ، أو قراصنة السهوب وقراصنة البحر (١) . واذا كانت تلك جميعا

(١) فايفليدوبيرسى الجيوبوليتكا، مترجم ، القاهرة ، ص ٤٥ ،
H. J. Mackinder. On Scope and Methods of Geog. p. 28

معادلات صراع بين أضداد ، فيمكن أن نضيف اليهـا صراع الأشباه الذى ينشب بين قوى أو بيئات متشابهة فى طبيعتها

وأول ما يتعين علينا بعد هذا أن نحدده هو مراكز القوى ومواقع الصراع من ناحية ، وأرض المعركة من ناحية اخرى . فأما عن مراكز القوى فكثيرا ما يصور تاريخ الشرق الاوسط القديم فى كتابات الغرب على أنه أساسا مبارزة تاريخية بين القوتين النهريتين الفيضيتين مصر والعراق . غير ان هذا قد يكون تبسيطا مخلا وربما مضللا . فطوال عصر الامبراطورية كانت اقطاب القوة ، أو القوى القطبية كما قد نسميها ، ثلاثة : مصر ، العراق ، آسيا الصغرى (ليديا ، ميتانى ، الحيثيون ، خيتا على التعاقب) (١) ، وهى بذلك صراع أشـــباه وأضداد معا . واذا كانت الاخيرة قوة رعوية أكثر منها زراعية ، فان الثلاث يشتركون فى أنهم قوى ليست برية مطلقة وانما تجمع بين صفتى قوة البر وقوة البحر بدرجات متفاوتات ، وكلها تمثل كتلا ضخمة بمقياس العصر ..

وبين رءوس المثلث الثلاثة هذه تحددت أرض المعركة برقعة سوريا الطبيعية أساسا ، والشد والجذب بينهم هو الذى سيحدد مصائر سوريا السياسية . واذا كانت سوريا هى أكثر الجميع ارتباطا بالبحر وأكملهم كقوة برمائية ، فان نقطة ضعفها بينهم كانت تكمن دائما فى ضآلة كتلتها العامة ، وهى ضآلة يضاعف منها تفتتهـا الداخلى الشديد المزمن . وفى هذا المجال كانت خطوط التقدم المصرى تتم على أحد محورين : جنوبى شمالى فى

---

(١) احمد فخرى ، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩٤ . وقد اعتمدنا على هذا المرجع فى كثير من الحقائق التاريخية فى هذا الفصل

مواجهة آسيا الصغرى ، أو غربى شرقى ازاء العراق . وفى الغالب كانت سوريا من نصيب مصر ، ولكن الاغلب انها كانت تسيطر على نصفها الجنــوبى ، أما النصف الشمالى فاما أن تفرض تحييده أو أن يقع اما للعراق أو لآسيا الصغرى (١) . كذلك يلاحظ أن العمل السياسى المصرى طوال ذلك العصر القــديم اقتصر على النصف الشمالى من الشرق القديم دون أن يتقدم الى جنوبه فى الجزيرة العربية ، فهذا تطور سيتأخر الى العصــور الاسلامية أساسا

ذلك هو المسرح ، فكيف تمت دراما الامبــراطورية المصرية فصولا ؟ اول ما يسترعى انتباهنا أن هــذه الاستراتيجية تقع فى عدة دورات متعاقبة من توســع امبراطورى ثم انكماش محلى ، ومن مجموعها يتألف نبض مصر التاريخى . واذا كان العراق قد خاض مثل هذه الدورات ، فمن المهم أن نلاحظ أن دورات الانكماش فى مصر لم يكن يتبعها اى تفكك أو تحلل فى الدولة ، بل ظلت مصر دائما وحدة واحدة وان تكن على ضعف وفى تقلص . أما العراق فكل دورة انكماشية تعنى بلا استثناء انهياره وتمزقه سياسيا الى مجموعة قلت أو كثرت من الدويلات ودول المدن والمقاطعات . وهذا الفارق جوهرى فى تركيب البلدين الطبيعى الى حد بعيد

فاذا التفتنا الى مصر وجدنا الدورة الاولى تتفق مع اوج الدولتين القديمة والوسطى حيث كان النفوذ المصرى ممتدا الى جنوب الشام برا والى مدنه الساحلية بحرا . ولعل بيبلوس والارز أن تلخصا هذا النفوذ وتلك العلاقة ، بينما ترمز اليه الاثار المصرية العديدة حتى اليوم فى كل تلك المناطق . وقد ترتب على الوجود المصرى هناك أن

(١) J. Fairgrieve, Geog. & World Power, 1941.

وضع حداً لدورتين متتاليتين من التوسع العراقى : فعلى التوالى وصلت كل من امبراطورية أكاد على يد سرجون وامبراطورية بابل على يد حمورابى الى شمال سوريا دون جنوبها والساحل . وبمعنى آخر فقد انتهى توازن القوى الى تنصيف سوريا بين القطبين الفيضيين

ولقد أتت أول دورة انكماش بعد هذا حين اجتاح طوفان الرعاة الشرق القديم فى القرن ١٨ ق . م آتيا من وسط آسيا ممثلا للصراع بين الرمل والطين وممثلا فى الكاسيين فى العراق والهكسوس فى مصر . وكما سقطت دولة بابل للكاسيين ، سقطت مصر للهكسوس . فكان هذا أول غزو أجنبى لمصر القديمة ، واستمر نحو قرن ونصف قرن ..

غير أن الملاحظ أن احتلال الهكسوس لم يسيطر الا على جزء محدود من أرض مصر ، ولم يكن فى حقيقته أكثر من جملة اعتراضية فى تاريخ الامبراطورية ، بينما أودى نظيره فى العراق بالوحدة السياسية وادى الى تفكك خطير . كذلك أكدت موجة الهكسوس ربما لأول مرة أن الدفاع عن مصر يبدأ فى سوريا . وبالفعل فقد تركزوا بعد طردهم فى جنوب فلسطين كقاعدة لاعادة الزحف ، فكان على التحرير المصرى أن يتعقبهم اليها حيث كانت معركة شاروهن هى النهاية (١)

وامتدادا لنفس هذا المنطق ، انطلقت مصر بعد قليل فى نفس الاتجاه ، لتبدأ الدورة القمية فى التوسع المصرى فى القرن ١٥ ق. م. ذلك كان عصر الامبراطورية بامتياز حين اكتسح تحتمس الثالث فى سلسلة من الحملات اتحاد امارات الشام الذى جمع بضع مئات من الامارات الضئيلة فى معركة مجدو ــ أرمجدون التاريخ القديم .

---

(١) احمد فخرى ، ص ٩٣

ثم استمر المد المصرى حتى عبر نهر الفرات ووصل الى تخوم الاناضول ، كما سيطر على كل سواحل وجزر شرق البحر المتوسط . ولقد كانت هذه أول — وآخر — مرة تخضع مصر فيها أجزاء من أطراف العراق والميتانى فى التاريخ القديم

وستظل مصر بعد هذا الى حين القوة الكبرى فى المنطقة ، وستصمد لضغوط من نوع جديد يهددها لأول مرة ويمكن ان يعد النقيض المباشر لخطر الهكسوس : أولئك كانوا قراصنة البر ، وهؤلاء الان قراصنة البحر . ففى القرن ١٢ ق . م كانت موجات « شعوب البحر » الشهيرة التى اندفعت مهاجرة من سواحل البحر المتوسط الشمالية لتنقض على سواحله الجنوبية وأصابت شمال افريقيا وسوريا من بين ما أصابت . غير أن موجاتها تكسرت على سواحل مصر حيث أعطتهم هزيمتين على التوالى برا وبحرا (١) . ولعلنا ان نعد هذا أول تطلع لقوى البحر الاوربية الى مصر ، وسيكون سابقة ومؤشرا هاما الى المستقبل

غير أن دورة انكماشية بدأت تحل ، وبين ذبذبات القوة والضعف فقدت مصر امبراطوريتها الآسيوية بالتدريج . فرغم معركة جديدة على أرض الشام هى قادش ، بدأت أطراف سوريا تضيع على يد قوة خيتا فى آسيا الصغرى، ثم ما لبثت أن دخلت طورا شاذا ، ولا نقول غير مفهوم ، حين سقطت للغزو الليبى (شيشنق) ثم للغزو الاتيوبى ممثلا فى مملكة نباتا فى شمال السودان (طهراقه) . واذا كانت هذه ثانى مرة تخضع مصر فيها للغزو الاجنبى منذ الهكسوس ، فقد كان الهكسوس غرباء تماما عن المنطقة كلها ، اما هذه فأول مرة تخضع فيها لجيران

(١) J. H. Breasted, A History of Egypt, Lond., 1935

محليين مباشرة ومن وزن ضئيل نسبيا وكانوا تابعين لمصر غالبا ـ النوبة مثلا لم تكن أكثر من « محجر » لمصر (١) . على أن هذا الشذوذ قد يفسره أن الغزو الليبى تم على أيدى سلالة شعوب البحر ، وأن الغزو الاتيوبى تم على أيد مصرية مهاجرة . بل لقد استعاد الحكم الاخير فلسطين بعد أن كانت مصر قد فقدت امبراطوريتها الآسيوية . ومع ذلك فقد كانت تلك علامات النهاية لعصر الامبراطورية

فعلى الضلع الآخر من مثلث القوة فى الشرق القديم ، كانت آشور قد وحدت العراق وخرجت لبناء الامبراطورية حيث استولت على كثير من سوريا وتقدمت لتقف وجها لوجه أمام مصر فى القرن ٧ ق . م . وبين هجوم آسر حدون أولا وانتصار آشور بانيبال ثانيا ، كانت تلك أول مواجهة بين مصر والعراق تسقط فيها الاولى ، وبينما لم تسيطر مصر الا على تخوم جزئية للعراق ، وقعت مصر برمتها له الان . بيد أن السيطرة الاشورية جاءت قصيرة العمر ، اذ لم تلبث آشور نفسها أن سقطت لبابل ، ولم تلبث بابل بدورها أن سقطت لفارس فى القرن التالى (٢)

ولعل هذه كانت الفرصة الاخيرة لدورة توسعية أو شبه ذلك فى مصر . فقد شهد القرن ٧ ق . م محاولة قوة أخيرة حين خرج نخاو بمحاولاته البحرية : مشروع قناة البحرين ، وبعثة الدوران حول افريقيا بحرا . غير أن المشروع الاول لم يتحقق ـ ومن الغريب لأسباب سوف تتردد فيما بعد فى تاريخ مصر الحديث ، وهى الخوف من أن تضر القناة بأمن مصر استراتيجيا . كذلك

---

(١) Myres, p.79

(٢) G. Maspéro, The Struggle of Nations

فان المشروع الثانى وان تحقق الا انه اعتمد على الملاحين الفينيقيين ، أى أنه كان على مصر كقوة بر أكثر منها قوة بحر وان جمعت نسبيا بين الصفتين ، كان عليهـا أن تستعير خدمات قوة أكثر بحرية (١) . وعموما ، فاذا كانت مصر قد استطاعت أن تحتفظ باستقلال خطر حتى ذلك الوقت ، فان بداية النهاية كانت واضحة ، وقريبا تبدأ قصة أطول مستعمرة عمرا ..

أطول مستعمرة عمرا

وقد ظل هذا النمط الجيوستراتيجى قائما مع تعديلات طفيفة وتوازنات مؤقتة حتى نهاية التـاريخ الفرعونى تقريبا . ولكنه بدأ يتفتت منذ قورش وقمبيز ، حتى انهار نهائيا على يد الاسكندر . ومنذئذ ازمن الاستعمار الاجنبى والسيطرة الخارجيـة فى مصر . اى أن مصر فقدت استقلالها نهائيا قبل الميلاد بقرون وقرون ، حتى لقد عد البعض نحـوا من ٤٠ أمة سيطرت عليهـا فى تاريخها كله ، وحتى قال عنها بعض السطحيين فى يأس وتخاذل « وهى لمن غلب » (٢) .. وبغض النظر مؤقتا عن هذه النظرة الانهزامية ، فكيف حدث هذا الانقلاب ولماذا ؟

من الصعب أن نجد تفسيرا لهذا فى تغييرات داخلية فى الموضع نفسه أو فى الموقع الخارجى ، ولكن من السهل أن نتقصاه فى تغييرات خارجية فى العلاقة النسبية بين الموضع وبين الموقع . لقد ظلت موارد مصر وانتاجيتها وطاقتها البشرية ، بالقوة ان لم يكن بالفعل ، عاملا ثابتا أساسا فى المعادلة وذلك باعتبارها وظيفة دائمة للرى

---

(١) فخرى ، ص ٩٨ — ٩٩
(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ص ٢٩٢

الحوضى . صحيح أنها كانت تتعرض لذبذبات خطيرة أو طفيفة اما بعوامل طبيعية كالفيضان أو بشرية كسوء الادارة وضبط النهر ، ولكن مثل هذه الذبذبات ليست حادثة طارئة بل هى كامنة فى نظام البيئة الفيضية

أما الموقع فقد ظل هو قلب العالم المعمور المتوسع ـ على الاقل حتى كان كشف الرأس . أما قبل هذا الكشف فكل ما حدث هو توسع المعمور الى آفاق جديدة مترامية لم تفعل سوى أن أكدت خطورة موقع مصر وزادت من توسطها وجعلتها ركن الزاوية بحق بين عوالم وقارات « جديدة » أكثر منها مجرد نواة فى حلقة أو دائرة مغلقة. بل ان الابعاد الحقيقية والشخصية الكامنة لموقع مصر لم تكتمل وتبرز فى الحقيقة الا بعد هذا التوسع فى العالم المعمور . فمن قبل لم تكن الى حد بعيد أكثر من مجرد رقعة غنية ـ موضع أثير ـ بين مجموعة من المواضع الفقيرة ..

ولكنها الان أصبحت موقعا فذا بصرف النظر عن ثروته أو غناه : لقد أصبحت « مفتاحا جغرافيا » لكل الابواب ـ ابواب الشرق والغرب ، الهند وروما ، وأبواب البر والبحر ، فارس واليونان ... الخ . ولم تعد معادلة الصراع بين الرمل والطين تكفى لتفسير التاريخ المقبل ، بل قد طغت عليها معادلة جديدة ظهرت مع توسع المعمور

وهى صراع البر والبحر . وقد كان من الممكن نظريا أن تطفر الامبراطورية المصرية القديمة مع هـذه الطفرة الجغرافية الى امبراطورية عالمية من مقياس يزرى بما عرفته من قبل ، وذلك بحسبانها تملك الان الموقع المفتاح الجديد الى جانب الموضع الغنى القديم . ولكن العكس هو الذى حدث فعلا : لقد فقدت مصر استقلالها عنـد أول لقاء بين أو مع القوى الجديدة . فلماذا ؟

لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة ، مواضع اغنى ، وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصرى . وفى صراعاتها فيما بينها أو فيما بينها وبين القوى القديمة وجدت هذه القوى ان المفتاح يرقد دائما فى أرض الزاوية تلك — مصر . ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة . ونظرا لان وزن موضعها لم يعد يسعفها ازاء هذه القوى الاكبر جرما ، فقد وقعت مصر فريسة لها . بمعنى آخر ، ان الانقلاب الذى حدث فى مصير مصر هو أن خطر موقعها زاد كثيرا عن قوة موضعها : لقد تخلف الموضع عن الموقع ولم يواكب تطوره ، ولم تعد امكانيات الاول التقليدية ترقى الى متطلبات الثانى الباهظة

استراتيجية المستعمرة

وكما حللنا مراحل ودورات استراتيجية مصر امبراطورية ، فلنقف هنا بشىء من تفصيل عند مراحل استراتيجيتها مستعمرة . رأينا فى عصر الامبراطورية أن مواقع القوة العالمية القديمة كانت محددة بصرامة بين مثلث مصر — العراق — آسيا الصغرى . ولكن عصر المستعمرة بدأ حين أصبحت مراكز وزمام القوة فى الشرق الاوسط تقع خارجه . وسنلاحظ أن هذه المراكز الجديدة ستقع أولا على تخوم المنطقة أو قربها ، ثم تتباعد عنها بالتدريج وباستمرار حتى وقتنا هذا . وسوف يترتب على هذا أن مصر ستقع منذ الان فى أيدى قوى لم يسبق ولن يحدث أن تقع هى يوما فى يد مصر . أى أن علاقة التبعية ستكون منذ الان من جانب واحد للأسف ، وليست متبادلة بين الجانبين كما كان الغالب فى الماضى

ومع هذا التطور تحدد التغيير الجذرى فى موقع مصر الاستراتيجى — كما فى موقع الشرق الاوسط كله — فى

معادلة أساسية ، وهى انه تحول من « قوة قطبية » اى قوة مركزية فى ذاتها تحصر بينها مناطق نفوذ وقوى تابعة ، الى « قوة بينية » أى منطقة تابعة محصورة بين قوى قطبية جديدة . وفى هذا الموقف الجديد أصبحت بالضرورة « جبهة ارتطام أو تصادم » بين تلك القوى القطبية الجديدة . واذا كان الصراع بين الرمل والطين هو النغمة السائدة فى عصر الامبراطورية ، فان الصراع بين البر والبحر هو الذى سوف يسود فى عصر المستعمرة . .

غير أن مصائر مصر ستختلف فى جوانب عن مصائر نظير قديم كالعراق . فالجانب البحرى فى مصر أوضح منه فى العراق وان جمعت بينهما الطبيعة الأمفيبية بدرجة أو بأخرى . فبحكم موقعها قريبا من قلب العالم الاسيوى وبعيدا عن أوربا البحرية ، كانت العراق اكثر تعرضا من مصر لأخطار قوى البر ، بينما قل أن تمتد ذراع القوى البحرية اليها . اما مصر فان موقعها على ناصية القارتين بعد بها عن قلب آسيا وقواه البرية ، ونأى بها كذلك عن أعماق افريقيا

لذلك فكثيرا ما سنجد متتالية جيوبولتيكية تكاد تتكرر كالقانون ، وتتلخص فى أن موجات القوى الاسيوية التى تستهدف المنطقة ، غالبا ما تكتسح العراق ، ولكنها لا تنتزع الا نصف سوريا الشمالى ، بينما قل أن تتقدم الى مصر . فها هنا عمق استراتيجى واضح لمصر بالنسبة الى أخطار قوى البر . ولكن هذا من الناحية الاخرى وفى نفس الوقت جعلها هدفا فى متناول قوى البحر من الغرب . وجزء طويل من تاريخ مصر كمستعمرة يرتبط بالاستعمار البحرى ، لعله أطول من ارتباطاتها بالقوى البرية ، وهو أطول بالتاكيد من نظيره فى العراق مثلا

فى ضوء هــذه الضوابط الاساسية ، يمكن الآن أن نستقرىء مراحل مصر مستعمرة . فى القرن ٧ ق . م كان البدء : فمن زوايا مثلث القوة القديم ، انتقلت القوة الى قطبين جديدين هما فارس واليونان اللتين لم ترثا القوة فحسب من العراق ومصر ، بل وعلى أيديهما تعلمتا الحضارة ، كل على الترتيب . وقد كانت اليد العليا فى البـداية لقـوة البر فارس التى اكتسحت ـ على يد قورش ـ بابل فى العراق وليديا فى آسيا الصغرى ثم سوريا قاصدة مصر . غير أنها لم تنلها الا على يد قمبيز فى القرن الخامس ق . م ، لتمتد سيطرتها عليها نحو قرنين . وهنا لا بد أن نلاحظ أن هذه أول مرة فى التاريخ تسيطر فيها فارس على مصر ، بينما أن مصر لم تسيطر على فارس من قبل أو من بعد . كذلك فان هذه الغزوة تذكرنا فى مداها وامتدادها وربما فى مصدرها بموجة الهكسوس الى حد كبير

غير أن ميزان القوى كان ينتظر انقلابا جاسما لمصلحة قوة البحر : لقد ظهر الاسكندر ، وعلى يديه انكسرت قوة البر فارس لترثها اليونان البحرية كالقوة العالميـة الاولى . ومنذ فشل أول هجوم بحرى على مصر أيام شعوب البحر ، تبدأ مع اليونان الف سنة من سيطرة قوة البحر على مصر ، ابتــداء من الاغريق فى القرن ٣ ق . م عبر البطالمة الى نهاية الرومان فى القرن السابع الميلادى ، وذلك بعد أن ورثت روما اليونان واستقطب صراع الســيادة العالميــة بين روما (= الجبـارة) وفارس (= المخربون) . كل هذا بينما ـ للمقارنة ـ لم تدم السيطرة الاغريقية على العراق بعد الإســكندر الا قليلا عادت بعدها الى سيطرة فارس البرية . وهذا الاستعمار البحرى الالفى يدل على مدى خطورة البعد

مع العرب ـ التى لم تكن إكثر من جيب فارغ على هامش حلبة صراع القوى التقليدية ـ تبدأ مرحلة جديدة لها وضعها الخاص فى أكثر من معنى . فالفتح العربى بدأ كقوة برية : لقد رجحت من جديد كفة البر على البحر فى الميزان . ولكن العرب اذ ورثت مصر عن روما ، فان هذا لا يعد استبدال استعمار باستعمار ـ برى أو بحرى لا يهم ـ بل لقد جاءت الامبراطورية الاسلامية العربية أساسا « امبراطورية تحريرية » كما قد نقول، بل وسرعان ماهاجرت نواة السلطة السياسية فيها من موطنها الاصلى وتنقلت بحرية بين أقاليم الدولة المختلفة كما لو كانت تؤلف فيما بينها شركة مساهمة أو « كومونولث » لعله الاول من نوعه فى التاريخ . وفى ظل هذا الوضع الخاص جدا ، كانت الاقاليم تخضع لبعضها البعض بالتناوب وعلى التعاقب بلا عقد أو صراعات ..

وعلى هذا الاساس ، وهذا الاساس وحده ، كانت مصر أيام الأموية تابعة لسوريا لأول مرة فى تاريخهما ، كما صارت تابعة أيام العباسية للعراق وذلك للمرة الثانية بعد آشور . وعلى هذا الاساس وحده أيضا نفهم ظاهرة ملحة ربما بدت بغيره متناقضة غير مفهومة .

فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالا فى العصور الوسطى لامبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيرا ما سنجابه بها تتحرك فى الميدان الدولى كقوة لها وزنها الخاص ولا ينقصها الحكم الذاتى . أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة ـ دولة داخل الدولة

كما قد نقول ــ وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة . ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسالة السيادة أو التبعية فى تاريخ مصر الاسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ فى الحكم

من هنا نفهم كيف توالت على مصر سلسلة من الأسرات الحاكمة أو الدول المستقلة فعلا التابعة للعباسية اسما ، كالطولونية والاخشيدية ، كما نفهم كيف استقلت مصر الفاطمية وعاودت التوسع الاقليمى فى مجالها الاسيوى التقليدى ، وهى التى فتحت من المغرب .. ومثل هذا قد يقال عن المراحل التالية من أيوبية ومملوكية . فقد كان الحكم يستورد أو يفرض أجنبيا من الخارج ، ولكنه لا يلبث أن يؤلف دولة مصرية مستقلة ان لم يكن امبراطورية صغيرة أحيانا، دون أن تتحول مصر بالضرورة الى تابع سياسى للبلد الذى اتى منه ذلك الحكم . فابتداء من الفاطمية الى الايوبية حتى المملوكية ، كان نفوذ مصر السياسى والاستراتيجى يشمل الشام كله أو جنوبه الفلسطينى ، كما كان يمتد بدرجات متفاوتة الى النصف الغربى من الجزيرة العربية بحجازه واليمن ، وهذا بعد جديد لمجال النفوذ المصرى لم يكن يعرفه قبل العصر الاسلامى

بل ان مصر لعبت فى تلك المرحلة دورا قميا فريدا فى كل تاريخها يكشف عن جوهر ومكنون شخصيتها الاستراتيجية كاملة ربما أكثر من أى وقت مضى أو تلا ، وذلك بغض النظر عن شكلية التبعية أو الاستقلال . بل ان فصلا من أروع فصول هذا الدور لعبته مصر تحت زعامة كانت تخضع أصلا لاحدى أتابكيات شمال

الشـــام ؛ وبالتالى لتبعها ولو مؤقتا من حيث الشكل البحت ، ونعنى بذلك قدوم صلاح الدين الى مصر كعامل فى البداية لنور الدين (١) !

والاشارة هنا بطبيعة الحال الى الصليبيات والمغوليات واذا قلنا الصليبيات والمغوليات فقد قلنا ــ استراتيجيا ــ قوى البحر والبر مباشرة . واذا كان الخطر الصليبى اسبق الاثنين ، فقد تعاصرا جزئيا ، بل كادا أن يتعاونا على هذا الاساس ، وبهذا وجد الشرق العربى نفســه تماما ازاء استراتيجية الكماشة او الرحى

وهنا يتحــدد موقع ودور مصر المحورى فى تحطيم القوتين على حد سواء . فقد نجحت الصليبيات فى أن تنتزع موطىء قدم لها فى الشام الساحلى بضعفه وتفككه التقليدى ، بل وحاولت منه أكثر من مرة أن تغزو مصر برا . دون جدوى ، فيما عدا أنها أكدت مرة أخرى أن الدفاع عن مصر انما يبدأ فى الشام . وعندها تقدمت مصر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر لتسجل حطين صلاح الدين التى ستكون بداية النهاية وأرما ــ جدون الصليبيات ، بل وغير بعيد بالفعل عن موقع مجدو تحتمس

هنالك أدركت الصليبيات أن مركز ثقل القوة فى كل المنطقة يرقد فى مصر ، والى مصر اتجهت من ثم بطريق جديد هو الغزو البحرى المباشر ، فكانت حملتــاها الفاشلتان فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ، حيث أبيدتا بالضربة القاضية فى برارى وسهول الدلتا بعد أن اغرقتا فى بيئتها الاسفنجية المشبعة . وعادت الشام من جديد أرض المعركة ، وتقدمت مصر المملوكية

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية الخ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥

الى اقصى شمال الشام حتى تخوم الاناضول وأرمينيا والفرات ، ولتسحق الصليبيات نهائيا مع نهاية القرن على يد بيبرس . وهكذا كانت مصر حجر الزاوية فى صد القوى البحرية

وهكذا ايضا كانت بالنسبة لخطر فرسان الاستبس برابرة الوثنية . فمنذ القرن الحادى عشر بدأ وسط آسيا يلفظ بأعاصيره البشرية الحطمة التى أشاعت الخراب فى كل غرب القارة . فمن قبل اكتسح السلاجقة العراق وسوريا ، ولكن أنفاسهم تقطعت دون مصر . ولكن القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا عصر المغوليات الوثنية الرهيبة حقا ، وذلك فى وقت كان الشرق الاسلامى يواجه على جبهته الغربية الغزو الصليبى . فشهد القرن الثالث عشر موجة جنكيزخان ثم هولاكو التى ختمت على مصير العراق الى الابد ثم اكتسحت شمال سوريا فى طريقها الى الهدف الاكبر والاخير دائما ـ مصر

واذا كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال حينذاك بعد حطين ، فانها كانت لا تزال تستوعب كل المقاومة المصرية . ومع ذلك فقد تقدمت مصر المملوكية تحت قطز لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية التى حددت ـ بلا مغالاة ـ مصير الاسلام جميعا . وبعدها وصلوا فى مطاردة فلولهم الى الفرات الذى حدد بذلك مجال نفوذ مصر الجديد ودورتها التوسعية النادرة . ولكن الموجة الثالثة عادت مع تيمورلنك فى القرن الرابع عشر لتكتسح العراق وشمال سوريا حتى دمشق ، ولكنها تعجز دون جنوبها اذ تتكسر على صخرة المقاومة المصرية مرة أخرى

وهنا لا بد من وقفة تحليل وتأمل . فأولا ، لقد جاء انتصار عين جالوت تاريخيا بين قوسين من الانتصار

على الصليبيات ، أعنى بين حطين وعكا ، أى أن مصر الامفيبية حاربت بنجاح وفى وقت واحد ضد قوى البر والبحر . ثانيا ، سنرى أن المتتاليـة الاستراتيجيـة التقليدية تتكرر هنا بحذافيرها : أغلب غارات الاستبس تصل دائما الى العراق الذى يكاد يتاخمه ، وقد تصل أحيانا الى الشام ، ولكنها لا تصل اطلاقا أو بالكاد الى مصر ـ ربما بحكم المسافة المتزايدة ولكن قطعا كرد فعل للقـوة البشرية . ثالثـا ، نرى بوضوح أن سـوريا استراتيجيا جسر برى الى مصر ، على كل من يبغيها أن يعبره ، حتى بعض الصليبيات أتت عن طريق بيزنطة قاصدة مصر عبر سوريا . من هنا نجد كل المعـارك المصرية الدفاعية أو الهجومية تتم على أرض الشام ، وبالأخص جنوبه الفلسطينى

ذلك اذن دور مصر الاستراتيجى فى مرحلة لم تكن مستقلة ـ فى جزء منها ـ شكلا على الأقل . وهو ان دل على شىء فانما يدل على أن الاسـتقلال أو التبعية الشكلية لم تطمس شخصية مصر الاستراتيجية وثقلها المحورى فى المنطقة . بل انه ليدل على أن مصر فى غضون عصرها الطويل كمستعمرة لم تعدم دورات توسـعية لا تقل طموحا وقوة عما عرفت فى أروع مراحل عصرها الامبراطورى الغـابر . لقد كانت القـاعدة الارضـية ـ البشرية ، والجغرافيـة ـ الاستراتيجية ، تؤكد وجودها وتفرض ثقلها ومغناطيسيتها وتشع جاذبيتها ، بصرف النظر عن القشرة الحاكمة أو القيادة العابرة التى قد تذهب وتجىء ، من الخـارج أو الداخـل . انه التناقض ـ الطبيعى احيانا ـ بين الثوابت الجغرافيـة الصلبة والمتغيرات السياسية السطحية

واذا كنا بحاجة الى مزيد من الأدلة ، ففى قصـة

العثمانية نجدها . فآسيا الصغرى التى كانت قاعدة لقوة قطبية هامة فى التاريخ القديم ، لم تستطع قط ان تكون ندا مناظرا او مكافئا لقوة مصر ، ومن هنا كانت كفة مصر الراجحة غالبا فى عملية شد الحبل التاريخية بينهما عبر الجسر السورى ، فكانت لمصر السيطرة على سوريا فى اغلب الاحيان ، والا اقتسمتاها فى بعض الاحيان . غير أن الميزان انقلب بين كفتى مصر وآسيا الصغرى مع العثمانية فى القرن السادس عشر — ربما لأن آسيا الصغرى لم تكن الآن مجرد آسيا الصغرى ، بل تحمل وراءها امبراطورية مترامية فى شرق أوربا ، فى الوقت الذى كانت مصر المملوكية قد فقدت قاعدة أساسية من قواعد اقتصادها وهى تجارة المرور

وكما فعلت مصر من قبل بوعى أستراتيجى تام زحفت لمعركتها الى خط دفاعها الاول جغرافيا وتاريخيا ، فكانت مرج دابق حلب على التخوم بين الاناضول وسوريا . وكأنما جاءت الهزيمة لتؤكد التجربة التاريخية التى تحدد مصير مصر على أرض الشام ، اذ لم تصمد مصر بعدها فى خط دفاعها الاخير فى قلب ارضها فى ريدانية القاهرة . فكانت تلك أول مرة تقع فيها مصر لقوة أستبسية منذ الهكسوس والفرس

ورغم تبعية قرون اربعة — البعض يعدها ثلاثة باعتبار أن تبعية القرن التاسع عشر كانت صورية بحتة — للاستعمار التركى ، فلم تعدم مصر وضعا خاصا فى كثير من الفترات . ففى حدود هذه التبعية كانت لها ملحقاتها فى الحجاز وأحيانا فى الشام . ولكن المثل الدال يأتى فى صورة انتفاضات او انتقاضات جعلتها دولة داخل الدولة ، بل كادت يوما ما وفى معنى ما تجعلها دولة فوق الدولة . . ولقد نقصد بهذا حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر

حيث فُتح الحجاز والشام لحسابه وأنشأ علاقات خارجية بعيدة المدى . غير أن محمد على هو بلا شك المثل الكلاسيكى

معه ـ محمد على ـ تحولت ولاية مصر العثمانية الى امبراطوريه مصرية كاملة تشمل الحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربى والشام والسودان ، وتنشر اسطولها فى البحرين المتوسط والاحمر لتصبح قوه امفيبية حقيقية . ولعلها جمعت بذلك بين أبعاد جغرافية لم تصلها مصر فى أى من عصورها الامبراطورية القديمة. والحقيقة أن ميزان القوة بين دائرة مصر ودائرة آسيا الصغرى كاد ينقلب فى الاتجاه العكسى حين اخترقت مصر محمد على قلب الاناضول وهددت استانبول مباشرة فى وقت ما ـ كل أولئك فى اطار التبعية الشكلى ! ويرى البعض أن موقعتى حمص ونصيبين هما المقابل المضاد لمرج دابق والريدانية تاريخيا واستراتيجيا ، بهما تم الثأر بين الدائرتين الجغرافيتين . (١) واذا كانت هذه الفورة قد انتكست فى النهاية وعاد الاستعمار التركى بكامل ثقله ، فما ذاك الا لأسباب تؤكد الوجود المصرى الاستراتيجى أكثر مما تنفيه وتنقلنا فى نفس الوقت الى المرحلة الختامية فى تاريخ مصر مستعمرة

الاستعمار الحديث

منذ طرد الرومان ، ومع فشل الحملات الصليبية البحرية ، والى أن ظهر الاستعمار الاوربى الحديث ، لم تخضع مصر لقوة بحرية أجنبية أو تتعرض لأخطارها جديا . ولكن مع ظهور الامبراطوريات البحرية الماموث

---

(١) محمود كامل ، القانون الدولى العربى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٥١ ـ ١٥٣

بمصالحها الكوكبية واستعمارها العالمى ، لم يكن مفر من أن تصبح مصر قطب الجاذبيـة فى الاستراتيجيـة البحرية ، ولن تلبث أن تكون أرض معركة فى كل صراع عالمى . حتى قبل القناة ــ قناة السويس ــ ذلك . بل حتى قبل الحملة الفرنسية . فنحن غالبا ما نغفل عن أن الفيلسوف ليبنتز منذ أكثر من قرن قبل نابليون وبالتحديد فى ١٦٧٢ كان يقترح على لويس الرابع عشر أن يضرب الهولنديين الذين رادوا البحار ما بين أوربا والهند فى ذلك الوقت ، وذلك باحتلال مصر (١) ..

ولـكن نابليون أول من وضع هـذه الصيغة موضع التنفيذ ، وكانت الحملة الفرنسية أولى محاولات القوى البحرية للسـيطرة على أرض الزاوية ، التى اعتبرها نابليون أهم موقع استراتيجى فى العالم أجمع حتى قيل من بعده : « قل لى من يسيطر على مصر ، أقل لك من يسيطر على العالم » . ومهما يكن من أمر ، فقد حددت مصر موقع واحدة من كبريات مواقع الصراع البحرى الفاصلة ــ أبو قير . واذا كانت الحملة قد فشلت ، فقد كشفت للغريمة البحرية بريطانيا أن مصر هى « عنق الهند » الذى يمكن أن تخنق منها الامبراطورية ، حتى اذا كانت قناة السويس أصبح عنق الهند فى نظرها هو « شريان الامبراطورية وخط الحياة » فيها

ومن هذا وذاك تحـددت استراتيجية الاسـتعمار البريطانى فى مصر : تحطيم قوتها البشرية والعسكرية أولا ، ثم الاستيلاء عليها ثانيا . ومن المنطلق الاول ، كانت خططها لتحطيم امبراطورية مصر محمد على وتدمير قوتها البحرية الصاعدة واخضـاعها للاستعمار التركى

(١) J. Beaujeu - Garnier, Econ. du Moyen - Orient, 1951,p. 50.

ولاية أو ايالة متقوقعة . ومن المنطلق الثانى ، ناورت لتشارك فى شركة قناة السويس بعد أن حاربتها طويلا ، ثم تقدمت منها وبعدها لتضع يدها على مصر ذاتها

ولا شك أن القناة ، التى اختزلت كل موقع مصر الجغرافى والاستراتيجى او جوهره فى شريط مائى حتى أصبح مرادفا للقناة أو اوشك ، لا شك أنها جددت شباب موقعنا . لكنها كان لا مفر من أن تجعل مصر بوابة دموية استراتيجيا كما قد أصبحت بوابة ذهبية تجاريا . فبالقناة لم يعد موقع مصر أخطر موقع استراتيجى فى العالم العربى وحده ، وانما فى العالم القديم برمته على أرجح الظنون

وكما قال رينان مخاطبا ديلسبس — وان كان هذا هو الاستعمار يخاطب الاستعمار — فقد كان معنى هذا أن القناة قد حددت معركة كبرى للمستقبل (١) . لقد تحول الموقع الي موقعة ! وليس من الصدفة بعد هذا أن تكون مصر أرضا لمعارك حاسمة فى كل من الحربين العظميين الاولى والثانية : فشهدت ضفاف القناة الحملة التركية فى الاولى بينما كانت العلمين نقطة التحول فى مصير الثانية . وكما أثبتت الاولى من جديد أن خط الدفاع الاول عن القناة يبدأ فى فلسطين ، أثبتت الحرب الثانية أن عنق زجاجة القطارة ليس « ترموبيل مصر » فحسب ، ولكنه مفتاح ليبيا كذلك . وقد كانت القاعدة الاستعمارية فى القناة فى وقت ما أعظم واضخم قاعدة عسكرية فى العالم كله

وعند هذا الحد لا بد أن نلاحظ أن الاستعمار أخذ يروج منذ وقت مبكر لفلسفة غريبة كل الغرابة . هذا

---

(١) André Siegfried, Mediterranean, trans., 1948, p. 11

مثلا رينان ــ مرة أخرى ــ يقول عن مصر « ان بلادا لها مثل هذه الاهمية لباقى العالم لا يمكن أن تكون مستقلة تماما من الوجهة السياسية » (١) . واذا كان كاتب حديث مثل اندريه سيجفريد يردد نفس الفكرة ، فيكفينا هنا تعليق جوبليه حيث يصفها بأنها نظرية بالية (٢) . ولكنها لم تكن دائما كذلك ــ حتى بيننا نحن أنفسنا . فمن قبل ، رفض محمد على فكرة شق قناة خشية أن تتحول الى « بوسفور ثانية » كما قال (٣) ، وكما خشى نخاو قبله بأكثر من ٢٥٠٠ سنة ! ومن بعد ، كانت تلك الفكرة الشائعة بيننا حتى اليوم من أن الموقع ــ الذى كان ينبغى أن يكون رأسمال عسكرى لمصر كما قد صار لها رأسمال تجارى ــ جاء نقمة لا نعمة ، وعوانا عليها لا عونا لها

ايمكن حقا أن تكون صحيحة تلك النظرة أو النظرية ؟ من زاوية الامر الواقع ، الواقع التاريخى أعنى ، ليس شك بطبيعة الحال أن موقعنا الجغرافى وقناتنا الاستراتيجية قد اتخذت بالفعل مبررا لتوطن الاستعمار وازمانه . وليس من الصدفة أن تكون مصر ــ باستثناء عدن ــ أول وحدة فى المشرق العربى تخضع للاستعمار الاوربى . بل لا شك أن القناة سهلت على الاستعمار مهمته خارج مصر ، كما فى الهند مثلا حيث قدمت طريقا مباشرا فعالا لاستخدام القوة وكبت المقاومة ، بمثل ما أن هذا التوطيد الذى قدمته القناة لجهاز الاستعمار اتخذ بدوره ذريعة لمزيد من التمسك بمصر

ولا جدال كذلك أن خطورة موقعنا واهميته أخرتا من

---

(١) السابق ص ١٨

(٢) جوبليه ص ١٤٤

(٣) H. L. Hoskins, Middle East, N. Y. 1954, p. 41.

استقلالنا وقدرتنا على التحرر نسبيا ، برغم عظم المقاومة الوطنية فى قلعة وطليعة النضال القومى . ويتضح هذا اذا ما قورنت مصر بالدول العربية المجاورة . فالاستعمار الاوربى الذى بدأ فى مصر ١٨٨٢ ، تأخر فى سوريا والعراق مثلا الى ١٩١٤ ، وبينما نجده يخرج من سوريا فى ١٩٤٥ ، ومن العراق بعد ذلك بقليل ، فانه لم يغادر مصر ــ رغم الاستقلال الاسمى منذ ١٩٢٢ أو الرسمى منذ ١٩٣٦ ــ الا فى ١٩٥٣ . أى انه عمر فى مصر أكثر من ٧٠ عاما ، مقابل ٣٠ عاما فى سوريا وأكثر من ذلك قليلا فى العراق ــ أى ضعف أى منهما ونحو مجموعهما . وحتى بعد ذلك ، فانه لم يخرج من مصر ــ ومصر وحدها ــ الا بعد حرب حقيقية بل حرب مزدوجة . واضح اذن أنه برغم المقاومة البطولية ، فانه بقدر أهمية الموقع بقدر ما كانت شراسة الاستعمار فى التمسك به والاستماتة من أجله

أن الموقع قد جنى علينا كأمر واقع وأغرى بنا الاستعمار والاطماع الامبريالية ، حقيقة تاريخية اذن ولا مناص من الاعتراف بها . بل قد يمكن أن نزعم فى هذا الصدد أن موقع مصر فى العالم الحديث أشبه ــ فى معنى ــ بموقع العراق فى العصور الوسطى ، ان لم يكن حقا هو الذى ورثه . فمن المحتمل أن عراق العصور الوسطى كان يتمتع فى عصره الذهبى بموقع تجارى واستراتيجى من خير ما عرف العالم القديم ، ولكنه كما رأينا دفع ثمن هذا الموقع من صميم مصيره حيث عرضه لأخطار قلب آسيا الرعوية المدمرة وطرقات القوى البرية وقراصنة السهوب . ومنذ العصور الحديثة كانت مصر موقعا من أهم مواقع العالم القديم ، ولكنها بالمثل دفعت ثمنه من استقلالها حيث تكالبت عليها أخطار

القوى البحرية والاستعمار الاوربى الحديث أى قراصنة البحار ..

ذلك كله قد يكون صحيحا ، ولكن يبقى السؤال : اى منطق هذا الذى يجعل من نقطة قوتنا نقطة ضعف ، ومن أكبر رصيد لنا خسارة علينا ؟ أى منطق الا أن يكون منطق الحتم الجغرافى الأعمى ومنطق الاستعمار التبريرى اللاأخلاقى المقلوب الذى يثبت الامر الواقع بالفرض المسبق ex post facto ؟ وحتى من داخل منطق الاستعمار نفسه لم يثبت بالقطع فى الحقيقة أن القناة أو مصر ضرورة لكيان الامبراطورية . ولم يكن بد من طرد الاستعمار (١)

وفى وجه المقاومة المصرية ، حاول الاستعمار المساومة « بالاستقلال الجزئى » الذى يجلو عن الوادى ويحتل القناة . وهى فى الحقيقة مساومة تمزق مصر الى اثنتين : مصر النيل ومصر القناة ، الثانية منهما منفصلة عن مصر النيلوتية انفصال بنما عن كولومبيا ! (٢) وأصر التحرير على أنه لا انفصال ، وبدد خرافة الموقع النقمة كنظرية غيبية قدرية غير علمية ، تنسى أن موقعنا اذا اقترن بطاقة موضعية كفء له لكانت النتيجة عكسية تماما . والحقيقة أننا حين كنا ننادى « القناة لمصر ، وليست مصر للقناة » ، فانما كنا نعنى أن الموقع للموضع وليس العكس ، لأن الموقع صفة بينما الموضع واقع ملموس

ثم يبقى سؤال : هل ارتجت قيمة موقعنا الاستراتيجى أو اهتزت فى الفترة الاخيرة ؟ المحقق أن انحلال النظام

---

(١) ابراهيم صقر ، قناة السويس ، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية الخ ، ص ٢٦٨ وبعدها .

(٢) جوبليه ص ١٤٤

الاستعمارى وتحرر المستعمرات فى العالم الثالث قد قلل من قيمة القناة العسكرية بالنسبة للاستعمار البريطانى خاصة ولقوى الاستعمار البحرى عامة . ولكن العامل الاختزالى الحاسم الذى رج استراتيجية القناة هو لا شك ظهور الاستراتيجية الذرية الكوكبية الجديدة التى هزت فكرة الموقع الجغرافى أصلا وكمبدأ . والمقول أن هذه العوامل كانت — جزئيا — مما عجل بخروج الاستعمار

ومع ذلك فمن الخطأ أن نظن أن استراتيجية المواقع الجغرافية القديمة قد نسخت كلها تماما ، لا سيما أن قد طرأت على الاستراتيجية الذرية ما شلها من الناحية العملية . ومن الأدلة الدالة أن فقد الاستعمار لموقع مصر بالذات جاء كارثة عليه ، لأن من الثابت أن حرب السويس وضعت نهاية الامبراطورية ودفنتها وختمت على مصير الاستعمار القديم الى الابد . ولعل مما له مغزاه أن الاستعمار سعى بعدها الى حلقة قواعد جديدة محيطة بنقطة المركز مصر وكبديل يأخذ جزءا من مغزى ودور القناة الاستراتيجى ، ابتداء من قبرص الى ليبيا الى اسرائيل ، ومن عدن الى البحرين ... الخ . وتظل مصر الموقع المفتاح فى مجال جغرافى كبير وحاسم من العالم القديم .

لا امبراطورية ، ولا مستعمرة ، ولكن حياد ايجابى

وبعد ، فلقد طالت رحلتنا عبر تاريخ مصر السياسى والاستراتيجى لنرى كيف أن عصرنا التوسعى الامبراطورى لم يكن صدفة عشوائية ، وأن وقوعها بعد ذلك ضحية للقوى الاجنبية الاستعمارية لم يكن مجرد

قدر غاشم مقدور . وانما كيان مصر ومصيرها وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قيمتها كموقع وقوتها كموضع: موقع خطير يتطلب لتحقيقه وضمانه موضعا غنيا كفئا ، فاذا ما اجتمعا طفرت مصر كقوة اقليمية كبرى ، اما اذا قصر الثانى عن الاول وقصر دون متطلباته وقعت مصر فريسة اقليميـــة وضحية . بمعنى آخـــر ، ان مكانتنا هى محصلة مكاننا وامكانياتنا على حد سواء . وبصيغة رياضية ، ان معادلة القوة فى مصر هى : القوة = الموقع + الموضع . ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل

وعلى المدى الطويل جدا منذ اكتمل ظهور مصر القديمة مع الأسرات حتى الأمس القريب ، واذا جاز لنا أن نغامر بتحديد اتجاهات تاريخية عامة ، فقد يمكن أن نقول أن موقع مصر على مر العصور كان يزداد أهمية وقيمـــة بصـــفة عامة تقريبيـــة ، وفى نفس الوقت كانت قوة موضعها تتقلص وتتضاءل نسبيا فى العـــالم وان ظلت تزداد وتتضخم فى ذاتها . وهذان الاتجاهان المتعارضان لم يكونا مطردين بالضرورة ولا خلصـــا من انتكاســـات وانعكاسات ، ولكنهما يصدقان جيدا على المدى التاريخى الطويل . وفى النتيجة فان مصر فى الوقت الذى كان موقعها يزداد خطورة وبالتالى اخطارا ، فانها كانت تجد حجمها الداخلى وطاقتها الذاتية تزداد انكماشا وبالتالى ضعفا فى عالم متمدد متضخم باطراد

وكمجرد مؤشر جزئى لا يقطع ولكنه يكفى للتوضيح ، يمكن أن نقارن وزن مصر السكانى فى الاطار العالمى بين العصور القديمة والحديثة . والارقام تقريبية جـــدا بطبيعة الحال ، غير أنها قد تكفى لأغراضنا . فيقـــدر البعض سكان العالم أيام الامبراطورية الرومانية بنحو

۲۰۰ مليون نسمة ، وفى نفس الوقت ربما لم تكن طاقة التشبع السكانى فى مصر لتقل عن ۱۲ مليونا ، بينما تدور تقديرات سكان مصر البطلمية والرومانية بالفعل حوالى العشرة ملايين (۱) . أى أن مصر كانت تمثل ۱/۲۰ من وزن العالم على الاقل . والمقدر بعد ذلك ان سكان العالم فى ١٦٥٠ بلغوا ٥٠٠ مليون (۲) فى الوقت الذى لم تزدد مصر سواء بالقوة أو بالفعل ، ان لم تتناقص حقا . أى أن نسبتها على أحسن الفروض هوت الى ۱/٥٠ من العالم . واليوم اذ تعد مصر ۳۰ مليونا فى عالم يبلغ ۳۳۰۰ مليون فان النسبة لم تعد ترقى بالكاد الى ۱/۱۰۰

دلالة واضحة ، وقصة مألوفة . مصر نمت فعلا فى ذاتها حجما وقوة ، ولكن العالم من حولها نما وتضخم بسرعة ومعدل أسرع وأعظم بكثير . سبق تاريخى مبكر الى القوة لا يلبث أن يضيع فى زحمة التطور التاريخى ، ولا أمل فى استعادته تماما وان أمكن استرجاع جزء منه بالتأكيد . . ومصر اليوم أقوى وأضخم فى ذاتها منها فى أى وقت مضى ، ولكنها فى الماضى كانت قوة كبرى فى العالم ، الا أنها الان قوة متوسطة أو فوق متوسطة . وهى مكانة مشرفة وكريمة بما فيه الكفاية ، ولكنها لا تعنى على الاطلاق التبعية أو الضعف الذى أراد الاستعمار الحديث أن يفرضهما عليها

ولعل هذا تماما هو الدرس الذى يعلمه تاريخنا ، والذى يبدو جليا اننا نطبقه الآن بالفعل . فأولا ، منذ اللحظة التى تضاعفت فيها قيمة وخطورة الموقع بدأ الموضع تتضاعف قوته لحسن الحظ ، وذلك منذ

---

(۱) Walek - Czernecki, loc cit., p. 8

(۲) A. Carr - Saunders, World Population, Lond., 1936

انقلاب الرى الدائم . فقد جاء هذا كتكثيف للقاعدة الارضية والبشرية المصرية بكل ما يعنى ذلك من مضاعفة للانتاج وعدد سكان ومستوى المعيشة والتكنولوجيا ولا وجه للمقارنة مطلقا بين مصر الاقتصادية والعمرانية الوسيطة والمعاصرة ، بين الرى الحوضى والرى الدائم ، وبين حضارة يدوية وحضارة الآلة . ان « أرضية » العصر الحديث أعلى على الاطلاق والنسبة من « سقف » العصور الوسطى

ويمكن أن تدخل تحت هذا الباب كل الثورة المعاصرة الصناعية والاجتماعية والعلمية، فكل عناصرها مضاعفات للطاقة المادية لقاعدتنا الارضية ـ للموضع . وللمرة الاولى فى التاريخ لا يصبح الموضع حقيقة جغرافية مطلقة من معطيات الطبيعة : لقد أصبح العلم عاملا جغرافيا واقتصاديا كما هو عامل سياسى يمكن أن يعيد خلق الموضع شكلا ووزنا ووقعا ، ولأول مرة أيضا يصبح الاستقلال حقيقة مثلثة : ليس سياسيا هو فحسب ، وليس اقتصاديا بعد ذلك ، وانما هو علمى فى النهاية . ان ثورة البيئة فى مصر الحديثة تؤكد ما يقوله ساور من أن الموارد الطبيعية فى حقيقتها تقييمات حضارية ، هذا أولا ...

ثانيا ، لقد ملكنا موقعنا لأول مرة منذ الاسكندر حين استعدنا القناة ، وقد أصبح من أولى مفردات الثقافة القومية عند تلاميذ المدارس اليوم أن الدفاع عن القناة يبدأ فى فلسطين على الأقل . وبوعى جغرافى لا شك فيه انطلقت مصر الثورة تشترى الموضع بالموقع فجعلت كل عوائد القناة رأسمالها للسد العالى الذى سيخلق T.V.A. مكبرا على النيل ويحدث بذلك ثورة جديدة فى الموضع ، وليس من الصدفة اننا لم نستطع أن نسترد القناة الا

بعد أن كانت كفاءة القاعدة البشرية قد زادت وتطورت .
ان مصر المستقلة لم تبدأ الا منذ ارتفع فيها الموضع الى مستوى الموقع. وعليها دائما أن تعمق موضعها وتكثفه لكي يظل كفئا لموقعها الحاسم

وثمة ، ثالثا ، درس آخر هو أن مصر التى بدات قوة بر اساسا بحكم الموضع ، لم تلبث بحكم الموقع ان أصبحت قوة بحر أيضا ، وان يكن فى المحل الثانى،وصارت بذلك قوة امفيبية فى الحقيقة . حقا لقد كان نداء البحر دائما أضعف من جاذبية القاعدة الزراعية الخصبة مما جعل المصريين تقليديا شعبا غير مهاجر ومرتبطا عاطفيا ببيته وبيئته ، شعبا من الفلاحين لا الملاحين . ولكن الموقع الحساس فرض عليهم مع ذلك أن ينزلوا الى الماء كرواد شواطىء وخفر سواحل ان لم يكن كمعمرين ورعاة للبحر . وقد اثبت ماسبيرو وغيره أن نظرية تحاشى المصريين للبحر تحتاج الى تعديل كبير . وقد تأكد هذا الدور فى رحلات الكشف والتجارة حول افريقيا أيام الفراعنة ، ثم فى مساهمة مصر العربية فى « ذات الصوارى » وما تلاها من معارك بحرية حتى « ديو » و « نفارين »

وهنا سنلاحظ أن مصر الامفيبية كانت الى ما قبل السويس تعانى دائما من ازدواج الساحل مع انفصاله بحيث كان أسطولها فى كل من الساحلين منفصلا عن الآخر : ولا يمكن تحويله اليه ، الا ـ نظريا ـ ! بالدوران حول القارة ، تماما كما كان على روسيا القيصرية أن تدور حول الرأس لتنقل أسطولها من البلطيق الى الهادى أو كفرنسا حول ايبيريا .. والان حولت السويس مصر عسكريا من دولة ساحلين الى دولة ساحل واحد واصبح لها مرونة المناورة وذلك بمثل ما فعلت قناة بنما بالنسبة

للاسطول الامريكى

رابعا واخيرا ، يعنى هذا الوضع الأمفيبى أيضا أن مصر قوة ارتطامية ، تتوسط منطقة تصادم حساسة بين قوى البر والبحر ، أو فلنقل الآن قوى الشرق والغرب . وهذا ما يفرض عليها أن تستقل عن أى منهما ، ولهذا فان مصر التى وعت درس التاريخ قد ادركت أنها ، منذ تخلف موضعها عن موقعها وقصر ، قد أصبحت مخلوقة للحياد . ولم يكن غريبا بعد ذلك أن رسالة الحياد — ولكن الايجابى — انما تنشأ فى مصر ومن مصر تنتشر . لقد أصبحت المبادىء ، لا المصالح ، هى بوصلة مصر وسلاحها الذى يحقق شخصيتها الكامنة مثلما يعبر عنها ..

واذا كان العالم المعاصر قد انقسم منذ الحرب الثانية الى مفسكرين كتلتين ، كل منهما أو على الاقل أحدهما ، يصر على أن يفرض هذا التصنيف أو التنصيف على بقية العالم ، فالحقيقة أن مصر باصرارها المقتدر على الا تنحاز أو تبتلع أو تتبع ، قد أثبتت أن العالم ليس نصفى كرة بل مثلث ، وأن أبعاد العالم السياسية ليست اثنين وانما ثلاثة : شرق وغرب وعدم انحياز . ومن المهم أن ندرك خطورة ومغزى هذه الطفرة فى استراتيجية السياسة العالمية ، اذ أنها ارتبطت كما ارتبطت سابقتاها بثورة تفتتحها وترمز اليها وتلخص أيديولوجيتها . ويمكننا أن نختزل جوهر الثورات الكبرى الثلاث فى تاريخنا الحديث كالآتى :

الثورة الفرنسية = قومية + استعمارية
الثورة الروسية = لا قومية + لا استعمارية
الثورة المصرية = قومية + لا استعمارية

فأصالة الثورة المصرية سياسيا وعالميا واضحة تماما

كثورة تحررية أساسا ، ولم يكن بد لذلك من عـدم الانحياز . من هنا خاضت مصر الحديثة ـ مصر الثورة ـ معركة كبرى لتفرض عدم الانحياز ، وبفضل قوتها المستمدة من موقعها وموضعها كانت سباقة وزعيمة فى هذا الخط الثالث وبين العالم الثالث . ولا يستطيع منصف أن ينكر أن مصر تلعب اليوم دورا عالميا شبه قيادى شبه محورى ، أكبر من كل تصور تقليدى ، وأكبر على الأرجح من جرمها المحلى الذاتى ، وأكبر بالتأكيد من كثير من قوى أوربية أبعد تحضرا وتطورا

بل قد تدرك الاجيال القادمة ، أكثر مما نستطيع نحن أن ندرك ، أن مدرسة الحياد الايجابى وعـدم الانحياز التى ساهمت مصر فى تأصـيلها وقيادتها قد أنقذت العالم من قبل من حربه العالمية الثالثة والذرية الاولى . فليس من العسير علينا أن نتصور ، لو أن مصر الخمسينات رضخت ومعها الشرق العربى للضغوط الاستعمارية وانحازت الى الاحلاف العسكرية الغربية ، كم كانت تتضاعف احتمالات الصدام بين المعسكرين فى مرحلة حبلى بالعداوات والتوتر . ان مصر لا نقول قد أصبحت « جيروسكوب » سياسيا يمنع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتلى ، ولكنها بثقلها الذاتى وبقيادتها المؤثرة فى مجموعة عدم الانحياز قد ساهمت فى خلق مثل هذا الجيروسكوب

الفصل الخامس

من السبق الحضارى إلى التخلف

العزلة والاحتكاك

قضية العزلة

كثيرون ممن كتبوا عن مصر يضغطون على العزلة كملمح أساسي فى شخصيتها وتاريخها ، وانها بصورة او بأخرى عالم كامل وحده قائم بذاته وربما مكتف بذاته ان لم يكن مستغرقا فى ذاته . هكذا مثلا يقول جان درش (١) ، وغيره كثيرون ، بينما يتكلم مايرز عن مصر «كاقليم معزول بدرجة غير عادية وذى تركيب خاص»(٢) هذا بينما أولى الأوليات التى لا تحتاج الى تكرار وان تحملته دائما أن موقعها من العالم هو موقع القلب من الجسم أو العاصمة من الدولة ، وأنها حجر الزاوية وأرض الركن ، مجمع القارات ومفرق البحار ، وملقى الشرق والغرب ... الخ

وبديهى أن هناك تعارضا ما بين الحقيقتين . ولكنه فى الحقيقة تعارض على السطح . ويعبر جوبليه بنفاذ ثاقب عن هذا التعارض فيقول : «وعزلة مصر المفترضة،

(١) P. Birot; Jean Dresch, La Méditérrannée et le Moyen- Orient, 1956, t. II.

(٢) مايرز ص ٨٣

تلك التى تعرف عليهـا المؤرخون القـدامى بل حتى المحدثون ، لم تكن قط أكثر من ظاهرية ، لان البلد من أقدم العصور كان له علاقاته الدائمة مع جيرانه » (١) ومثله يؤكد كون : « أبدا لم تكن مصر معزولة حقا » (٢)

ونحن حين نعترف كجغرافيين ببعض عزلة لمصر خفيفة لا نقصد أكثر من ذلك ، لا نقصد عزلة « رهبنة » ولكن عزلة حمـــاية . فلم تكن مصر قط « دولة رهبنـــة hermit State » وانما « دولة طريق route State » كما يعبر جوبليه مرة ثانية . فمصر تكاد تنفرد بأنهـا تجمع فى تناسب نادر بين قدر من عزلة فى غير تقوقع ، وبين قدر من احتكاك لا يصل الى حد التميع . وبهذه المعادلة الدقيقة تحتفظ بكيان وشخصية متميزة قوية . ومرة أخرى نرى اصل هذه الخاصية يكمن فى الجمع بين نقيضتى الموقع والموضع

فالموضع كواحة صحراوية يعنى ـ وحده ـ لونا من العزلة الجغرافية. فشرنقة الصحراء تغلفها لمئات الأميال شرقا وغربا وجنوبا ، ولا ينفى هذا أن هناك فى كل من هذه الاتجاهات شريطا ضيقا ما يربطها بالخارج العربى ، كنطاق كثبان سيناء الساحليـــة شرقا (الجفار عنـــد العرب) ، ومرمريكا مريوط غربا (مراقية عند العرب)(٣)، ونيل النوبة جنوبا . أما شمالا فهناك دائما مستنقعات الشـــمال والبرارى التى فصـــلت مصر عن البحر الى حد ما . هى اذن جزيرة فى الصحراء

وفى مراحل الحضارة المبكرة وتخلف المواصلات ، كان طبيعيا أن تنمى هذه العزلة الجغرافية الطبيعية الشعور

---

(١) ص ٨٣

(٢) Races of Europe, p. 458.

(٣) خطط المقريزى جـ ١ ص٢٠٧

بالذات فى المصريين القدماء ، ربما الى درجة الاستغراق الذاتى ethnocentrism . وقد انعكس هذا فى اسم مصر ذاتها : فكانت كيمى Kkemi تعنى مما أرض مصر السوداء وعالم الارض الكوكب . بل كان المصريون أحيانا هم « الناس » والآخرون الاجانب . ومثل هذه النظرة عرفتها فى الواقع شعوب كثيرة اخرى . اى أن تلك العزلة تحولت الى عزلة مترفعة Superior isolation أحيانا ، أو اذا استعرنا وصف بريطانيا فيما بعد الى عزلة رائعة Splendid isolation . ولكن هذه العزلة والشعور بالتفرد والانفصال فى مصر القديمة لم تتحول قط الى نظرية عنصرية أو الى كراهية للأجانب ، بل بمجرد دخول الاجانب واستقرارهم كانوا يعدون مصريين . فالوعى ـ الحاد نوعا ـ بالذات فى مصر كان اقليميا اكثر منه عنصريا ، وجغرافيا قبل أن يكون جنسيا (١)

وقد كان من الممكن لهذا كله أن يجعلها تنعطف على نفسها فى انطوائية تاريخية تجتر فيها حضارتها المحلية ، دون أن يصبح التطور والتغير وظيفة للزمن فيها . كان يمكن أن يسير خط التاريخ فيها فى زقاق مغلق تدور فيه حول نفسها . واذا كانت العزلة فى التاريخ كما فى البيولوجيا يمكن أن تكون نقطة البدء فى تأصيل أنماط وابتعادات جديدة تتبلور الى انواع أو حضارات جديدة ، فان هذا النوع من التطور تدهورى فى الغالب لأنه لا يلبث أن يتحول من التبلور الى الجمود والتحجر ، ومن الحيوية الى التكيس أو التكلس . وكما وجد داروين أن الجزر المحيطية المتطرفة المنعزلة هى مواطن الانواع القديمة المنقرضة ، فكذلك يمكن أن تكون الجزر

(١) ويلسون ص ٤٠ ـ ٤٢

الصحراوية المنعزلة متاحف جغرافيـــة لحضارات بائدة منقرضـة (١)

ولكن مصر وان كانت جزيرة صحراوية بالموضع فانها بالموقع فى قلب الدنيا وعلى ناصية كل التيارات الحضارية والتاريخية والثقافية . انها برج مراقبة أو مرصـد يغطى العالم القديم برمته . ولهذا لم تملك أن تنعزل أبدا عن تيارات التاريخ وحركات الحضارة . ومن هنا فان وعى مصر القديمة بنفسها اقليميا سرعان ما تضاءل مع التاريخ وتطور المواصلات وانفتاح مصر على الشرق القديم . حتى اذا وصلنا الى مراحل التاريخ الوسيط والحديث لم تعد تلك العزلة الجغرافية ـ التى لم تكن قط كاملة أو حادة ـ الا ظلا باهتا وكما محدودا لا سبيل الى المبالغة فيه . وفى الحضارة كما فى البيولوجيا ، أن البديل الوحيد للعزلة كعامل فى تأصيل الأنماط والانواع الجديدة الخصبة الثرية انما هو الاختلاط والاحتكاك (٢) ولكن الافراط فى الاختلاط كالافراط فى العـزلة ليس تطورا خلاقا : اذ تتحول المرونة الى تميع والحيوية الى تحلل ، ويصبح التزاوج خلاسية والاتصال انحـلالا ، وتكون المحصلة النهائية حضارة لا فقرية لا قوام لها

ونحن نستطيع أن نرى أن التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر قد زاوج فيهـا بين العـزلة والاحتكاك فى زواج سعيد ، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده . فلم تكن مصر مجرد منبع لحضارة حفرية آسنة ، ولا مصبا فقط لكل وباء أو نزوة حضـارية وافدة ، بل كانت دائما منبعا ومصبا معا ، تأخذ وتعطى أبدا . ومن هنا حيويتها التاريخية وبقاؤها . ان هذا

---

(١) P. V. La Blache, Principes de Géog. Humaine.

(٢) السابق

التناسق الدقيق هو مفتاح جوهرى لشخصية مصر التاريخية ، وبه نستطيع أن نحلل كيانها الحضارى ما كان منه وما سيكون

واذا نحن أردنا أن نلخص القول فى قضية العزلة الجغرافية سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، فلعل خير ما نفعل أن نضعها فى اطار العالم العربى حتى تتحدد بالمقارنة أبعادها ، لا سيما أن للقضية أهميتها السياسية كما سنرى فيما بعد . فنحن حين نقول ان مصر جزيرة او واحة فى الصحراء ، فلسنا نضفى عليها تفردا طبيعيا شاذا ، وانما هى صفة تشارك فيها معظم البلاد العربية كأمر واقع . فكل البلاد العربية أيضا جزر صحراوية مبثوثة فى تضاعيف المحيط الصحراوى الكبير من المحيط الى الخليج ، وكل منها يبدو ككتلة من المعمور واضحة الحدود والتباعد عن غيرها

وبالتالى فكل منها يعرف قدرا من عزلة جغرافية بالضرورة دون أن تكون هذه صفة تنفرد بها مصر . بل ربما كان منها ـ خاصة على الاطراف ـ من هو أكثر عزلة من مصر . وفى النتيجة فان العالم العربى فى مجموعه أرخبيل بشرى كبير يترامى فى بحر الرمال او بالأحرى بين بحر الرمال وبحر الماء ، ان امتاز بقدر محدود من عزلة داخلية خفيفة ما بين وحداته ، فقد الفتها من الناحية العملية ثورة النقل والمواصلات الحديثة بعد أن ظلت تنكمش وتتقلص عبر التاريخ ، فضلا عن أنه ككل يشارك ـ مع مصر ـ فى موقع بؤرى هو كالقلب من العالم القديم

السبق الحضارى

أول ما نرى حضارة مصر الزراعية الراقية نراها مع بداية عصر الأسرات (٣٢٠٠ ق ٠ م) حين تبرز لنا فى

صورتها المتطورة الكاملة التى ترتبط فى أذهاننا بمصر الفرعونية عموما . وبديهى ان وراء هذه اللوحة التامة تاريخا تطوريا سحيقا . وتبدأ الجرثومة الاولى فى هذا التاريخ فى نهايات العصر الحجرى القديم حين لحق المناخ تغير جوهرى غير معه البيئة الطبيعية . فالصورة العامه التى يتفق عليها أغلب الأركيولوجيين يمكن أن تبسط فى أن ما هو اليوم نطاق الصحارى فى وسط العالم كان يعيش فى ذلك الوقت فى ظل « عصر مطير » ، وكان وجه الاقليم كالسفانا تغطيه الحشائش والحيوان ، وعليهما عاش الانسان صيادا ، بينما كانت أودية الانهار كثيفة بالمستنقعات والآجام أو الادغال ، ولذا كانت خالية من الحيوان والانسان ..

ومنذ ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد بدأ « عصر الجفاف » بالتدريج الى ان سادت الظروف الصحراوية فى كل النطاق ، فطردت الحيوان والانسان ليتجمع فى الاودية التى على العكس تحسنت ظروفها بصرف المستنقعات واختفاء الادغال . وكان النيل والرافدان أهم تلك الأودية . وفى البيئة الجديدة المحصورة لم يكن مجال للحرفة القديمة الصيد ، بل لزم الاعتماد على جمع النباتات البرية ثم تقليد الطبيعة باستنباتها ، فكان اكتشاف الزراعة . ومع اجتماع الانسان والحيوان تم استئناسه ..وبدات بذلك « الثورة الزراعية » ، ومعها بدأ العصر الحجرى الحديث (١)

وفى مصر ترك لنا الحجرى الحديث عددا من آثار الحلات الزراعية تضم مخلفات من الحبوب والفخار والادوات ، تنتشر على أطراف الصعيد ، وتمثل مراحل

(١) V. G. Childe, Man Makes Himself, Lond., 1955; What Happened in History, Pelican, 1948.

مختلفة من نمو الحضارة الزراعية بعد ذلك . غير ان الحلقة شبه مفقودة بين مستواها ومستوى الحضارة الفرعونية كما انفجرت مع الأسرات بمركبها المعروف الذى يعتمد على ضبط النهر بعد صرفه وتقنيله ، وعلى زراعة الحبوب والالياف ، والاستقرار فى القرى والمدن ، والتجارة والنقل وصناعات النسيج والفخار والسلال وما صاحب ذلك من فنون الرى والعمارة والهندسة والتقويم والتخزين والملاحة ، ومن علوم الفلك والحساب والطب والكيمياء (وكلمة الكيمياء مشتقة أصلا من اسم موطنها مصر ـ كيمى) . وقد تم هذا التطور الضخم فى تلك المرحلة الثفرة وفى حماية الفلاف الصحراوى المحيط بالوادى . ومثل هذا يقال بصفة عامة عن العراق حيث تكثر أوجه التشابه ـ ولكن ليس التماثل ـ بين عناصر الحضارة المصرية وعناصر حضارة سومر وبابل واكاد ..

تلك هى النظرية العاملة الاساسية فى أصل الحضارة (١) ، غير اننا لا نعرف على وجه اليقين أين نشأت بالتحديد فى اى من تلك الأودية النهرية ، وان كان المؤكد أن نشأة الزراعة لم تخرج عن اطارها العام . فهل نشأت فى موطن واحد ثم انتشرت منه الى المواطن الاخرى ، أم نشأت مستقلة فى أكثر من موطن واحد ثم انتشرت حتى تقابلت وتقاربت ؟ ومن الأسبق اذا تعددت الأوطان ؟

---

(١) H. Frankfort, Birth of Civilisation in Near East, 1951, pp. 34 — 40; D. Davison, Story of Prehistoric Civilization, 1951, pp.2 et seq.; Huzayyin, Place of Egypt etc.; pp. 263 et seq.; K. Butzer, «Environment & Human Ecology in Egypt », Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1959, pp. 63 ff.; E. J. Baumgartel, Cultures of Prehistoric Egypt, Lond., 1947.

حول هـذه القضـايا الخلافية تعـددت المدارس وتضاربت ، ولكنها غالبا تدور بين قطبين اثنين ثم تعود فتتردد بينهما جيئة وذهابا من وقت الى آخر . فأما القطبان فمصر والعراق ، وأما الذبذبات فثلاث : حتى الثلاثينات أو الأربعينات كان الاجماع أقوى على أن مصر هى أصل الزراعة والحضارة ، ومنذ الحرب الاخيرة مال البندول الى العراق ، وأخيرا وفى السنوات الماضية فقط عاد يجنح الى مصر

فالجولة الأولى تمثلها المدرسة « الانتشارية » التى قادها اليوت سميث وبرى . وهى ترى فى مصر — ومصر العليا بالذات — أصل الحضارة فى العالم كله ، قامت منذ ٦٠٠٠ سنة على يد « الجنس الاسمر » كما يسمون المصريين القدماء ، وقد اطلق سميث على هذه الحضارة حضارة الشمس والحجر Heliolithic ، وهى تسمية قد لا تعبر عنها تماما كما لاحظ هـ . ج . ولز ، ولذا دعاها برى بالحضارة الأركية Archaic . وجوهر النظرية أن هذه الحضارة هى من خلق البيئة النيلية أكثر منها صنع الجنس الاسمر . فقد كان تفرد النيل دون كل أنهار العالم القديم بنظام فيضى معين هو الذى جعلها رائدة المدنية . فالنيل يقدم كل عام درسا عمليا فى أوليات الزراعة ، وهو من ثم أستاذ الفلاح ، والفلاح تلميذ مقلد للطبيعة ، وخير تلميذ هو ذلك العبقرى الذى لاحظ الفيضان وضـبط النهر ، فكانت جائزته الملك والألوهية . فالنيل اذن علم المصريين الزراعة والرى ، وتقاطرت بعد ذلك كل انجازات الحضارة

واذ تكتل هذا الرأسمال الحضارى «لأبناء الشمس» بدأ ينتشر الى الخارج مع التجارة والملاحة . وقد اطلق سميث على هذه العملية أولا هجرة الحضارة ، ولـكن

انتقال الحضارات ممكن بمجرد الاحتكاك ، ولذا عاد فدعاها انتشار الحضارة . وقد بدأ الانتشار أولا الى كل اركان الشرق القديم الهامة ابتداء من سومر وعيلام فى العراق الى كريت ، ومن تلك المحطات ازداد انتشارا الى كل اركان العالم القديم ، ثم عبر من الاخير الى العالم الجديد . وبهذا انتهى سميث الى عالمية انتشار الحضارة المصرية ثم وحدة الحضارة العالمية لاشتقاقها من جذر واحد ، ثم استمراريتها مع انتقال المشعل دائما من يد الى يد (١)

هذه النظرية الكاسحة ـ وكاسحة هى بالتأكيد ! ـ لقيت رواجا كبيرا فى حين ما ، ولكن الابحاث والانتقادات اثبتت تطوحها وخطأها حتى اصبحت اليوم مهجورة تماما ، يرفضها الأكثرون ولا يكاد يذكرها أحد (٢) ، وانما نذكرها هنا لا قولا او قبولا بها ، بل استكمالا للمناقشة العلمية ، ولتكون مثالا حيا على نظرية ميتة ، وحتى ندرك انه لا نهائية مطلقة فى الاصول الاولى السحيقة . والبعض يرى أن من الممكن أن تكون مصر الموطن الاصلى للشعير الذى ثبت نموه فيها بريا ، أما القمح فلا (٣) . وآخرون يقولون بامكانية نشأة الزراعة فى مصر ، أما استئناس الحيوان فلا (٤)

كذلك فثمة رأى يشكك فى امكانية بدء الزراعة فى مرحلتها الجنينية فى أنهار ضخمة يصعب التحكم فيها كالنيل ، وأن الأنهر الصغيرة قد تكون مشتلا معقولا ، او على الأقل ففى الأودية الصحراوية الصغيرة التى تصب

---

(١) G. Elliot — Smith, In the Beginning Lond., 1928.

(٢) Brodrick, Tree of Human Hist., p. 104

(٣) Coon, Caravan, p. 34.

(٤) Davison, p. 33

فى النيل على حواف الهضبة مثل هذا المشتل (١). وعدا هذا وذاك فقد ذهب آخرون الى التساؤل عما اذا كانت الحضارة المصرية قد نشأت أصلا بين سكان البحيرات والمستنقعات فى شمال الدلتا ، تاركين الصعيد كلية . وعموما وعلى أية حال ، فهناك من قد لا يرفضون احتمال نشأة الزراعة فى مصر ، ولكنهم بكل تأكيد يرفضون الزعم بانتشارها على النحو الكاسح الخرافى الذى تصوره الانتشاريون

ومن ثم انتقل الجدل الى العراق حيث ظهرت مدرسة الاصل البابلى للحضارة **Panbabylonians** ومنها جاك دى مورجان ولينارد وولى وكروفورد وغيرهم . ومن هذه المدرسة اتجاه يقول بأصل أسيوى للحضارة المصرية ، وانها مشتقة من حضارة سومر ، كما فعل دى مورجان، ورتب البعض لهذا هجرات بشرية لغزاة من بابل وسومر اقتحمت مصر ونشرت فيها تلك الحضارة . ومنهم من اتى بهذا الغزو من الشمال عن طريق الدلتا ، ومنهم من جاء به — تحت اسم « جنس الاسرات » أو « الجنس الجديد » — من الجنوب عن طريق البحر الاحمر — ثنية قنا ، بل هناك من جمع بين الغزوين والطريقين فى وقت واحد ! (٢)

وبغير تفاصيل ، فان هذه النظريات جميعا لا تعتمد الا على الاساطير الخرافية أساسا ، ولم يقم دليل علمى عليها حتى أصبحت بالية مهجورة كالانتشارية . ولذا ينتهى فرانكفورت الى أن العلاقات بين الحضارتين المصرية والعراقية وان تكن مؤكدة ، فان من الخطأ أن نرى مولد الحضارة المصرية كنتيجة للاحتكاك مع

---

(١) **Brodrick, Early Man, p. 173.**

(٢) ما يرز ، ص ٦٤ — ٦٥

العراق ، فلسنا نعرف متى كان هذا الاحتكاك ولا كيف كان (١)

واذا كان الاتجاه الأقدم الى اشتقاق الحضارة المصرية من البابلية قد سقط ، فان الاتجاه الأحدث انتقل الى القول بنشأة مستقلة لكل منهما تتسع لتفسير التشابه الكبير بينهما جنبا الى جنب مع الفروق . الا ان هذا الاتجاه يعطى السبق الزمنى ــ عدة قرون فقط قد تصل الى الخمسة ــ لحضارة بابل ، كما يرى تفوقا وسبقا زمنيا لبابل فى معرفة واستعمال المعادن بوجه عام . ومع ذلك فثمة راى أن من الصعب أن نرى لأى من الحضارتين المصرية أو البابلية أصلا محليا أصيلا ، وان كانا لا شك أصيلين فى معنى محدد وهو قيام حضارة المدن فى كل منهما (٢) . كما أن هناك من يرى أن توقيت الفيضان وعلاقته بمواعيد الزراعة الشتوية أنسب فى مصر منه فى العراق ويعطى الاحتمال الأقوى للأولى كمهد وموطن أول

وهكذا ، اذا كانت المدرسة البابلية قد تخلت عن الزعم بأنها أصل الحضارة المصرية وانتهت الى الاكتفاء بسبق زمنى قصير عليها ، فقد عادت الأسبقية فيما يبدو مرة أخرى الى مصر فى السنوات الاخيرة مع كشوف النوبة ، حيث كشفت الحفائر غير بعيد عن ثنية قنا عن مستعمرة من الحجرى الحديث ترجع الى ١٤ الف سنة مضت . ولا شك أن هذا يشير الى مرحلة أولية بعيدة عن مركب الزراعة الكاملة وحضاراتها المتطورة التى هى موضع الجدل . غير أن من الواضح بعد هذا كله أن نظرية عصر الجفاف ، التى اتخذت أساسا للمناقشة

---

(١) ص ١١٠

(٢) Coon, Caravan, pp. 34 — 5.

كلها ، تفترض ـ منطقيا ـ ان كشف الزراعة انما كان محليا بالضرورة حين انحصر الانسان فى شقة الوادى (١)

ومهما يكن من امر ، فالحقائق الراجحة التى يمكن أن نخلص بها من هذا العرض كله هى أنه وان كان من الممكن والمتصور ان تعرف الزراعة البسيطة بمراحلها الأولية فى اكثر من موطن كاكتشاف مستقل ، فان مركب الزراعة المتطورة الذى يحدد بدء الحضارة الحقيقية قد ظهر فى مصر مبكرا بما فيه الكفاية كنمو محلى مستقل غير مشتق ولا منقول من مصدر خارجى

ومن الطريف أن نلاحظ أن اغلب من يزعمون أصلا مستوردا للحضارة المصرية او يذهبون الى انها نتيجة التفاعل والالتحام بين حضارتين واحدة وافدة من آسيا من الشمال واخرى محلية أو وافدة من افريقيا من الجنوب ، هؤلاء هم انفسهم يؤكدون أن الحضارة المصرية كانت « شيئا مصريا خاصا » ، او انها فى كل تطوراتها اللاحقة « كانت مرتبطة بظروف وادى النيل المناخية الفريدة الى حد ان الحضارة المصرية لم تصدر كما صدرت حضارة سومر » (٢) . فالتناقض هنا صريح بين خلاسية وتهجين الأصل المزعوم ، وبين أصالة وتفرد بل « وغرابة » التركيب المقول . .

بصرف النظر اذن عن الأسبقيات المطلقة ، التى ربما لن تتوفر الأدلة اليقينية على تحديدها بسهولة ، وبصرف النظر عن اولوية الدلتا او الصعيد ، فالذى لا شك فيه أن الزراعة ، ان لم تكن قد ولدت فى تربة النيل واحضانه وعمدت لأول مرة بمياهه ، فان مصر كانت بأى مقياس من البلاد الرائدة السباقة الى تأصيل الثورة الزراعية

---

(١) Brodrick, Early Man, p. 176.

(٢) السابق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧

واقامة أسس حضارة العصور القديمة التى فاجات العالم بها مكتملة أو شبه مكتملة مع بداية عصر الاسرات . فالسبق الحضارى اذن سمة أصيلة من سمات شخصية مصر التاريخية . واذا كان قد حدث بعد ذلك تخلف أزمن طويلا كما سنرى ، فسنجد هذا السبق يعود ليؤكد نفسه فى أكثر من مرحلة لاحقة ليس اقلها أهمية الفترة الحديثة المعاصرة . ولهذا فلنستعرض، فى نظرة تلسكوبية شاملة ، مراحل الحضارة المصرية ككل لنتعرف على نبضها وضوابطها واتجاهاتها

مراحل تاريخنا الحضارى :

انثروبولوجى ينظر الى مصر

ومراحل تاريخنا الحضارى ليست الا النتيجة المتغيرة على العصور للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك، اى الموضع والموقع على الترتيب . ويمكننا فى الواقع أن نقسمها الى أربع نناقشها تباعا هى : مرحلة صناعة الحضارة ، ثم مرحلة تصدير الحضارة ، ثم مرحلة الاكتفاء الذاتى ، واخيرا مرحلة استيراد الحضارة . والجدير بالملاحظة أن هذه المراحل ترتبط وثيقا بمراحل تطور المواصلات باعتبارها من دوافع الاحتكاك ومذيبات العزلة ، مع العلم بأن دور العزلة يقل ويضعف كاتجاه عام على مدى التاريخ بينما يزداد دور الاحتكاك ويتضاعف

فأما مرحلة صناعة الحضارة فتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى Potamic حين كانت مصر مشتلا ممتازا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة مادتها الخام هى فيض الثروة الفيضية وصوبتها الزجاجية التى تحمى طفولتها هى الفلاف الصحراوى . فالعزلة النسبية كانت لازمة

فى المراحل الاولى لضمان الطمأنينة والاستمرار حتى تنضج البادرة بعد أن تجرثمت وحتى تتحول فى النهاية الى عود صلب . كان ظهور الحضارة هنا « خطة عامدة متعمدة وضعها الجغرافى الاعظم » كما يقول كون (١)

وكانت مصر اذن « مصنع » الحضارة . وهكذا حين بدأت الحضارة المصرية الفرعونية تخرج من مشتلها ظهرت فجأة فى مرحلة نامية متطورة راقية انبهرت لها الشعوب المجاورة ، كما كان لها طابع خاص قوى الشخصية والتفرد بحكم العزلة التى تأصلت فى ظلها . ولعل هذا التفوق المبكر مع العزلة النسبية الخفيفة هو السبب فى تلك العزة والشعور بالعظمة التى عرفت عن مصر القديمة — لكن دون أن تصل الى الاستعلاء والعنصرية (٢)

وقد كان طبيعيا مع توسع شبكة الاتصالات فى العالم المعروف وخروجها من مرحلة الانهار الى البحار thalassic أن يزداد احتكاك مصر بالخارج . وكانت حاجتها الى كثير من الخامات التى لا تتوفر فى البيئة المحلية كالاخشاب والبخور مما دفعها الى الملاحة البحرية والتجارة البعيدة المدى . وكان طبيعيا ان يأخذ هذا الاحتكاك شكل « تصدير الحضارة » المصرية . فأصبح مصنع الحضارة متجرا لها ايضا . والاستعارة من المركب الحضارى المصرى حقيقة عرفتها فينيقيا والشام حتى ميديا وأرض الحيثيين ، وامتدت عناصرها الى بابل وآشور . ومن المعروف أن جاليات مصرية من التجار أو الموظفين أو المحاربين كانت توجد من فترة الى اخرى فى العصور الفروعونية ، كما كانت بيبلوس (جبيل)

---

(١) Caravan, p. 19

(٢) Ruth Benedict, Patterns of Culture, 1935.

قاعدة امامية للتبادل والنفوذ المصرى . وقد قدمت اللغة المصرية القديمة احدى الخامات القاعدية للأبجدية التى تفـــاعلت مع الفينيقية حتى تحـورت الى الأبجـــدية السينائية التى ستكون عنصرا أساسيا فى تطوير الكتابة فى أوربا

أما غربا فقـــد تشبعت حضارة كريت واليـــونان بالمؤثرات المصرية، والثابت أن الحضارة المينوية اقتبست كثيرا من دفعتها وعناصرها من الحضارة المصرية . وثابت ايضا أن الحضـــارة اليونانيـــة قامت على أسس من الاستعارة الصريحة من المينوية ، ولهذا لم يكن غريبا أن يعترف هيرودوت بفضـــل الحضـــارة المصرية على اليونانية . كذلك فقد امتدت المؤثرات الحضارية المصرية غربا الى ليبيا ، كما تسربت جنوبا حتى بونت الصومال وسودان العالم الزنجى

والواقع اننا لا نبعد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنـــا ان مصر الفرعونية فى الجزء الاكبر من تاريخ الأسرات كانت بمثابة نواة وقلب لمنطقة حضارية بالمعنى الانثروبولوجى Kultarkreise تترامى عبر كل هذه الآفاق ، منهـــا تتوزع التجديدات والعناصر الحضارية المادية واللامادية، وذلك دون أن نلتزم بنظرية الانتشاريين الشـــوهاء . كذلك لم تكف مصر عن تطوير مركبها الحضارى بعد أن استكمل عناصره الاساسية . ويكفى أنها فيما يقـــدر كادت تتوصل الى ارهاصات التوحيد (اخناتون) وكادت بذلك أن تكون الأولى فى العالم ، ولكن يبدو أنها كانت بادرة لم تجد التربة الصالحة فانقرضت مباشرة

ومن الناحية الاخرى ، فان مصر من جانبها لم تتوان من الاستعارة الحضارية كلما أتيح لها ذلك . فقـــد اخذت على سبيل المثال الخيـــل والعجلة عن الفـــزاة

الهكسوس ، وهما نتج أصيل لبيئة الاستبس لم يكن للبيئة الفيضية النيلية من سبيل اليه بطبيعتها (١) . كذلك فقد ادخل الجاموس والابل فيما بعد فى العصور الرومانية والعربية ، فأخذتهما مصر دون تحرج

ومن الضرورى هنا أن نعرض للاتجاه الذى ظهر منذ سنين الى التقليل من انجازة الحضارة المصرية ، والى التقليل أكثر وأكثر من أثرها خارج حدودها . فهناك من ينتقد عليها فقرها النسبى فى النواحى العقليـة ، وهناك من يرى أنها كان ينبغى أن تقدم أكثر مما قدمت بوجه عام . اما عن أثرها الخارجى فيدور النقد على أساس أن « الحضارة المصرية ظلت شيئا على حدة فى العالم القديم » ، فلم تصدر كما صدرت حضارة سومر، وأن « من الغريب أن نتذكر أن مصر ، رغم كل أمجادها ، لم تمدين حتى أى جزء من افريقيا ، بينما أن السومرية ترقد عند أصل وأساس الحضارة الغربية » (٢) وكل ما يمكن أن يقال ازاء هذا التعميم الكاسح ، أن حقائق التاريخ ليست فى صفه ، ويظل دور الحضارة المصرية وثيقا . .

وقد يمكن بعد هذا أن نعتبر العصر العربى الاسلامى امتدادا لمرحلة تصدير الحضارة المصرية . فرغم أن مصر تمثلت الثقافة العربية كلية ، فان النهضة الحضارية العربية التى حدثت من تفاعل العرب مع أبناء البلاد التى دخلوها هى انتاج مشترك أساسا . والحضارة العربية الجديدة التى بدأ تصديرها الى أوربا الجنوبية وغيرها كانت تشمل بالضرورة خيوطا مصرية كثيرة فى نسيجها . والواقع أن ملكة مصر الطبيعية ، ملكة الحد الأوسط ،

---

(١) Childe, Soc. Evolution, p. 15

(٢) Brodrick, Early Man, p. 177; Tree etc. p. 125.

تبرز حتى مع العرب : فمصر القبطية تاثرت بالجديد الذى أتى به العرب من لغة وعقيدة لا لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب ، ولا لأن الصراع اللغوى يحدده الصراع السياسى فحسب ، وانما أيضا لأنها أدركت بسرعة أن العرب قد أتوا بجديد حقا . ولكنها بعد أن أجادت ما أخذته ، لم تلبث ان جودته كعهدها دائما

ولا نحسب اننا نتوهم اذ نقول ان اللهجة المصرية مثلا كانت دائما أقرب لهجة عربية الى الاستقامة والاعتدال . بل نرجو الا يجانبنا التوفيق اذا زعمنا أن ممارسة الاسلام نفسه بلغت على يديها درجة من الرصانة والاستواء جعلت من أزهرها قلعة للاسلام وكعبة للاسلاميات . ومنذ وقت مبكر فى تاريخ الاسلامية كان واضحا انها تتقدم بثقة لتكون من طليعة سدنة الاسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه . بل لنا أن نلاحظ أن كل الخطوط المتطرفة أو الابتعادات غير « الارثوذكسية » فى العقيدة لم تجد بيئة تعيش أو تعشش فيها بمصر حتى ان فرضت عليها ، كالشيعية التيأشاعتها الفاطمية وحقنتها بها طويلا ثم ما لبثت أن انقرضت تلقائيا مع زوالهم ، فلم تكن أكثر من مجرد جملة اعتراضية فى اسلام مصر

ومهما يكن ، فان دور العرب عموما فى مصر وفى غيرها لا بد ان يدعو الى التفكير . فهم لم يأتوا معهم بحضارة ذات بال ، ومع ذلك بعثت الحضارة على أيديهم حيث دخلوا . والواقع أن دور العرب الحضارى كان دور الشرارة التى الهبت الوقود الحضارى الخامل فى مصر دون أن تجيئنا بجسم الوقود نفسه ، ثم ذابت النار فى الوقود كما انصهر الوقود فى النار ، أو كان هو دور

الذكر الذى كل وظيفته أن يلقح ملكة النحل

وفى اطار هذا الدور ـ الذى لا يقلل قط من خطورة الأثر العربى فى مصر ـ يمكن أن نفهم بعض الجوانب التى تبدو متعارضة فيه . فأغلب نظم الادارة وشئون الحكم وفنون الرى والزراعة .. الخ التى صنعتها من قبل ضرورات البيئة الفيضية ، ورثها العرب بقليل من تغيير . ولكنهم من ناحية أخرى طعموا الاقتصاد الزراعى بعناصر جديدة وخطيرة حين أدخلوا القصب والارز والموالح وغيرها . وفى مجالات أخرى نجد أثرهم واضحا ، حين آدخلوا ـ فى البداية وقبل الورق ـ جلد الرق للكتابة ، وهو نتج بيئة الرعاة ، وأحلوه محل البردى ، الذى كان انبثاقا طبيعيا فى بيئة فيضية (١)

وفى جوانب أخرى حدث العكس ، فيقال مثلا ان قطع يد السارق لم يتح له أن يحل محل قطع انفه على نحو ما كان يفعل المصريون القدماء فى بيئة زراعية يد الفلاح فيها هى أداة الحياة . كذلك كان طبيعيا أن تنسخ الحضارة العربية الاسلامية بعضا من عناصر الحضارة المصرية القديمة وتدفنها الى الابد ، فلم يكن لأى من نحت التماثيل أو فن التحنيط مكان فى الحضارة الاسلامية ، فهجر الأول واختفى الثانى حتى ضاع سره تماما ..

وعلى أية حال ، فقد كانت مصر العربية خيسة حضارية مضطرمة فى قلب العالم الاسلامى ، وترتبط بجميع اجزائه وبالعالم الخارجى مما زاد فى عملية الاخصاب الحضارى . وقد ظل هذا حتى بداية « العصر المحيطى » حيث حدث الأسر النقلى وتحولت مصر مع بقية الشرق العربى الى العزلة مرة أخرى، فكانت المرحلة

(١) مايرز ، ص ٥٠

مرحلة الاكتفاء الذاتي الحضاري في حدود الدائرة الاسلامية : عملية استهلاك محلي واجترار للتراث الحضاري المتراكم من العصر الفرعوني المتنحي والعصر العربي السائد، دون ما اضافة أو تجديد حتى استنفدت نفسها وانتهت في عزلتها الى عقم وجدب معروفين . لقد انتقل مصنع الحضارة ومتجرها الى مجرد «متحف» للحضارة على أحسن تقدير

والقصة بعد هذا هي قصة مرحلة «استيراد الحضارة» التي بدأت حين اقتحمت الحضارة الحديثة والمواصلات العالمية أركان الأرض وراحت تتفجر حوله وتغزو الشرق كله حضاريا . وهنا لم يعد للعزلة مكان ، وأصبحنا بحق في « عصر الاحتكاك الحضاري » الذي تعيشه مصر كما تعيشه بقية العالم المتخلف والنامي أو العالم الثالث عموما . ولكن الشيىء الذي يميز الاحتكاك في مصر خاصة عنه في كثير من مناطق العالم انه لم يكن عملية احلال وذوبان ، لم يكن مجرد عملية تحضير acculturation ، ولا كان ابتلاعا حضاريا enculturation انها أساسا عملية تبادل حضاري transculturation : عملية امتزاج انتخابي أساسا خرجت منها الشخصية المصرية كما كانت دائما ذات طابع قوي دفين ، ولم تفقد قوامها الأصيل

بعبارة أخرى ، لم تتحول مصر نافورة الحضارة القديمة الى مجرد بالوعة للحضارة الجديدة ، ولكن الى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها . بمعنى آخر ، جاء الدور المعاصر دور « المعمل الحضاري » . ونحن نرى أن هذا ليس الا صورة جديدة معاصرة من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع العقدي على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمي في اطاره الصحراوي .

والواقع أن عملية الاحتكاك مع الغرب مرت فى ثلاث مراحل واضحة بما فيه الكفاية ، ولا تبعد عن منطق الديالكتيكية من تقرير فنقيض فتركيب

فالأولى مرحلة الانبهار الحضارى والانهيار النفسى . فقد فوجئنا بأننا أقزام أمام عمالقة . وكان رد الفعل « مركب نقص » حضاريا شديدا ، أفقدنا كل ثقة فى تاريخنا وتراثنا وكياننا ، وجعلنا نتهافت على النقل والتقليد بلا تمييز ، فكانت صيحات التفرنج ومحاولات تحويل مصر الى « قطعة من أوربا » . بل وصل الأمر الى اقتراح الحروف اللاتينية المعروف ، والى المناظرة الجوفاء فى الثلاثينات بين الثقافة اللاتينية والسكسونية. كانت هذه مرحلة تنذر بالخلاسية pastiche ، تتحول بها مصر الى لافقرية حضارية ومخلوق شاذ مخلط ـ pseudomorph كما يعبر شبنجلر .

لكن المرحلة الثانية جاءت رد فعل عكسيا . فبعد أن خبرنا ومارسنا دخائل الحضارة الجديدة ـ والالف يورث الاحتقار ـ زال الانبهار وعادت الينا بعض الثقة فى انفسنا وأدركنا فضلنا غير المباشر فى أصول هذه الحضارة . ولكن البعض تطرف فطالب بالرجوع الى الماضى واشتدت الحركات « السلفية » . وقد كانت هذه مرحلة الانتفاض السياسى أيضا ، وأدى نجاحها بالبعض الى تطرف جديد وصل الى درجة الغفلة أحيانا ، فقد انقلب مركب النقص الحضارى الى مركب عظمة هو فى الحقيقة مركب نقص مقلوب

غير أن المرحلة الثالثة بدأت بسرعة وربما كنا نعيشها اليوم ، وهى مرحلة الاعتدال . وأدركنا أننا لا بد أن نستعير ، ولكن استعارة رشيدة انتخابية ، استعارة هضم وتمثيل لا اغراق وذوبان ، استعارة تمالك

لا تهالك ، تأخذ الزبد دون الزبد . ولهذا فنحن الآن نجمع بين الأصيل والدخيل ، القديم والجديد ، بين التقاليد والتقليد ، فى نسب متفاوتة وفى اتزان واختيار محسوب . كذلك فقد أدركنا أننا وان كنا يجب أن نعتز بما قدمناه للحضارة والتاريخ ، الا أننا لا ينبغى أن نعتمد على ذلك أكثر مما ينبغى . ولكننا من الناحية الاخرى اذا كنا سنستعير ففى تواضع لا فى ضعة . باختصار ، ليس فى ماضينا ما نتبرأ منه ، ولا فى حاضرنا ما نخجل منه . ومن المرجح فى النهاية أن مصر أعطت العالم على مدى تاريخها عموما أكثر مما أخذت

وهنا يجدر بنا أن نعرض لدعاوى الغرب والاستعمار التى تصور واقعنا الحضارى المعاصر بل وكل وجودنا البشرى ذاته على انه فضلة من فيضه وفضله . فما أكثر ما يتردد فى كتابات الغربيين وخاصة الانجليز من أن كيان مصر الحديثة هو من صنع الادارة والتكنولوجيا والطب الأجنبى ، وذلك ابتداء من السدود والخزانات ونظم الرى والزراعة الحديثة الى مدننا وطرقنا بل وحتى الى وجودنا البيولوجى نفسه ممثلا فى نمو السكان وتزايدهم ! (١)

ولكن الحقيقة أن هذا الغرب يدين ، وان يكن بطريق غير مباشر ، بأصول حضارته الى ما قدمناه فى القديم سواء عن طريق ما استعاره اليونان من مصر القديمة خاصة او ما استمارته أوربا الوسيطة من عرب الاسلام عامة . ولهذا فاذا عد الغرب نفسه اليوم أستاذنا حضاريا ، فقد كان تلميذنا بالأمس ، ومن ثم فان هى الا بضاعتنا — مهما تحورت وتطورت — ردت الينا ، وما هو الا دين قديم تأجل سداده قرونا . ونحن فى هذا

---

(١) Beaujeu - Garnier, p. 70.

نختلف عن بلد كاليابان اخذ بالحضارة الاوربية الحديثة اخذا شديدا دون عطاء سابق ، أما نحن فعلاقتنا الحضارية علاقة أخذ سبقه عطاء

وعدا هذا ، فقد الفنا أن نعد مصر الحديثة مع غيرها من العالم الثالث من البلاد المتخلفة التى يطلق عليها الآن - مجاملة - البلاد النامية . وانها لكذلك بالتأكيد اذا ما قيست بمقياس الغرب . ولكن هذا لا ينبغى أن ينسينا أنها بمقياس الشرق وعالم الاحتكاك الحضارى سباقة ومتقدمة ، فقد كانت منذ أوائل القرن الماضى رائدة فى كثير من وجوه التحضر ، بل وكادت أن تلاحق الغرب فى بعض انجازاته الحضارية الجديدة . ومن مظاهر هذا السبق أن مصر كانت من أولى دول العالم فى ادخال السكك الحديدية ، وتاريخها مع البترول تاريخ مبكر بصورة ملحوظة ، ونحن فى الأخذ بالفنون الهيدرولوجية الحديثة نسبق الهند ، وحتى فى الثورة الديموغرافية قد نكون من أسبق بلاد الشرق وربما لا نتخلف كثيرا عن بعض طلائع الغرب بداية وحجما

ولسنا بالتأكيد ندعى المقارنة بالغرب الحضارى ، ولكنا نزعم أن السبق المصرى الذى عرفته مصر القديمة ، قد عاد فى عصر الاحتكاك الحضارى الحديث ليؤكد نفسه ، وان كان هو فى الأولى سبق الخلق وفى الثانية سبق النقل. وهذا واضح تماما اذا قارنا مصر بافريقيا ، وحتى فى العالم العربى يقدر توينبى أن مصر تسبق فى تطورنا الحضارى الحديث بفارق زمنى يختلف من بلد الى بلد ولكنه فى حده الأقصى قد يصل الى ١٥٠ سنة

وهنا تبدو لنا مصر وكأنها - فى معنى - يابان افريقيا. فكما كانت اليابان أسرع دول آسيا الى تشرب الحضارة الحديثة وأشدها أخذا بها ، فان مصر هى الأولى فى

القارة والشرق الاوسط . غير أن هذا التشبيه يصدق من حيث الأولوية الزمنية وسرعة الانطلاقة ، اى من حيث الدرجة ، أما من حيث النوع فقد أخذ كل منهما خطا مختلفا

ضوابط السبق والتخلف

عند هذا الحد ، وبعد هذه الدورة الحضارية الكاملة والمفعمة ، لا بد لنا أن نقف الآن عند هذه المتناقضة : السبق الحضارى والبداية المبكرة أولا precocious ثم الجمود والتخلف الحضارى بعدذلك وربما مبكرةايضا وقبل الاوان . premature اى انا ازاء بداية مبكرة ونهاية مبكرة معا . فكيف نعلل لذلك ؟ لعلها أولا أن تذكرنا – عابرين – بمتناقضة مناظرة سارت موازية لها على المستوى السياسى ، ونعنى بها تحول مصر من امبراطورية من طلائع الامبراطوريات فى التاريخ الى واحدة من أطول المستعمرات التى عرفها التاريخ . وربما كانت الدورتان مرتبطتين عضويا ، ولعلهما وجهان لحقيقة واحدة ، غير أن علينا هنا أن نبحث عن الاسباب النوعية. ولعلك واجدها أساسا فى ضوابط البيئة الطبيعية ورد الفعل البشرى . كذلك فلعل صيغة توينبى الايكولوجية الشهيرة عن « التحدى والاستجابة » أن تقدم لنا مفتاحا مقنعا للسبق المصرى فى البداية

ففى أزمة « عصر الجفاف » التى حزبت سكان الصحراء الافريقية فى أواخر الحجرى القديم وحشدتهم قسرا فى بيئات الأودية النهرية المحدودة ، يرى توينبى التحدى الاول الذى واجه سكان مصر وألهب مخيلتهم الابداعية من أجل البقاء ، فكان اكتشاف الزراعة هو الاستجابة الحرجة والخلاقة (١) . ومن السهل أن نتصور

(١) A. Toynbee, A Study of Hist; O.U.P. 1945, vol. 1, pp. 302 - 15.

أن عملية الاحتشاد فى رقعة الوادى الضيقة كانت عملية انتخاب طبيعى قاسية أبقت على العناصر الصالحة لمواجهة البيئة الجديدة .

وسواء قلنا ان الفضل فى السبق الحضارى يرجع الى النيل أبى الزراعة الحقيقى ومعلم الفلاح ، أو قلنا انه يرجع الى الفلاح ذلك « العامل الجغرافى » وذلك المهندس المشترك الذى أعاد تشكيل وخلق البيئة الطبيعية الى لاندسكيب بشرى ، سواء قلنا بهذا أو بذاك ، فالسبق المصرى الحضارى يؤكد قانونا ايكولوجيا هاما للغاية وهو أن الذى يبدأ الحضارة لأول مرة انما هى تلك البيئات « السهلة » ، بيئات الرخاء والوفرة الطبيعية حيث تأخذ الطبيعة جانب الانسان وبيده . ولا شك أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين امكانيات العمل ، بين الضرورة والاحتمالية ، فمصر كانت فى طبيعتها غنية دون أن تصل حد التبذير ، « فلم تكن الثمرة تساقط من الاشجار لفلاحين كسالى » . (١) ولقد وفر النيل والشمس خامات الحياة ، ولكن كان لا بد لصنعها من معركة ضد الموت : ضد الفيضانات ، وضد الرمل والملح ... الخ . ولهذا كان الجهد البشرى شرطا للتقدم ؛ وكان التقدم مكافأة الجهد البشرى . وتلك بالدقة خصيصة أقاليم الوفرة كما حددها فلير (٢)

البيئة السهلة اذن هى حضانة الحضارة ومشتل التاريخ . وهذا تفسير مقنع للسبق المصرى ، دون حتم جغرافى أو نظرية عنصرية فى نفس الوقت . ولكن التخلف

(١) ويلسون ، ص ٤٥

(٢) H. J. Fleure, « Human Regions », Geog. Teacher, 1917, pp 30 ff.

الحضارى الذى حل بعد ذلك انما يجىء ليكمل الشطر الثانى من القـانون ، وهو أن الذى يصعد بعـد ذلك بالحضارة الى أعلى مراتبها وأعقد مراحلهـا انما هى البيئات « الصعبة » التى يزداد فيها تحدى الطبيعـة للانسان ولا يمكنه أن يقتحمها الا بالمفتاح الحضـارى المناسب الذى طورته البيئات السهلة من قبل وقدمته هدية أو اعارة له . أى أن الانسان يغزو البيئات الصعبة بحضارة البيئات السهلة . ومن ثم فالبيئات السهلة قد تكون مشتلا او حضانة حقا ، الا أن المشتل ليس الحقل الأخير والحضانة بطبيعتها مرحلية . واذن فمشـعل الحضارة دوار أبدا

واذا كانت البرودة هى من أقسى العقبات البيئيـة وكانت الحرارة المعتدلة عاملا مساعدا للانسان فى أدوار حضارته الاولى ، فقد كان طبيعيا أن تهاجر الحضارة بالتدريج من العروض الدافئة الى العروض البـاردة ، بعيدا عن خط الاستواء وفى اتجاه القطب ـ أو هكذا على الأقل يعتقد بعض الكتاب (١) . وزحف الحضارة التاريخى يرسم بالفعل قوسا يبدأ من الشرق الاوسط القديم متتبعا سواحل البحر المتوسـط ثم الاطلسى . ولهذا فكما فاجأت مصر القديمة الشرق القديم بحضارة رائعة مكتملة فى حينها ، ستجد مصر الحديثة أمامهـا فجاة حضارة معقدة أرقى بكثير تطرق أو تقتحم أبوابها عليها بلا استئذان حيث كانت الحملة الفرنسية كزيارة الكومودور بيرى لليابان ، وكل وضع حدا « لفترة عزلة» شهيرة . واذا أردنا مثلا واحدا يختزل هـذه الدورة

---

(١) E. Huntington, Climate & Civilization, pp. 396-7; Mainsprings of Civilization, N.Y. 1945, pp; S.F. Markham, Climate & Energy of Nations, 1947, pp. 11-8.

الكاملة ، فلعل شيئا لايمثلهـــا كما تمثلها مراحـــل ضبط النيل عندنا بالذات . فالنيل أعطى مصر حضارتها الاولى التى سبقت بها العالم وفاضت بها عليه . واليوم بعد أن طور ذلك العالم هذه الحضارة ونماها الى أعلى واعقد تركيب عاد بها الينا لنصل بضبط النيـل الى قمته فى السد العالى

ملكة الحد الاوسط

بعد السبق الى التحضر ، لعل أخص ما يميز احتكاكنا الحضارى مع الغرب عنصر الاتزان عن طريق الاستعارة الانتخابية والتعايش بين القديم والجـديد . ويمـكن للأنثروبولوجى الناظر الى مصر المعاصرة أن يرى بسهولة أن الماضى يعيش فى حاضرنا ، غير أننا نعيش أساسا فى الحاضر . وهذه الصورة لا تجعلنا من الغرب أو الشرق تماما ، وانما تجعلنا « مصر العربية » أولا وأخيرا — مصر العربية التى تؤكد شخصيتها ضـد الانسياح وضـد الانغلاق ، مما يحفظ لها ذاتيتها الأصيلة فى قلب دوامة عالمية . وربما كان بعض التفسير يكمن فى الفرق بين العاصمة والمدينة الكبرى من ناحية ، وبين الريف من ناحية أخرى . فالجديد والدخيل يطفر فى الأولى التى ترادف الموقع العالمى ، والقديم والأصـيل يعتصم فى الثانى الذى يرادف الموضع المعزول .

والمدينة المصرية اليوم تجسيم واضح لتعاصر القديم والجديد . فهناك دائما قطاع معمارى قديم هو النواة ، يكمله نطاق حديث هو النمو الجديد . وهذه الثنائية تكاد توجد فى كل مدننا وان اختلفت نسبة القديم الى الجديد كثيرا بحيث يزداد العنصر الحديث كلما كانت المدينة أكبر وأكثر تطورا . ولهذا كله فمن الصعب أن

نوافق على هذا الحكم الذى يصدره مثلا كاتب أجنبى عن القاهرة حين يقول : « ها هنا الشرق ، كأحسن ما يكون وكأسوأ ما يمكن ، وها هنا الغرب أيضـا ، كأحسن ما يكون ولكن فى الأعم الأغلب كأسوأ ما يمكن »(١) وريفنا بدوره يمثل تضاغطا للتاريخ فى أكثر من ناحية : فالى جانب المحراث والشادوف وغيرهمـا من أدوات القرن العشرين قبـل الميـلاد ، نجد الجرار والخزان وغيرهما من نتاج القرن العشرين بعد الميلاد

والواقع أن المثير حقا فى كل هذا هو كيف تتمتع مصر بنظرة عالمية رحبـة الافق ، كوزموبوليتانيـة ، دون أن تفقد قوامها الذاتى ، وكيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وانما يتناسخ . ولكننا يمكن أن نضعها قاعدة أن مصر كلما زادت تغـيرا وتطورا ، زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا ! كأنما هى تجسيم للمثـل الفرنسى المعروف « كلما تغير ذا ، كلما كان ذا نفس الشىء» «plus ça change, plus c'est la mêmechose.» حتى فى الماضى البعيد كانت «تمصر» كل جـديد : تهضمه وتمثـله وتفرزه كائنا مصريا صميما : الموجات الأجنبية ابتلعتها ومصرتها ، حتى الدين مصرته حين اخذت المسـيحية وأخرجت منها نسختها الخاصة القبطية

وكما يقول ويلسون (٢) عن مصر القديمة : «داخل مصر كانت أشد الأفكار تباينا تتقبل بتسامح وتنسج معا فيما قد نعده نحن المحدثين كانعدام للنظام فى تضارب فلسفى، ولكنه كان للقدماء متكاملا ... كان طريق المصرى هو أن يتقبل التجديدات وأن يضمنها تفكيره ، دون نبذ القديم والبالى ... وان القديم والجديد ليرقدان معا كلوحة سيريالية ما ، للشبـاب والشيخوخة على وجه

(١) Hindus, p. 117.

(٢) ص ٤١

واحد » • أو كما يذكر مورنتز **Morenz** « ان المصرى لا يكون مصريا الا اذا تمسك بالقديم الى جوار الجديد ، فيوائم بينهما أو يصل احدهما بالآخر على الاقل » (١)

هذا عن مصر القديمة ، أما اليوم فيقول فيدن « ان مصر لا تتجه وجهة فرنسية ولا لفانتية فى روحها . فالجزء الاكبر يظل دون أن يمس ، ومصر عازفة عن أن تكون أى شىء سوى مصر » (٢) • ان ملكة الحد الاوسط هى — بوضوح فيما نأمل الآن — كلمة المفتاح والدليل فى شخصية مصر الحضارية وفى مواجهتها للجمع والتوفيق بين الماضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس

ويمكننا أن نختبر ملكة الحلول الوسطى والاتزان الحضارى فى مصر اذا قارنا ببعض أجزاء اخر من العالم العربى . فاليمن فى بعض نواح يشبه مصر : فهى المفتاح الآخر للبحر الأحمر ، ولذا تشارك بالموقع ، وان يكن بدرجة أقل ، فى نفس الممر العالمى الحساس الذى قلبه مصر . ثم هى بالموضع قلعة جبلية منعزلة مغلقة تذكر وان يكن على نطاق مكبر جدا بعزلة مصر الصحراوية الخفيفة . أى أن فى كل منهما تعارضا بدرجة أو بأخرى بين موقع مفتوح وموضع مغلق . ومع ذلك فقد أتى التكيف البشرى والتاريخى ازاء هذه المتناقضة فى كل منهما مختلفا تمام الاختلاف

فمصر أخذت من انفساح الموقع الانطلاق الحضارى والتطور الخلاق ، ولم تأخذ من انغلاق الموضع الا صلابة الشخصية الذاتية وربما كذلك التوطن السكانى

---

(١) حسين ذو الفقار صبرى ، « الحضارة المصرية افريقية ام أسيوية » ، المجلة ، يناير ١٩٦٧ ص ١١

(٢) ص ٣

الذى وصل الى اقصاه فى الاستقرار وعدم الهجرة .
اما اليمن فعلى العكس قد اخذ من الموضع الانطواء الحضارى والعزلة البدائية التى تكاد تجعله « دولة تبتية » متخلفة فى أكثر من معنى ، بينما لم يأخذ من الموقع الا الانتشار والتشتت السكانى حيث أن الهجرة والانتشار ظاهرة مزمنة قديمة فى المجتمع اليمانى : قديما منذ سد مأرب حين تشتتوا ايدى سبأ ، وحاليا حيث أصبح هناك « مهجر » يمنى حقيقى فى شرق افريقيا وشمالها

وقد يمكن أن نمد مقارنتنا بعد هذا الى لبنان ايضا . فهنا كذلك موضع جبلى منعزل تاريخه الحماية والالتجاء ، ولكنه فى نفس الوقت فى موقع بؤرى جدا يمثل مجمع المشرق العربى . وقد جاء التكيف البشرى هنا متطرفا جامحا بعض الشيء : كرر من اليمن تشتته وهجرته بصورة مكبرة وصلت الى حد الاقفار depopulation ، وكرر من مصر المرونة الحضارية ولكن ايضا فى مبالغة قد تصل الى الاندفاع . وبين الهجرة والانتشار من ناحية والتنافر الحضارى من الناحية الاخرى كاد أن يكون « دولة سويسرية » تنقصها الشخصية الذاتية المتبلورة

هكذا نجد فى المشرق العربى حالات ثلاث من التعارض بين توجيه الموقع وتوجيه الموضع ، ولكن بينما هى تنتهى حضاريا فى اليمن الى جمود وتدهور ، وفى لبنان الى تميع وتهور ، تنتهى فى مصر الى توازن وتطور ، ولعل هذا يؤكد كيف أن شخصية مصر الكامنة هى دائما فى ملكة الحد الاوسط وفى عبقرية الحل الوسط

البناء الحضارى والأساس الطبيعي

بين مياه النيل وطريق السويس

ما الاساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور ، بمحمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى الى تراث مادى وهيكل اجتماعى ؟ هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس **Substructure** مع عظمة الصرح **Superstructure** وما هى نقط القوة والضعف فيه ؟

لعل أخطر حقيقة تجبه المفكر الجغرافى فى هذا الصدد أن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر « خارج الحدود» ، سواء ــ وهنا المصادفة الجغرافية العجيبة ــ فى ذلك جانب الموضع أى الوادى الزراعى ، أو جانب الموقع أى تجارة المرور . وليس من الصدفة أن العدوان الثلاثى على مصر الثورة لم يكن يستهدف القناة وحدها ، بل ومشروع السد العالى كأمل بعدها أو قبلها . ولهذا يأخذ الموضوع توا شكلا سياسيا الى جانب الشكل الطبيعى . ويصبح من اللازم أن نحقق القضية التى يثيرها البعض أحيانا فى غموض وهى : هل مصر قصر فوق الرمال ، وبناء سامق على أساس خطر **vulnerable** هل هذه حقيقة نقطة ضعف فى شخصية مصر التاريخية

وكيانها الجغرافى ؟ وهل هو الشعور الحدسى الفطرى بذلك كله عند المصرى العادى ــ المصري المؤمن القدرى ــ الذى يرقد خلف تلك الكلمة المأثورة التى قيلت منذ مئات السنين : « مصر كنانة الله فى أرضه ، من أرادها بسوء قصم الله ظهره » ؟ أهو الذى يكمن خلف هذه الكلمة الدارجة الحديثة « مصر المحروسة » ؟ لنبدأ مناقشتنا بالموضع ثم نثنى بالموقع

الموضع

كان هيرودوت جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا حين قال أن مصر هبة النيل . ويمكن لجغرافى اليوم أن يضيف : هبة النيل الازرق ، ذلك أن ٦٦ ٪ من مياه مصر تستمد فى المتوسط من هذا الرافد وحده . والحقيقة الاولى فى الوجود المصرى هى أن مصر هى النيل ، فبدونه لا كيان لها ليس فقط من حيث مائه ، وانما أيضا من حيث تربته ، فان الغرين الخصب المتجدد هو جزئيا هدية غير مقصودة من رعاة الحبشة حيث يساعدون برعيهم على تعرية التربة (١) . ان النيل لا جدال « أبو مصر » (٢) منه استمدت جسمها ودمها ، أو طميها وماءها ، وكل هذا من صلب الحبشة نحت

ولكن من الناحية الاخرى قد يمكن أن نزعم ــ بقليل من مبالغة ربما ــ أن النيل بدوره هو مصر . فحوض النيل كله يستقطب حضاريا فى مصر حيث لا نجد مركز الثقل فى الحوض انحدارا ومائية فحسب ، بل واقتصادا وسكانا ، وحضارة وتاريخا . فالقمة البشرية هى القاع

---

(١) E. Hyams, Soil & Civilization, 1952 p. 46

(٢) H. Lorin, L'Egypte d'Aujourd'hui, Le Caire. 1926, p. 129.

الطبيعى والمصب الطبيعى هو المنبع الحضارى ـ والعكس . لقد صدر المنبع الحياة الى المصب ، وصدر المصب اليه الحضارة ، هذا صدر خاما وذاك أعاده مصنوعا . واذا صح ان نعتبر كثافة السكان مقياسا أو انعكاسا جزئيا للحضارة ، فقد يمكن أن نقول ان كثافة الحضارة فى الحوض تتواكب مع كثافة السكان وتكاد تتناسب معها تناسبا طرديا بصفة عامة ، فى نفس الوقت الذى تتناسب عكسيا مع منسوب الارتفاع وكنتور التضاريس

بل قد لا نبعد كثيرا عن الحقيقة العلمية اذا طبقنا بروفيل « قطاع الوادى valley section » الذى اصطنعه باتريك جديس على حوض النيل من منبعه الى المصب . فمن مرتفعات وجبال المنبع فى هضبة البحيرات والحبشة بحطابها التقليدى وصيادها ، الى سهول الوسط فى السودان براعيها وفلاحها الفقير ، الى المصب فى مصر بفلاحها الفنى وفلاحة البساتين فى الصعيد والدلتا ـ ثمة متتالية تصاعدية مطردة لا شك فيها (١) . وليس يقلل هذا من تراث أجزاء الحوض الاخرى خارج مصر ، ولا هو يجحدها فضلها ، سواء فى ذلك حضارة البحيرات « البحيرية » أو دولة اتيوبيا التى تعد أقدم أمة فى افريقيا المدارية ، أو سهول السودان العربى بثقافتها الوسيطة

على أن المهم فى هذا أن موارد المياه فى مصر لا تسقط عليها فى الداخل وانما « تدخلها » من الخارج ـ على بعد بضعة آلاف من الاميال . اى أن هذا البناء القمى الشاهق الذى يتوج حضارة الحوض يستمد وجوده من

C.C. Fagg; G.E. Hutchings, Introduction to Regional Surveying, C.U.P., 1930, pp. 135-9.

مصدر خارجى . ومصر بهذا شبه واحة « متدخلة »
فيزيوغرافيا intrusive ، ولكن حكمها هيدرولوجيا
حكم الواحة التى تنبع آبارها خارج رقعتها أو حكم
الجزيرة التى يقوم اقتصادها على التبادل الخارجى .
انها باختصار نموذج البيئة الفيضية الكامل و « دولة
الرى » المثالية فى العالم ، تلك التى يقع أساس حياتها
خارج حدودها السياسية (١) . وتلك لا شك نقطة
حرجة فى الاساس الطبيعى لكيان اى دولة . وبهذا
صارت الاخطار الكامنة فى الاعتماد على النهر مزدوجة :
اخطار فى نظام النهر الهيدرولوجى ، واخطار فى السياسة
المائية . ولنبدأ بالاولى أولا

ثمة ابتداء حقيقتان اوليتان لابد ان نتذكرهما كنقاط
قوة أساسية للزراعة المصرية ، وذلك قبل أن نحلل
مخاطرها ومحاذيرها . فالتربة المصرية أولا تربة متجددة
على السنين وكل السنين ، وهذا مصل طبيعى مضاد
للاجهاد والاستنزاف . وبالتالى فان الزراعة المصرية
تتصف بالثبات والدوام ، فهى ليست زراعة دورية
تجود سنة كل بضع سنوات ، فضلا عن أن تكون زراعة
مهاجرة أو متنقلة . من هنا وهناك الثبات والاستمرار
الخارق فى العمران والحضارة المصرية

الحقيقة الثانية هى أن الزراعة الفيضية بعامة رغم
خضوعها نهائيا لضبط « المناخ البعيد » ، فمن المؤكد
انها أكثر استقرارا وثباتا واقل ذبذبة من الزراعة المطرية
التى تعتمد على المناخ المباشر . ولعل هذا يرجع الى أن
آثار الذبذبة المناخية فى الاخيرة تنعكس على المحصول
مباشرة ، أما فى الاولى فهناك فارق زمنى يخفف من وقع

(1) S. V. Valkenburg, Elements of Political Geog., p. 118.

الصدمة كما أن مصادر التغذية المائية تتعدد غالبا فى مثلها ...

وفيما عدا هذا ، فلقد كانت نزوات النهر ـ كعنصر طبيعى بحت ـ ضابطا عشوائيا بما فيه الكفاية لمصائر السكان والحياة فى مصر . وصحيح أن فاعلية النهر لم تكن يوما وظيفة مباشرة للنهر نفسه ، للفيضان وحده ، وانما لضبط النهر كذلك ، لدور الانسان كعامل ترشيدى تثبيتى له . ومع ذلك فذبذبات النهر تبدى معدل تفاوت variability مرتفعا كثيرا ما سخر من جهود السكان وهزم أغراضهم . ومنذ وقت مبكر وأخطار الفيضان الجامح أو الضعيف تظهر فى سجلات مصر الفرعونية ، ومعها قصص المجاعات ابتداء من زوسر الدولة القديمة حتى يوسف الحديثة .

ولكن ما سجله لنا المؤرخون العرب فى العصور الوسطى بأمانة يؤلف وثيقة مفصلة لنقطة ضعف متأصلة فى الزراعة الفيضية يمكن أن تصل الى حد النقطة السوداء . ففى أوائل العصر العربى مثلا كان منسوب ١٦ ذراعا لارتفاع الفيضان عند المقياس هو الحد بين الكفاية والحاجة حتى سميت « ملائكة الموت » . فاذا ما ارتفع الى ١٨ ذراعا كان فيضانا « سلطانيا » وعم الرخاء . فاذا ما تعدى علامة العشرين كان «الاستبحار» أى الغرق للأرض والزرع ، وقد يصل الى « اللجة الكبرى » أى الطوفان الكاسح ، وهذا يعنى غالبا « الطاعون » أو الوباء حيث يتحول الوادى الى مستنقع ملارى كبير .

أما اذا هبط النهر عن الحد الفاصل ١٦ ذراعا فهى « الشدة » التى قد تصل الى « المجاعة » . واذا كان الفيضان المغرق يعنى الطاعون ، فان المجاعة كانت تعنى

« الموتان » الذى قد يصل الى حد ينشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة . والمجاعة ملمح تعس يبرز فى تاريخ مصر الوسيط بشكل ملح مؤسف كالنقطة السوداء الحقيقية ، حتى انه قد سجل منها فى خمسة قرون من القرن الرابع عشر الى الثامن عشر نحو ٥٠ وباء ومجاعة أى بمعدل مرة كل ١١ سنة (١)

وقد كانت المجاعة والوباء هى القوى الوحيدة تقريبا فيما نعلم التى استطاعت أن تقتلع المصرى من جذوره ، وتحول الوادى الى اقليم طرد بشرى مؤقتا . فالتاريخ ابتداء من مؤرخى العرب حتى علماء الحملة الفرنسية يسجل بعض حالات نادرة من « الانتشار » المصرى الى الشام خاصة والى برقة أثناء تلك الكوارث ، كما يذكر البغدادى الذى يصل بالشتات الى المغرب والحجاز واليمن أيضا ، بينما يقول فولنى بعده بقرون عن الفلاح المصرى عقب قحط ووباء ١٧٨٣ « رأيته أغرق سوريا ، ففى يناير ١٧٨٥ كانت شوارع صيدا وعكا وفلسطين تعج بالمصريين.. وربما توغلوا حتى حلب وديار بكر» (٢)

ولعل أشهر وابشع المجاعات ما سجل البغدادى أثناء « الشدة المستنصرية » التى استمرتبضع سنين متصلة فى أخريات الفاطمية ، وانحدرت فى مراحلها الاولى الى النمنمية anthropophagy ثم الى أكل التربة والجيفة geophagy وذلك حين لم يعد يوجد الناس الذين يؤكلون (كذا !) ، وانتهت بفناء رهيب للسكان

---

(١) G. Hamdan, Pop. of Nile Mid-Delta, Thesis, 1953, vol. I, p.164

(٢) M. Volney Voyage en Syrie et en Egypte, Paris, 1787, t.I, p. 176.

depopulation لا يملك قارىء البغدادى معه الا أن يتصوره فناء كاملا أو شبه كامل .

والتفاصيل التى يرويها البغدادى كشاهد عيان مذهلة ، ولا يمكن أن يتخيلها من لا يقرؤه مباشرة (١) ، ولسنا نعلم مبلغ الدقة والصحة فيها تماما ، الا أن تكرار الرواية والتفاصيل المشابهة فى أزمات أخرى سابقة ولاحقة عند كل المؤرخين المعاصرين ، لا يمكن أن يترك مجالا للشك فى هامش منها على الأقل . ويكفينا دليلا أن مصر فى نهاية عصورها الوسطى أيام الحملة الفرنسية كان قد انحدرت الى ٢ر٥ مليون نسمة ، ولو اننا لا نغفل دور اتضاع المستوى الحضارى والادارى حينذاك الى نقطة الصفر

والواقع أن مصر الزراعية الكثيفة الفنية كانت تعيش بطبيعتها فى أغلب تاريخها فى حالة افراط سكانى overpopulation ، أو على الأقل فى حالة تشبع سكانى كامل . ولهذا فان أدنى هزة فى موارد المياه والزراعة ما أسرع ما كانت تترك أثرها فى السكان برجة تخريبية وتناقص نكبائى خطير . وفى الجغرافيا البشرية أن من أقرب المناطق الى افراط السكان أكثرها كثافة . وكذلك كان الرخاء المعتاد فيما يبدو من مضاعفات آثار المجاعات ، وفى هذا يقول ابن خلدون « فالهالكون فى المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق » (٢) . ولعل هذا كله أن يفسر لماذا كانت العرب تقول : ان مصر أسرع الأرض خرابا (٣) . ويقول المقدسى « هذا الاقليم اذا أقبل فلا تسأل عن

---

(١) Abdollatiphe etc.
(٢) المقدمة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ : ص ١٠٠
(٣) خطط المقريزى ، ج ١ ص ٤٠

خصبه ، واذا اجدب فنعوذ بالله من قحطه » (١)

والشيء الغريب والمثير حقا أن العلاقة التى نعرفها اليوم بين ذبذبات النيل ونزوات الفيضان وبين مصدر الرياح الموسمية الهندى لم تكن مجهولة تماما فى العصور الوسطى . فكما يذكر المسعودى « قالت الهند زيادة النيل ونقصانه بالسيول ، ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وكثرة الامطار » (٢)

ودراسة التاريخ العمرانى فى مصر تطلعنا بعد هذا على دورة حضارية أساسية تتكرر فيه على ايقاع النهر وضبطه . فالملاحظ أن مراحل ضبط النهر الكفء تنعكس على الوادى بالاتساع وغزو الصحراء والبور والبرارى وربما الواحات ، ويتمدد الغطاء السكانى فى الأطراف والهوامش خاصة شمال الدلتا التى تتحول حينئذ الى « جبهه رياده pioneer front» فتية طليعية ، بل ويمتد وقع الدفعة الى الموانى البحرية فتزدهر وتتكاثر . أما حين يفشل الفيضان أو ضبط النهر فانه اذن الانكماش العمرانى وغزو الملح والرمل ، أو البحر والصحراء للمعمور ، وهو اذن التراجع عن الهوامش خاصة شمال الدلتا حتى ليبدو جسم المعمور وقد زحف الى الجنوب ككل ، وتتقلص الواحات ربما ، وربما انقرضت بعض الموانى خاصة على البحر الاحمر . ذلك قانون ايكولوجى عرفته مصر بانتظام ، ويمكن أن نسميه قانون « النبض الهامشى » لأن وقعه أوضح ما يكون فى هوامش المعمور وأطرافه بحسبانها أكثر حساسية وتذبذبا من قلبه ، وهو دليل على أن النهر ضابط ايقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية

(١) أحسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ ، ج ١ ص ١٩٨
(٢) خطط المقريزى ، ج ١ ص ٩٥

بل ان دراما التاريخ الحضارى المصرى برمتها وعلى طولها يمكن أن تختزل أساسا فى صيغة صراع ملحمى بين المصرى والنيل ، تؤلف أدواره وفصوله « ساجا » ايكولوجية حقيقية تبدأ بالعنصر الطبيعى سيد الموقف بل الها يعبد وتنتهى أخيرا باليد العليا للعنصر البشرى . أو هى ساجا جيوتكنية geotechnic بالاحرى والدقة ، فقد كانت تكنولوجيا اللاندسكيب الطبيعى من وسائل هندسية ومعمارية وضوابط ومنظمات وسدود هى أداة الانسان لترويض النهر وتعبيده وتبشيره

وعلى هذا الاساس يمكن أن نميز عدة مراحل متعاقبة تمثل زحف الانسان المتصل الصاعد النظيم ، ونستطيع أن نستعير لها اصطلاحات جديس وممفورد عن الفن الحضارى عامة (١) . فالمرحلة الاولى مرحلة فجر الفن الزراعى eotechnic ، وهى التى سبقت اكتشاف الزراعة بمعناها الصحيح وتقع قبل التاريخ . وفيها كان النيل كل شىء والانسان — تقريبا — لا شىء ، مجرد مقلد للطبيعة وأسير للنهر

ثم كانت مرحلة الفن الزراعى القديم palaeotechnic وهى زراعة الرى الحوضى التى كانت انبثاقا طبيعيا عاش تاريخا ألفيا طويلا يحتل الجزء الاكبر من تاريخ مصر . وبالحياض صار الفلاح مهندسا جغرافيا أعاد خلق الطبيعة الى حد ما وجعل من شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى . الا أن استغلال الارض الحوضى بدأ استغلالا جزئيا حيث اقتصر أولا على ضفة النهر اليسرى . ولكنه حتى بعد أن شمل الضفتين لم يعد

(١) P. Geddes, Cities in Evolution, 1915; L. Mumford, Culture of Cities, 1946, pp. 395

ان يكون استغلالا نصفيا ، وذلك لأنه كان اســتغلالا فصليا موسميا بحتا يتبع دورة الفيضان ويترك الارض الزراعية « صحراء سوداء » نصف العام · ولعل شيئا لا يلخص دورة اللاندسكيب المصرى فى ظل النظام الحوضى كقولة عمرو الشهيرة (١) عن لؤلؤة بيضاء (التحاريق) فاذا هي عنبرة سوداء (الفيضان) فاذا هى زمردة خضراء (زراعة الشتاء) فاذا هى ديباجة قشاء (الحصاد) · وعموما فقد كان النظام الحوضى نوعا من « الزراعــة الجافة » واقتصادا واسعا بلا كثافة ، وكان الانتــــاج الزراعى اقتصادا معاشيا فى جوهره ، وبالتـــالى كانت امكانيات او طاقة التشبع بالسكان متوسطة تتــــراوح حول + ، ــ ١٢ مليون نسمة كما قدر · من هنا ظـــل الانسان تحت رحمة النهر ، وكانت تلك المجاعات والازمات التى ذكرنا ··

ومنذ قرن ونصف قرن فقط ، فى أوائل القرن الماضى، تبدأ المرحلة الثالثة ، مرحلة الفن الزراعى الحـديث neotechnic التى تعــد طفرة حقيقيــة قلبت هيكل الزراعة المصرية . فمنذ « عصر السدود والخزانات » كما يمكن أن نسمى هذه المرحلة ، ثور فن العمــارة الهيدرولوجية هندسة النهر الجغرافية ، فأضافت الى الرى النيلى الرى الصيفى وحققت بذلك الرى الدائم ، وأصبحت الزراعة « زراعة رطبة » حقا . والانقلاب فى جوهره كيفى أكثر منه كميا ، وكان توسعا رأسـيا أساسا قبل أن يكون توسعا أفقيا ، وبه تضاعفت الكثافة لا المساحة . فاذا كانت المساحة المزروعة اليوم تدور فى حدود الستة ملايين فدان ، فان المساحة المحصوليــة تقع فى أفق العشرة ملايين

(١) ابو المحاسن ،النجوم الزاهرة، القاهرة ١٩٢٩ ج ٢ ص ٣٣

وأهم من ذلك التغيير النوعى فى المركب المحصولى . فبعد أن كانت مصر مزرعة شتوية قوامها الحبوب وهدفها الاستهلاك المحلى والكفاية الذاتية ، أصبحت حقلا منتجا على مدار السنة ، الألياف - القطن الثمين - محوره والزاوية ، والسوق العالمية مصبه ، والاقتصاد التبادلى التجارى طبيعته . وبذلك كله تضاعف الدخل القومى وقفز سقف السكان الى طاقات لا وجه لمقارنتها بالماضى الحوضى على الاطلاق

غير أن الرى الدائم لم يكن يمثل الاستغلال الأقصى للبيئة maximum use . فهو وان كان يستغل الارض طوال العام ، فان جوهره قام على استغلال الماء من عام الى عام ، أى على « التخزين السنوى » . فكان بالضرورة نظاما متلافا ، مضيعا لحصيلة ثمينة من ماء الفيضان تذهب الى البحر بددا كل عام . والمقدر أن نسبة عالية من مائية النهر تضيع هكذا فى السنين العادية . كذلك فرغم أن النهر قد روض واستؤنس الى حد تحييد أثر الفيضان نوعا والحد من معدل تفاوته ، فان خطر الفيضان العالى والواطى ظل معلقا فوق الرءوس . وفى الوقت الحالى يقدر أن الانتاج الزراعى فى مصر لم يزل يتأرجح نحو ١٠ وحدات فى الاتجاهين حول رقمه القياسى ١٠٠

على أن ضبط النهر فى مصر يدخل مرحلة ثورية جديدة - رابعة - مع السد العالى : المرحلة البيوتكنية biotechnic . فالسد جراحة جغرافية من أدق وأشق ما أجرى الانسان على وجه الارض ، وستفعل بالنيل ما فعلت جراحة قناة السويس للعالم القديم ، ولا يكفى قط أن نقول T.V.A. على النيل كما قال البعض (اشارة الى مشروع وادى التنسى فى الولايات

المتحـدة) . ففى موضـعه المحلى يعيـد السد خلق اللاندسكيب الطبيعى ويعيد تشكيل الفيزيوغرافيا المحلية من أساسها : انه يحول الجغرافيا الطبيعية هناك الى جغرافيا تشكيلية : مجرى النهر يتغير ، بحيرة صناعية كبرى تتخلق ، دلتا داخلية غارقة تتكون ، وانقـلاب حقيقى فى الارساب والتعرية ... الخ . باختصار ، انه يخلق شكلا رابعا للمادة

أما عن المائية ، فبدلا من « صهريج الماء » الذى كان خزان أسوان ، سيكون دور السد العالى دور « بنك الماء » ، ها هنا سيكون قصر من أعظم « قصور الماء » فى العالم كما يقول الفرنسيون . فالسـد سيستبدل التخزين السنوى « بالتخزين القرنى » أى التـراكمى المستمر على مدار السنين . ومن ثم فان قطرة من مياه النيل لن تتبدد الى البحر ، فيما خلا أوشـال الصرف بالضرورة والتى لولاها لقلنا مجازا ان النيل سيتحول الى نهر داخلى وان مصر ستتحول من مصب حوض الى حوض صرف ! وسيستوعب السد ١٣٠ مليـار متر مكعب ، مقابل ٥ مليار لخزان أسوان ... حصـيلة تتعدى أعرض أحلام مهندس الرى

والسد الى هذا سيلغى الفيضان ببساطة ، لن يكون ثمة فيضان بعد الآن ، بل سيتحول النهر الهادر الى مجرد ترعة رى كبرى ! ومن الناحية الاخـرى ، فلن تكون تحاريق كذلك . أدق ــ لهذا ــ من أن نقول لن يكون فيضان ، أن نقول ان النيل سيعيش فى فيضان مستمر ، بدل الفيضان الطبيعى الموسمى سيخلق السد فيضانا اصطناعيا دائما . أما خطر الفيضان الجامح أو العاجز فقد نفى الى الابد

وبديهى بعد هذا أن تنقلب الزراعة من جديد : فلآخر

مرة يتم دفن بقايا الري الحوضي نهائيا في مصر : توسع رأسي يعني . ولاول مرة تحدث طفرة حقيقية كبرى في المساحة المزروعة قد تصل في النهاية في بعض التقديرات، الى ما يعادل ثلث المساحة الحالية : أي توسع أفقي يصل الى آخر آفاق الوادي في الداخل والى سيف البحر في الشمال . بل ولأول مرة سيجعل النيل نهرا أسيويا في جزء منه بعد أن كان افريقيا فقط ، وذلك باستطالته الى سيناء تحت القناة

تلك اذن قصة الصراع المزمن بين المصرى والنيل في أدواره المتطورة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ في البدء كانت المعادلة : انسان خاضع للنهر ، ونهر خاضع للبحر ، الأول يعيش تحت رحمة الثاني ورهن نزواته ، والثاني يدفع ضريبته السنوية صاغرا للثالث . والان تقرأ المعادلة : نهر استقل تماما عن البحر فلن يفقد له قطرة ماء ، ولكنه أصبح من الناحية الاخرى تابعا مطلقا للانسان . لقد تم ترويض العنصر كما لم يروض من قبل : ستنزع عنه أسنانه ومخالبه ، أو كما عبر البعض ان النهر الذى كثيرا ما فقد عقله سيمنح لأول مرة عقلا بل وضميرا . النهر الذى طالما تحكم في رقابنا ، قد تحكمنا أخيرا في رقبته

انها ثورة كاملة من ثورات البيئات ، صنعت لمصر جغرافيا بشرية جديدة بكل وضوح . والدرس الجغرافي في هذا كله هو أن موضعنا ليس من المعطيات الطبيعية الجامدة الصماء ، بل هو بنفس الدرجة وظيفة لحضارة الانسان وتكنولوجيته ، والفارق بين البداية والنهاية انما هو الفارق بين تكنولوجيا فجر التاريخ وبين تكنولوجيا اجتمع لها أعظم ما وصل اليه انسان القرن العشرين

واذا كنا قد ألفنا منذ هيرودوت ومعه أن نقول ان

مصر هبة النيل ، فذاك يعنى فى الواقع النيل القديم ، النيل الطبيعى ، وصح لنا أن نقول ان النيل الجديد المصنوع هبة السد . النيل الجديد بمعنى آخر هبة مصر ــ قلب كامل لمعادلة أبى التاريخ الخالدة ! ومع ذلك فلم تكن مصر فى يوم هبة النيل أكثر مما هى الان بعد السد . ولئن بدا فى هذا تناقض على السطح ، ففى هذه المتناقضة الفريدة تكمن طبيعة العلاقة الدفينة بين النيل والمصرى : فهى علاقة اخصاب متبادلة من التأثير والتأثر ، من الطاعة والتطويع : هذا خلق ذاك ، وذاك يعيد خلقه . انهما لم يعودا عنصرين متلاقحين فى مركب واحد ، وانما أوشكا أن يذوبا فى عنصر واحد

وبعد تاريخ الفى حافل كهذا ربما كانت أرض مصر اكثر أرض فى العالم « تبشيرا » ، فلا يكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الانسان أو لا يتشبع بعرقه . ويبرز الانسان فى البيئة كعامل جغرافى أصيل . واذا كان يقال ان الله خلق الريف والانسان صنع المدينة ، فقد لا نسرف كثيرا اذا قلنا ان الريف والمدينة هنا على حد سواء من صنع الانسان

أما من ناحية الاساس الطبيعى لبنائنا الحضارى ، فالسد يعنى بالنسبة للسكان تأمينا ، ولكنه يرقى بالنسبة للنهر الى نوع ضخم من « التأميم » . نعم فلقد أمم الشعب أضخم « مرافقه » الطبيعية ــ النهر ــ وأخضعها لملكيته الكاملة . واذن فلا معنى بعد للتقول بخطر الاساس الطبيعى الذى يقوم عليه بناؤنا الحضارى والعمرانى وبالتالى كياننا السياسى . ولا غرابة اذن اذا كانت هذه الانجازة الخالدة لم تأت الا مرتبطة بحرب حقيقية عدوانية ، ومنتزعة من بين أسنان العدو الاستعمارى

لكن السؤال الآن : اذا كان الانسان قد حيد العنصر الطبيعي في الوجود المصرى وسخره ، فماذا عن العنصر البشرى حيث لا زال ماء الحياة يأتي من وراء الحدود ؟ ان النزوات الانسانية والسياسية يمكن أن تجد مجالا واسعا كنزوات العنصر الطبيعي . ولكنا سنجد أن هذا لا يمكن في حالتنا الا عن سوء فهم أو سوء نية . والنيل كنهر من أطول أنهار الدنيا لا يمكن أن يكون ـ كالانهار المتوسطة أو الصغيرة ـ وحدة بشرية أو سياسية واحدة . ومنذ وقت مبكر حسد بعض سكان المنبع المتخلفين ـ وهم في اعتقادهم المصدر ! ـ سكان المصب المتقدمين.

ولكن العداء الحقيقي اتى من الدخلاء على الحوض . فالبرتغال بعد أن خنقوا مصر موقعا بطريق الرأس ، فكروا في أن يخنقوها موضعا عن طريق أعالي النيل . فنجد أحد المغامرين الفاتحين conquistadores — البوكيرك ـ يتصل من ساحل المحيط الهندى « ببرستر جون » ملك الحبشة لكي ينفذ حلمه الفاوستي الشرير بشق مجرى من منابع الازرق الى البحر الاحمر فتتحول المياه اليه وتترك مصر بعد فطامها تموت جفافا حتى تختفي من الخريطة لتصبح من «الواحات المفقودة» التي يحتفظ التاريخ بقائمة طويلة منها ! ولكن بطبيعة الحال لم يكن لمثل هذا المشروع الجنوني من مكان الا سلة مهملات التاريخ ..

وقد عادت الفكرة في صورة مخففة فيما بعد على يد الاستعمار البريطاني في السودان وشرق افريقيا . ففي السودان اتخذ من مياه النيل أداة للضغط السياسي

والمساومة الاستعمارية يرغم بها مصر على الخضوع له ، وانتحل حججا مكشوفة ـ تذكر حادثة السردار ـ ليخلق عقبات فى مجرى النهر يسلب بها مصر جانبا من الماء . وفيما بعد أثناء الأزمات السياسية بين مصر وبريطانيا كثيرا ما ارتفعت أصوات تطلب « منع » مياه النيل عن التدفق الى مصر ، كما حدث فى أزمة السويس ! كذلك عمدت بريطانيا قبل تركها لوحدات شرق افريقيا الثلاث الى استثارتها للمطالبة بحصص فى مياه النيل . ولقد كانت آخرة المهازل حين هددت الانفصالية فى كاتنجا الكنغو بتحويل منابع النيل بها عن طريقها الطبيعى ردا على موقف مصر الاستنكارى لها ! ومن الواضح أن كثيرا من هذه التهديدات الصبيانية تنبع من جهل تام بحقائق الطبوغرافيا والهيدرولوجيا ولا يغذيه الا سوء النية . أما الباقى فينقصه حسن الفهم والبصيرة . ويمكننا أن نفصل الرد عليه فى نقطتين

فأولا مياه النيل تتجه الى مصر فى النهاية كظاهرة طبيعية ، وقد قامت عليها فى مصر حياة بشرية كاملة قبل أن تعرف المنابع العليا السكنى المستقرة المنظمة فى أى صورة . وهى بهذا حق مكتسب شرعا ، « حق ارتفاق » تاريخى وجغرافى ، يعترف به القانون الدولى والشريعة الجغرافية معا

واذا كان كاتب مثل بومان يقول « ان عليها (مصر) أن « تستورد » الماء من المرتفعات الجنوبية تماما كما أن على انجلترا أن تستورد غذاءها من وراء البحار » (١) فان هذا قياس مع الفارق ـ الفارق بين الملكية الذاتية الطبيعية والتجارة المتبادلة الحرة

---

(١) Isaiah Bowman, The Pioneer Fringe, American Geogr. Society, N.Y., 1931 p. 43.

ثانيا ، ان الطبيعة قد وازنت وعوضت تلقائيا بين المطالب والحاجات الحقيقية من الماء لكل قطاع بالنهر . فبانتظام مطرد يقل اعتماد كل قطاع من النهر وحاجته الطبيعية الى مياه النهر كلما صعدنا من المصب الى المنبع ، ويتحول دوره من ترعة تغذية الى مجرد مصرف طبيعى ، وذلك لأن المطر يزداد باطراد فى ذلك الاتجاه . وهذا التكامل الطبيعى فى النظام النهرى بين عنصرى الهيدرولوجيا والتساقط حقيقة بديهية تجب كل دعوى مفرضة أو مسرفة . فلا يمكن أن يكون لاوغندة أو كينيا مثلا أى فائدة فى أكثر من بضعة ملايين من الامتار المكعبة ، ولا جدوى للسودان أو أثيوبيا فى أكثر من بضعة مليارات محدودة تكمل بها حصتها الطبيعية من المطر السودانى أو الموسمى . ولهذا تظل الأغلبية العظمى من مياه النيل لا حكرا مغتصبا لمصر ولكن ارثا طبيعيا لها ... وبالفعل جاءت اتفاقية مياه النيل الاخيرة بين مصر والسودان مؤكدة لهذا المعنى

وعدا هذا ، فسيلاحظ اخيرا أن أهم مشاريع الرى المصرية ، وان كانت بالضرورة على هامش المعمور أو خارجه ، قد أقيمت داخل الحدود المصرية لتكون فى ضمان ومنأى عن الضغوط السياسية كما أثبتت تجربة خزان جبل الاولياء . وهكذا أقيم سد أسوان فى أقصى جنوب مصر ، ثم من بعده السد العالى الى الجنوب منه مباشرة . وقد كان الموقع « القومى » من العوامل الحاسمة فى تفضيل مشروع السد العالى على شبكة مشروعات أعالى النيل التى اشتدت الدعوة لهـا فى الثلاثينيات والتى كان مفروضا أن تبدأ من أوغندة حتى الحبشة والسودان وأن تلقى تأييدا وتمويلا أسهل من

الدول الكبرى (١) ـ تأيدا وتمويلا لم يقصد بهما الا أن يكونا الطعم الذى يستدرج الفريسة الى رحمتها وتحكمها ..

ومن حسن الحظ أن شكل الوادى الخطى فى الصعيد وان لم يكن الأمثل اقتصاديا فله قيمته الاستراتيجية : فهو يعطي لمصر عمقا جغرافيا كافيا يجعل هذه السدود ـ صمامات حياتنا القومية ـ على بعد معقول من أخطار أعداء الشمال الجوية . كما ان هذه « القصور المائية chateaux d'eau » قد صممت بحيث لا تنال منها افتك الاسلحة الجوية الحديثة

الموقع

الموقع ، كمحصلة جغرافية لشبكة منظورة وغير منظورة من العلائق والقيم المكانية والوضعيات الاقليمية، لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون زمامه فى يده مباشرة ، ولذا لا يمكن أن يكون خاصية أو ثروة مضمونة . انه بطبيعته مخاطرة جغرافية . والموقع بعد هذا فى راى البعض « مواد طفيلية » ، اى انه فضول مقحم أو انتهازى وليس عنصرا أصيلا فى البيئة الطبيعية . ولكن هذا الزعم ان لم يكن نظرية مغرضة أو استعمارية ، فهو راى فج خطير . فالموقع ليس مجرد عامل جغرافى رئيسى ـ أكثر العوامل الجغرافية « جغرافية » كما يقول بيرجر Bürger ، ـ ولكنه أيضا رأسمال طبيعي وسياسى دفين ومورد أصيل من موارد الثروة القومية ، بل قد يكون فى حالات الراسمال الحقيقى الوحيد للدولة أو المنطقة وفى مصر بالذات لن تفهم كيانها أو تاريخها صحيحا

(١) The Middle East : A Political. Economic Survey, Roy-Inst-Intern-Aff., Lond., 1958, p. 236.

خارج اطار الموقع وبغير الاشارة اليـــه . وسنرى أن ذبذبات موقعنا التاريخية لا تقل خطورة كضابط لوجودنا عن ذبذبات النيـــل ، الا أن الأولى ذبذبات طويلة المدى وحدتها قرون وعصور ولذا فهى آحاد معدودات ، بينما الثانية قصيرة المدى جدا ووحدتها تختزل الى بضـــع سنين . ولقد مر موقع مصر ــ من الوجهة التجارية ــ فى عدة مراحل ودورات من الارتفاع والانخفـــاض ، أو البروز والكمون والانزواء ، يمكن أن نتتبعها فيما يلى

ففيما قبل العصر العربى كان دور الموقع موجـــودا ولكنه كان محدودا ، فهو دور النشأة . فمن ناحية لم يكن محيط العالم المعمور الفعال قد توسع بعد كثيرا ، ولم يكن الشرق الأقصى قد دخل فى دائرة العـــلاقات المتواترة مع الغرب الاقصى . ومن ناحيـــة أخرى فان مستوى الحضارة من امكانيات ملاحية وحاجات معيشية كان لا يزال قاصرا . ومن هنا كانت أغلب تجارة شرقنا القديم اقليمية تدور فى فلك المنطقة أكثر منها عالمية بين المناطق المحيطة . ومعنى هذا فى الحقيقة أن تحقيـــق موقعنا الجغرافى بمعنى الكلمة لم يكن من عمل العصر الفرعوني أو الكلاسيكى ، وسنرى أنه مساهمة العصر العربى أساسا

فمع العرب يبدأ الدور الثانى ، دور النضج ، الذى وصل الى ذروة تاريخية رائعة . فقد بدأ الموقع يحتل مكانه فى الاقتصاد المصرى كراسمال حقيقى مع اتســـاع نطاق تجارة المرور العبورية بين الشرق والغرب فى ذلك التاريخ بالدقة . والشرق هنا كل الشرق والغرب كل الغرب ، بحيث تحولت منطقة العالم العربى الى «خاصرة العالم القديم» تلقائيا كأنها الميدلاندز فيـــه بين قطبى الانتاج والسكان فىالشرق الاقصى وغرب أوربا : أصبحت

ممرا تجاريا بين مقرين قطبيين (١) . واذا كان هذا قد جعل الشرق الاوسط هو الشرق الوسيط فى تجـارة المرور ، فان جناحيه فى الهلال الخصيب من ناحية ومصر من ناحية أخرى هما المحوران الاساسيان فى ذلك الممر ، والسبب أنهما يستقران على قمة الذراعين البحريين حول الجزيرة العربية ويحددان أقصر الطرق وخطوط المقاومة الدنيا بين الهندى والمتوسط

فى هذا الاطار كان طريق مصر أدنى فى طبيعته الى الطريق البحرى وله الافضلية فى التجارة البحـرية من جنوب شرق آسيا والهند عن طريق البحر الاحمر ، بينما كان طريق العـراق أكثر برية ومن ثم كانت له الأفضلية المطلقة فى التجارة القارية من الصين ووسط آسيا كما كان يشارك فى التجـارة البحرية عن طريق الخليج العربى . ولما كان الطريقان بريين فى النهاية ، ويحتكران فيما بينهما عصب تجارة الشرق ـ الغرب ، فقد كانا يعملان ككفتى ميزان حساس فى علاقة توازنية ولكنها أيضا تنافسية لا مفر من الاعتراف بها . فكان تقسيم العمل الجغرافى بينهما أقرب الى التعادل التكاملى والتنصيف أحيانا ، وأحيانا أخرى كانت العـلاقة بين موانى الخليج العربى ومصر فى جذب وشد وجزر ومد . ودرس التـاريخ هنـا واضح يتلخص فى علاقة عكسية مباشرة فحين يزدهر الاول ينحدر الثانى ، والعكس ، وكل كانت تحكمه العوامل الطارئة كالحروب والسياسة والأمن (٢)

ففى العالم العربى الأموى كانت الاهمية للبحر الاحمر

---

(١) W. G East, Geog. Behind History 1948.

(٢) G. Hamdan, « Pattern of Medieval Urbanism in Arab World », Geog., April 1962, p. 124.

وموانيه ، لا سيما مع وجود قناة خليج أمير المؤمنين . ولكن مع انتقال الاهمية من الشام الاموى الى العـراق العباسى انتقلت الاهمية الى الخليج الفارسى لا سيما مع ردم العباسيين لخليج أمير المؤمنين لاسباب سياسية : فحلت موانى الخليج الفارسى محـل القلزم ورشـــيد والاسكندرية . ولكن فى أواخر القرن ٩ الميلادى أثرت ثورات واضطرابات جنوب العراق السياسية على الحركة التجارية فى الفارسى فعادت الأهمية مباشرة الى موانى البحر الاحمر ومصر بما فيها عيذاب والقصير والطور . وقد ظلت مصر بذلك حلقة حيوية فى سلسلة تجـــارة الشرق ـ الغرب مما صب فيها ثروة قد لا تقل خطرا عن عائدات الزراعة وربطها دائما بآفاق العالم الرحبة وتطور الحضارة

وبوجه عام ، ربما جاز أن نقول ان موقع العراق كان يرجح بعض الشيء موقع مصر ـ على ثقله الهائل ـ فى هذا الدور . فمن المحتمل أن موقع العراق كان أفضل موقع للتجارة فى العصور الوسطى ، لأنه كان يجمع بين طريقين : البرى وواحد من طريقى البحر الاساسيين . كذلك لا ننسى أن الشرق عامة والاقصى خاصـــــة كان أهم جزء فى العالم تجاريا ، بينما الغرب وأوربا كانت أقل تقدما وانتاجا . وفى مثل هذا الاطار يتضح أن موقع العراق كان خير موقع ممكن ، ومن هنا نفهم عظمة بغداد العباسية التى لا تدانى فى ذلك الحين

غير أن الدور الثالث ـ دور القمة ـ لم يلبث أن حل مع تعرض العالم العربى للأخطار الخارجية فى العصور الوسطى ، ليعطى مصر احتكارا مطلقا أو شبه مطلق لكل التجارة بعد أن كان التنصيف بالتقريب هو أســاس القسمة فى الدور الماضى . فقد بدأت الحروب الصليبية

بغلق نافذة طريق العراق على البحر المتوسط أولا ، ثم أتت لعنة المغول فى منتصف القرن الثالث عشر ضربة قاضية انتهى بعدها دور العراق الى الأبد تقريبا . أما مصر فكل ما كان من أثر للصليبيات أنها نقلت شرايين التجارة داخلها من الطرق الشمالية الساحلية والدلتاوية المعرضة الى الطرق الجنوبية العميقة الآمنة على البحر الاحمر وفى الصعيد . أما الطوفان المغولى فلم يفعل سوى أن دفع بحركة هجرة بالجملة ـ ثابتة تاريخيا ـ للصناع والفنانين والتجار من العراق الى مصر

وفى الوقت الذى أصبح الخليج العربى ـ الذراع اليمنى لبحر العرب ـ ذراعا مقطوعة وزقاقا مغلقا كالبحر الادرياتى فيما بعد ، العراق على رأسه أشبه فى معنى بامبراطورية النمسا ـ المجر القديمة شبه الداخلية ، والبصرة فيه بماضيها الرائع وحاضرها الضائع وميناءئها المتراجع كالبندقية على رأس الادرياتى ، فى ذلك الوقت انفردت مصر بصرة العالم . واذا كانت «خرائط العجلة» الكنسية فى ذلك الوقت تضع القدس فى مركز الارض حيث تلتقى القارات الثلاث ، فذاك كان رمزا دينيا بحتا فحسب ، أما المركز الفعال حقا فمصر بلا جدال

وهنا لا بد أن ندرك بوعى أن مصر قد ورثت موقع العراق الجغرافى كاملا فى أول سلسلة من تحرك بؤرة العالم نحو الغرب باطراد . ولم يكن من الصدفة أن تصل مصر الوسيطة الى أوج رخائها واقتصادها بعد انهيار العراق مباشرة . ومن هذا كله نفهم دور مصر المملوكية الذى يعد فى الحقيقة عصرا ذهبيا من الناحية المادية والحضارية كما يتمثل فى تكتل الثروة وشيوع الرخاء وانفجار الحركة المعمارية والفنية والاثرية ، مثلما كان عصرا بطوليا من الناحية الحربية التى كانت تلك

الثروة الدافقة عنصرا أساسيا فى توفير قاعدة مادية ضخمة لها

غير أن هذا الدور القمى انتهى فجأة بدور انتكاس وانهيار كامل ، وبقدر الارتفاع الشاهق السابق بقدر السقطة اللاحقة : انه دور الحضيض ، الذى أتى كالنقيض anti-climax فقد جاءت ضربة كشف طريق الرأس فى أواخر القرن الخامس عشر على يد البرتغال قاصمة لمصر ، حيث أحدثت « أسرا نقليا » كاملا سلب مصر موقعها الممتاز وتركها قبوا مصمتا بعد أن كانت الممر التجارى العالمى بامتياز . ولأول مرة تعود السفن فارغة من البندقية وجنوه . وقد بدأ هذا فى أخريات المملوكية حيث ورث الفقر الرخاء وعجزت الموارد عن متطلبات الموقع ، فكان هذا من الاسباب المباشرة فى سقوط المملوكية للعثمانية

ولكى يدفع الانهيار الى منتهاه بمعدل الربح المركب ـ أعنى الخسارة المركبة ! ـ جاء ابتزاز العثمانية بانتظام لبقايا تجارة المرور ليصفى الارث كله . فجفت شرايين التجارة والدخل القومى فى مصر ، وانزلقت الى حمأة من الاتضاع والانحدار المادى والحضارى الكاسف ، وبدأت « فترة عزلة » كانت مرادفا للتخلف الحضارى والتكيس . ويكفى كمقياس أن العاصمة أفلت ، والموانى أفلست شرقا وشمالا ، حتى لقد هوت الاسكندرية الى قرية ساحلية آسنة تعدادها ۸۰۰ نسمة ! ولولا بقية من حياة المدن فى القاهرة لقلنا ان مصر تحولت الى قرية ضخمة ..

وعند هذا الحد يثور سؤال : من الذى ورث موقع مصر ؟ البرتغال هى التى ورثته ، بمثل ما ورثت مصر من قبل موقع العراق ، الا أن الاخيرة وارثة شرعية

طبيعية ، بينما أن البرتغال « سرقت » موقعنا فى الحقيقة . على أن دور البرتغال لم يطل ، فقد انتزعته منها هولندا وبريطانيا بعد حين ، وتجاذبتاه فيما بينهما فى مرحلة مشتركة كمرحلة مصر والعراق فى العصر العربى ، الى أن انفردت به بريطانيا مثلما انفردت به مصر من قبل ، ومن ذلك الحين استقر موقع بؤرة وعقدة العالم فيها

وبمعنى آخر فان هذا المركز ظل يهاجر ويتحرك محوريا الى الغرب فالى الشمال حتى آل موقع مصر الوسيطة الجغرافى الى بريطانيا الحديثة . وبعد أن كانت بريطانيا على هامش المعمور ونهاية العالم - استراليا العصور الوسطى كما وصفت (١) - استبدلت مكانها مع مصر ، فأصبحت فى قلب العالم الجديد بنصفيه الشرقى والغربى ، كمصر فى قلب العالم القديم بين قاراته الثلاث ، وأصبح المحيط الاطلسى هو البحر المتوسط الجديد ، بينما تحول البحر المتوسط التاريخى الى بركة صيد آسنة كبلطيق جنوبى

ولعلنا لا نسرف فى التصور والاستنتاج اذا قلنا ان هذا الانقلاب التدهورى قد دمغ تطورنا الاجتماعى وتركيب مجتمعنا التاريخى بآثاره ، وسلبه أمكانيات واحتمالات نموه الداخلى بمثل ما سلبه موقعه الخارجى .

فمن المعروف أن التطور الاجتماعى الذى حدث فى بريطانيا وغرب أوربا عامة ، وأزاح الاقطاع الى المؤخرة ودفع الى الصدارة بالبورجوازية التجارية أولا ثم بالرأسمالية الصناعية ثانيا ، بدأ منذ وبسبب انقلاب

---

(١) D. Whittlesey, Earth & State, 1944, pp. 96 ff.

العلائق المكانية وعلاقات ما وراء البحار الاستعمارية الجديدة

ومن الثابت أن قوة التجار كطبقة كانت فى نمو واضح فى مجتمع مصر الوسيطة ، وبدأ نفوذهم ونفوذ طوائفهم فى القاهرة والمدن يتعاظم وكثرت مؤسساتهم وخاناتهم ونقابات الحرفيين والصناع ، كأنما هى ارهاصات عصر المركانتلية . وحتى قبل الحملة الفرنسية نجد آثار هذا النفوذ رغم أن التجارة كانت قد هوت الى نقطة الصفر تقريبا

وليس من المستبعد لهذا أنه لو ظل فيض التجارة العالمية يتقنل فى مصر بغير أسر طريق الرأس ، لتضخم حجم ونفوذ طبقة التجار وسكان المدن الى الحد الذى يزيغ نفوذ الارض الزراعية وسلطة الاقطاع ، ويديل من الاقطاع الى البورجوازية مختزلا ومعجلا لدورة تطورنا الاجتماعى . وبمعنى آخر ، فمن الممكن أن ضياع طريق التجارة بدد احتمالات وامكانيات تطور مجتمعنا وترك الاقطاع يخضرم مجمدا فى تاريخنا بلا انقطاع حتى قلب العصر الحديث . لقد سلب الغرب البحرى قدر مصر الاجتماعى الممكن وعطل تحقيق شخصيتها الانسانية الكامنة مثلما سلبها موقعها الجغرافى وقدرها الدولى الكائن ..

دور القناة

ومهما يكن من أمر ، ومهما طال الانتظار ، فقد كانت مصر على موعد مع قدرها لتستعيد مكانها الحقيقى فى الاطار العالمى مع شق قناة السويس فى ستينات القرن الماضى . وهذا هو الدور الخامس والاخير فى دورات

موقعنا الجغرافى ، ولكنه وحده ثورة كاملة ، ويتطلب دراسة خاصة

فقد جاءت القناة أكبر عامل اختزال catalyst فى جغرافية النقل الكوكبية ، أعادت توجيه القارات ورجت القيم الجيوماتيكية . فبعملية جراحية جغرافية، صغيرة نسبيا ، اختزلت قارة برمتها هى افريقيا ، وأسرت طريق الرأس وأعادت وضع الشرق العربى ومصر فى قلب الدنيا وفى بؤرة الخريطة • وكما يقول هوسكنز « من المحتمل ان عملا ما من أعمال الانسان المادية لم يؤثر على علاقات الامم بصورة أكثر عمقا .. ومن الصعب أن نتصور انجازة أخرى فى حدود القدرة البشرية يمكن أن تغير أوضاع الطبيعة أكثر منها » (١)

والحقيقة أننا لا نعرف فى أوقيانوغرافية العالم مائة ميل لها ما للقناة من خطر ونتائج . فمنذ أن شقت ، ولكن بالأخص منذ حل البخار محل الشراع الذى كانت تعاكسه رياح البحر الاحمر ، أصبحت شريان المواصلات العالمية وعنق الزجاجة فى شبكة الملاحة وتحولت الى قبلة علمانية كأنما الدنيا كلها على ميعاد فيها. باختصار، أصبحت مركز الثقل فى حركة العالم ، والقارات « معلقة » اليها

وقد كان أبسط معنى لهذا كله أنه جدد شباب موقع مصر الجغرافى وأعاد الى الجسم المريض دورة الدم والحياة . لقد أتت القناة هدية الموقع الى مصر ، وهدية مصر الى العالم . فكم أعطت القناة للعالم وكم أعطى العالم لمصر ؟

من السهل أن نقول ان أوربا الغربية تدين للقناة

(١) Middle East, p. 59

بالجزء الاكبر من طفرتها الصناعية والحضارية الحديثة حتى وصلت الى درجة التشبع over-industrialisation فهى التي قربت ثروات المستعمرات والمداريات ووضعتها عند أطراف أصابعها بأرخص التكاليف . وهى التى قدمت لها الخامات والاسواق فى عصر الفحم فى القرن التاسع عشر ، وهى الان التى تقدم له الوقود مع الخامات والاسواق فى عصر البترول فى القرن العشرين . ويكفى أنها فى النهاية تستقطب حولها ١٤ ٪ من حجم التجارة الدولية . بل قد يقال ان القناة مسئولة عن مساعدة الغرب على نزح ثروات مستعمرات الخام ووأد فرص التصنيع بها . غير أن مصر نفسها ـ ودعك من فضلها المجحود ـ كانت ضحية مماثلة ، فقد ظلت القناة معزولة عن الاقتصاد المصرى لا تساهم فيه الا رمزا

حقا لقد وضعت القناة ، التى تكاد تلخص موقع البلد ، وضعت يد مصر على نبض العالم كله ، وأصبحت لها بمثابة مقياس ضغط حساس أو جهاز عصبى دقيق، وأعطتها نافذة أو طاقة على الدنيا . وحقا ربما كان لهذا نصيب فى سبق مصر النسبى الى الحضارة الحديثة اذا قيست ببلاد مماثلة . ولكن علاقة الرخاء المتبادلة بين وادى النيل وطريق السويس التى كان يفترض استعادتها ، أتت مع ايقاف التنفيذ ان صح التعبير ، لأن مصر لم تكن تملك القناة وظلت مجرد « متفرجة » لا مستثمرة ، بينما عاد الاستعمار وخاصة بريطانيا التي ورثت من قبل موقع مصر الجغرافي الوسيط ليسرق موقعها الحديث !

ولكن منذ « الاسترداد » ولأول مرة منذ حفر القناة تحققت تلك العلاقة ، ولم يعد شك فى خطورة دور الموقع

فى البناء الاقتصادى المصرى . فمنذ التأميم ، ودخل القناة الخالص يقفز كل عام ، وهو يطفر الان بمعدل ١٠ ملايين جنيه فى المتوسط ، حتى لتضخ اليوم فى الاقتصاد القومى ١١٠ ملايين جنيه - عملة صعبة خالصة . فاذا علمنا أن محصول القطن لا يغل أكثر من ذلك كثيرا جدا ؛ أدركنا أن ها هنا فى الموقع ثروة قومية ثانية ومحصولا وطنيا أساسيا

واذا علمنا بعد ذلك أن هذه الحصيلة توجه وجهة بناءة هى السد - وقد أشرنا من قبل الى العلاقة الأسية بين عملية القناة وعملية السد ، سياسيا واستراتيجيا ، تآمرا استعماريا ونضالا وطنيا - أدركنا أننا بهذا نوظف القناة على النيل ونستثمر الموقع ، الذى هو بطبيعته عنصر خارجى لا يمكن التحكم فيه تماما ، فى الموضع الذى نملكه مباشرة . ونحن بهذا لا نكثف اقتصاد الوادى فقط وانما نعمق أساسه أيضا . واذا كان الموضع - الوادى - قد حقق الموقع - القنال - بعماله ومائه وسكانه ، فقد بدأ الموقع الان يرد دينه الى الموضع

هذا ، وينبغى أن ندرك تطور وظيفة القناة فى العقود الاخيرة ، قبل أن نتطلع الى مستقبلها . لقد بدأت القناة واستمرت طويلا كحلقة الوصل بين الشرق الأقصى والغرب ، وبوجه خاص بين الهند وبريطانيا حيث كان دورها التقليدى هو « شريان الامبراطورية » . وكانت القناة تعكس قطاعا للتجارة التقليدية بين الشرق والغرب أو بالأصح بين الجنوب والشمال كما عرفت منذ يوسف ومحمد : خامات من الجنوب ، ومصنوعات من الشمال

ولكن وظيفتها بدأت تتطور جوهريا منذ الحرب العالمية الثانية ، فقد صفى دورها الاستعمارى القديم أو كاد وأصبحت « شريان الزيت » أساسا وحلقة وصل بين

الغرب والشرق الاوسط خاصة . وبعد أن كانت عنق الهنـــد ، أصبحت بحق عنــق أوربا التى تعيش على البترول ، وتعيش فى البترول على الشرق الاوسط . واذا كان الخليج العربى هو « خليج الزيت » بامتياز ، فان قناة السويس هى « قنـــــاة الزيت » بالضرورة ، لأن حركة البترول فيها تمثل ٧٢٪ من مجموع الحمولة ، بينما تحتكر هى بدورها نقل ٧٠ ٪ من بترول الشرق الاوسط الذى يتحرك غربا . فهنـــاك اذن « زواج اقتصادى » وثيق بين بترول العرب وقنــاة العرب . والقناة اليوم هى أهم ممر عالمى استراتيجى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم (١)

لكن مرة أخرى يكشف الموقع نفسه كعامل غير مضمون تماما . فمرة أخرى عادت المنافسة التاريخية بين طريق الخليج ـ الشام ، والبحر الاحمر ـ القناة فى صـــورة جديدة . فأنابيب البترول عبر الجزيرة والهلال الخصيب هى احياء جديد « للاوفرلاند روت » البرى وترجمـــة حديثة لطرق القوافل القديمة .. وقد وصلت طاقة هذه الانابيب الآن الى ٥٠ مليون طن مقابل ١٦٣ للقناة . لقد نما بترول الشرق الاوسط فى رعاية وتحت وصـــاية القناة ، فهل شب الان بفضل الانابيب عن هذه الوصاية ؟ وهل يمكن أن تكون الانابيب القائمة والمقترحة ـ وما أكثرها ـ أسرا نقليا يمـكن أن يصنع بقناة الســويس ما صنعت قناة السويس بطريق الرأس ؟

الواقع أنه لا مبرر مطلقا لهذه التخوفات التى يحاول بعض المغرضين بثها . فقد اطرد نمو حركة البترول فى القناة باستمرار رغم الانابيب . بل أن الانابيب لا تعمل

---

(١) جمال حمدان ، بترول العرب ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٢ ـ ١٧٠

كلها بكامل كفاءتها وذلك تحت مناقسة القناة بينما أخذت ميزات وفورات الانابيب بالنسبة للقناة تقل وتتضاءل . أما عن مشاريع الانابيب المقترحة البديلة فهى تتحطم على صخرة مبدأ مرور بترول العرب فى أرض العرب ، بينما المشاريع غير العربية فى ايران وتركيا واسرائيـــل هى مشاريع سياسية أكثر منها اقتصادية ، وهى أشـبه بالنسبة لموقع مصر بمشاريع دالميدا والبوكيرك الفاشلة بالنسبة لموضعها ، وهى مثلها تصطدم بحقائق الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية والسياسية . وهذا يقال أيضا عن حلم اسرائيل وخيالها المريض فى قناة بحرية جديدة بين خليج العقبة والبحر المتوسط لتأسر بها حركة السويس

كذلك ثبت أن تطورات الانتاج والتسويق فى البترول العالمى لن تمنع زيادة تدفق البترول عبر القناة . فظهور البترول المغربى والليبى غرب القناة قريبا من الســوق الاوربية ، ودخول الاتحاد السوفييتى فى ميدان التجارة العالمية الى شرق وغرب أوربا ، وزيادة العرض عن الطلب فى السنوات الاخيرة ، كل هذه ظاهرات فى المدى القصير ، والمقدر أن الطلب العالمى سيزداد باطراد

على أنه اذا كانت الانابيب قد ظنت الخطر الذى يمكن أن يهدد القناة ، بينما أن الناقلات هى نقطة قوتهـــا وعميلها الطبيعى، فقد انقلب الوضع أخيرا فى الستينات ، ولم يعـــد الخطر يكمن فى الانابيب بل فى الناقلات . والقاعدة كانت حتى قريب هى أن القنـــاة ضابط نمو الناقلات حجما وأبعادا ، ثم أخذت الناقلات تتضخم غاطسا وعرضا ، فبدأت القناة توسع نفســها خطوة بخطوة . وهكذا اذا كان بترول الشرق الاوسط قد نما فى ظل القناة ، فانها الان باتت تنمو معه حجما وحركة ، عمقا واتساعا . غير أن الجديد فى هذا الســباق هو

الناقلات العملاقة الماموث التى تصل الى ربــع او نصف المليون وربما قد تصل الى المليون من الاطنان ، والتى تؤذن بابتلاع ونسخ النــاقلات الصغيرة والمتوسطة فى المستقبل القريب ، والتى تجد طريق الراس المهجـور اقتصاديا لها واليه تحولت بالفعل

ما مغزى هذا التطور الخطير ؟ هل شبت الناقلات عن وصاية القناة ؟ أهو انذار بدورة جديدة من الأسر النقلى ؟ هل انتقل الموقف من منافسة بين القناة والانابيب الى صراع بين طريق السويس وطريق الراس ؟ لقد قدر أن الاتجاه الجديد اذا استمر بلا مواجهة فسوف تفقد القناة نسبة من دخلها البترولى ، بحيث لا تزيد فى ١٩٨٠ عن ٨٠ مليون جنيــه ، بينما اذا اتسعت الى العرض والعمق المناسبين فيمكن أن تغل فى ذلك التاريخ ٢٢٥ ــ ٢٥٠ مليون جنيه . فالموقف جاد ، والمكسب والخسارة تستحق كل صراع . من هنا فان مصر ، التى تدرك تماما أن المكان هو المكانة والمنزل هو المنزلة وأن القناة يمكن أن تكون واديا ثانيا ، قبلت ولم يكن بد من أن تقبل التحدى على الفور

وهنا لا بد أن نلاحظ أن القناة كما هى الان انما هى قناة جديدة وشيىء مختلف تماما عن القناة التى تركها الاستعمار . فهى الان أكثر من الضعف سعة ، أى أننا قد أضفنا منذ التأميم قناة جديدة الى القناة القديمة فى الواقع . أما بعد أن تتم معركة التوسيع ، فلن تكون القناة القــديمة أكثر من مجرد نواة متواضعة . ومن الطريف أن القناة فى أيام انشائها الاولى كانت تسمى « ترعة » السويس ، وهكذا هى حقا اذا قيست بقنــاة اليوم

لقد كانت السويس برزخا فتركهــا الاستعمار ترعة ،

ولكن التأميم حولها الى قناة ، وقد وجب الان أن تتحول الى « مضيق » صناعى بمعنى الكلمة . ان مصر لا تملك الا أن تحافظ على حيوية هـذا الشريان مهمـا كانت التكاليف الابتدائية ، ومهما بدت غير اقتصادية فى المدى القصير بالنسبة الى عائداته المباشرة ، لان هذه التكاليف تدفع فى المدى الطويل . ولا شك أنها فاعلة

والخلاصة أن هناك الان تطورات عالمية واقليميـــة وتكنولوجية فى عالم البترول ، ولكن مستقبل القنـــاة البترولى وغير البترولى ليس حرجا فى أى معنى كمـــا يحاول البعض أن يصوره . واذا كانت الولايات المتحدة تبحث من الان عن موضع لقناة جديدة تضاف الى بنما لمواجهة الزيادة المنتظرة فى الحركة الدولية ، فان قناة السويس بالتوسع أجدر . وموقعنا ليس أقل ضمانا أو رسوخا من موضعنا

وانها لحقيقة حاسمة مثلما هى فأل حسن أننا ملكنا زمام كل منهما فى وقت واحد حين « أممنـــا » النهر والقناة . والاثنان معا يؤكدان سلامة الاساس الطبيعى لبنائنا البشرى رغم كل الشبهات والشكوك ، وأن «كنانة الله » ، « مصر المحروســة » ، يمكنها أن تنطلق الى مستقبلها وأهدافها مطمئنة الى أنها سيدة نفسها ومالكة أمرها من يمين أو شمال بلا أدنى شك أو قلق ، لأن ما كان أبوه التاريخ وأمه الجغرافيا فهو من صنع الله !

الفصل السابع

تعدد الأبعاد والجوانب

أبعادنا الاربعة

سواء من حيث الموضع أو الموقع ، تحتل مصر مكانا وسطا : وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الانتاج ، وبين القارات والمحيطات ، حتى بين الاجناس والسلالات والحضارات والثقافات . وليس معنى هذا أننا أمة نصف ، ولكننا أمة وسط : أمة متعددة الجوانب متعددة الابعاد والافاق ، مما يثرى الشخصية الاقليمية والتاريخية ويبرز عبقرية المكان فيها ..

فى الموضع

فاذا بدأنا بالموضع وجدنا أخص خصائصه أنه يمثل احدى الحالات النادرة من « تراكب البيئات » . لقد تمكنت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة من أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتواقع فى نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضارى (١) . ولكن الطبيعة خلقت منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية فى مصر

(١) E.D. Chapple; C.S. Coon Principles of Anthropology, N.Y., 1947, p. 95.

حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب افريقيا الىعتبة البحر المتوسط . فالبيئة المصرية ، كتربتها ، بيئة « منقولة » ، من النوع الذى يعرف فى الجغرافيا البشرية بالبيئات المتدخلة intrusive أو الغريبة exotic أو الممدودة projected فهى تشبه فى وضعها المورفولوجى ما يعرف فى جنوب شرق أسبانيا بالهويرتا Hüerta (والكلمة تحريف لروضة (العربية) او الواحاتالساحلية الفيضية التىتتباين بوضوح مع الوسط الاستبسى الفقير الذى يعرف بالفيجا Vega فالموضع فى مصر ليس موضعيا فى أصله ، وليس نبتا محليا ، بل تراكبت فيه خطوط العرض المتباعدة جدا والمتفاوتة جدا .

ولو نحن عبرنا عن دخلها المائى بصيغة مطرية ـ وهى التى لا تكاد تعرف المطر محليا ـ أى لو حولنا ايرادها المائى الى المكافىء المطرى rainfall equivalent لبلغ نحوا من ٨٠ بوصة فىالسنة ، أىقدر ما يصيب الغابة الاستوائية أو الموسمية فى هضبة البحيرات أو الحبشة مثلا ! فكأنها بهـذا وبكتلتها البشرية قديصح أن تقـع الى جانب الايراوادى مثلا أكثر منها الى جانب البحر الاحمر. وهى من الناحية العمرانية والمورفولوجية أشبه بعامة بشريحة من الصين منها بجاوة

وهكذا أخذت مصر مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى ، أخذت منهـا « صهاريج tanks » الهند فى صورة الاحواض ، ولكنها زرعت فيها محاصيل المعتدلات . وأخذت موقع البحر المتوسط البارز وليس موقع الحبشة السحيق . أى أنها جمعت بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما . وقد عبر البعض عن ذلك كله بقوله انها جغرافية

« مقطرة مرشحة » تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة

وقد ظلت مصر طويلا مزرعة شتوية تعتمد على مائية صيفية ! فكانت تمارس حياتها الزراعية شتاء وتقضى الصيف فى « بيات — ماذا نقول ؟ — صيفى » ! .. كان « النيل الاحمر » كما يعبر لابلاش يمطيننا « مصر الخضراء » ، بينما كان « النيل الاخضر » يترك مصر « صحراء سوداء » نصف العام .. (١) ومع ذلك جمعت بين محاصيل البحر المتوسط المعتدلة والمحاصيل المدارية . على أن شخصيتها الزراعية الكامنة لم تكتمل وتتحقق الا بعد الرى الدائم ، فهنا أصبحت محاصيل تنتثر عادة بين عشرات من خطوط العرض ابتداء من المنطقة المعتدلة الباردة وحتى المنطقة المدارية الحارة — أصبحت تختزل جميعا فى الدرجات العشر التى تترامى عبرها مصر . فالى جانب الحبوب والفواكه المعتدلة ودون المدارية التى تؤلف « المحاصيل الانتقالية » التى تميز العروض الوسطى ، أصبحت تجمع — أو توشك — بين الكتان والقطن ، والبنجر والقصب ، بين المعتدلات والمداريات . والواقع أننا يمكن أن نقول أن زراعتنا الشتوية تجعلنا فى نطاق البحر المتوسط بينما تنقلنا زراعتنا الصيفية جنوبا الى النطاق السودانى والموسمى

ويلخص المقريزى موقع مصر بحسب نظرية العصور الوسطى فى « الاقاليم السبعة » حين يقول « مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الاقليم الاول والثانى ، ومن برد الاقليم السادس والسابع ، ووقعت فى الاقليم الثالث فطاب هواؤها وضعف حرها وخف بردها، وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ومصايف عمان وصواعق تهامة

---

(١) P.V. de la Blache, Principles of Human Geog., Lond., 1926, p. 408.

ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشـــام .. وحمى خيبر » . (١)

تعدد الأبعاد

لكن تعدد الجوانب حقيقة أوضح فى الموقع . فمصر حلقة بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته . ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة كانت حضارة مصر العربية التى تزرى بحضارة أوربا الوسيطة شمالا تنتكس أثناء مجاعات العصـــور الوسطى الرهيبة الى ما يذكر بحضارة العالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله ونميمته ورقه . أى أنها كانت تتأرجح الى حد ما بين حضارة رأسها المتوسطى وحضارة جذورها النيلوتية . ولكنها أكثر من ذلك كانت حلقـــة الوصل بين مشرقه والمغرب . ومعنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الافريقى والبعد الاسيوى ، وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة . فالبعد الافريقى أمدنا بالحياة ـ بالمـاء والســكان ، ولـــكن البعد الاسيوى أمدنا بالحضارة ـ وبالثقافة والدين منذ العرب . وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر : مع السودان أولا ثم مع سوريا بعد ذلك

هكذا تتحدد لنا أبعاد أربعة فى توجيه مصر : الاسيوى والافريقى على مستوى القارات ، والنيلى والمتوسطى على المستوى الاقليمى . غير أن من الواضح أن هـذه الأبعاد تتداخل فى بعضها البعض غالبا كما يفعل النيلى والافريقى ، هذا فضلا عن أن الكل يتداخل مع الاطار العربى الكبير . بيد أن الاطار العربى ليس مجرد بعـد

(١) الخطط ج ١ ص ٤٠

توجيهى أو اشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته ، ولهذا فلن نعرض له هنا حتى نعود اليه فى نهاية البحث بدراسة مستقلة مستفيضة . وفيما عدا هذا ، فان كلا من تلك الابعاد الاربعة كان يجذب مصر فى اتجاهه ويكون أو يلون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر لآخر . ومن الأهميـــة بمكان أن نقيم كلا منها ومدى اسهامه فى الشخصية المصرية وتوازنات التفاعل المتطور بينها جميعا

البعد الأسيوى

من بين البعدين القاريين ، يذهب الثقل والخطر دائما وأساسا للبعد الأسيوى الذى يأتى مبكرا باستمرار ، بينما يغلب أن يتأخر الافريقى زمنيا . فرغم أن مصر فى افريقيا موقعا ، فقد كانت أبدا فى آسيا وقعا . ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة أسيوية أكثر منها ــ أو بقدر ما هى ــ افريقية (١) والانحدار التـــاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشـــمال الشرقى . وان نظرة الى الخريطة تكشف لنــــا حقيقة بسيطة ولكنها دالة . فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق ، قل تقريبا بنسبة الثلث ــ الثلثين . ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهات التاريخ ، على الأقل فى جزئياتها

وبعد هذا فان الدلتا مفتوحة مكشـــوفة من الشرق والغرب ، تؤدى تلقائيا الى سيناء التى تحمل فى اقليم جفارها جسرا بريا الى آسيا هيأته الطبيعة بكثبانهـــا الرملية وبما تختزن من ميـــاه الامطار لأن يكون المدخل

(١) W. Fitzgerald, Africa, 1950, p. 418.

الشرقى لمصر ومفتاحها الام (١) • بل ان سيناء ــ التى شبهها البعض بأنها تصغير شديد للجزيرة العربية بيئة وتركيبا (٢) ــ كانت دائما تثير السؤال : افريقية أم أسيوية ؟ وأيا كان الرد ، فهى حلقة الوصل بين القارتين، وهى موصل جيد الى القطاعات الشمالية الهامة من مجالنا الاسيوى ••

والى جانب سيناء يأتى البحر الاحمر كدهليز طويل يفضى بمصر الى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن ، مثلما كان طريقا لها الى القرن الافريقى ، وبذلك يشارك فى البعدين الاسيوى والافريقى • وهنا كان وادى الحمامات ــ طريق قنا القصير (١٠٠ ميل فقط) يقوم كخاصرة للصحراء الشرقية بدور مناظر ولكنه مصغر لدور شريط سيناء • ومنذ التاريخ المصرى القديم وهو يلعب دورا تكميليا فى توجيه مصر الاسيوى وارتبط فيه أساسا بالقطاعات الجنوبية الأقل أهمية • واذا كان المصريون القدماء قد سموا هذا الطريق « طريق الآلهة » اعتقادا منهم بأنه طريق أجدادهم الاول (٣) ، فربما جاز لنا بالمقابلة أن نصف طريق سيناء « بطريق الغزاة » لكثرة ما عبرته الجيوش

ومن محصلة هذه الضوابط الأولية ــ جنوح النيل الى موقع شرقى ، وطريقى سينا والقصير ــ دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا • والواقع انه قبل أن يولد العالم العربى وحتى اليوم كانت مصر لهذا تكون قطاعا حيويا مما دعوناه فى مكان آخر (٤) « الحلقة

---

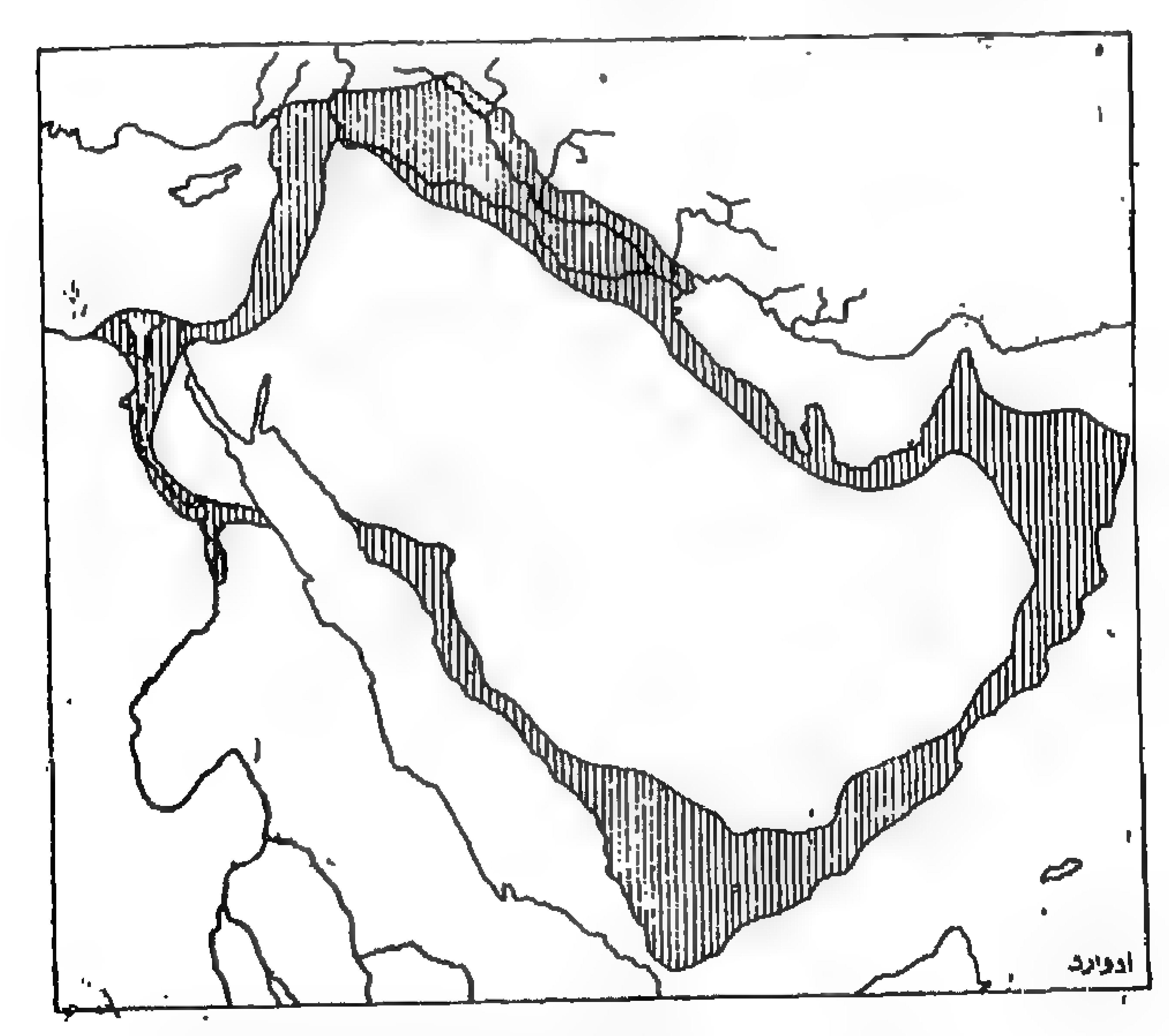
(١) عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ •

(٢) Myres, p. 47.

(٣) احمد فخرى ، المرجع المذكور ، ص ٨٣

(٤) دراسات فى العالم العربى ص ١٤

السـعيدة » وهى تلك الحلقة من الاراضى الخصـيبة أو الأكثر غنى التى تحيط بالجزيرة العربية . وكانت مصر تدخل فى هذه الدائرة عن طريق شريط سـيناء الشمالى من ناحية ووادى الحمامات من ناحية اخرى . وكانت تلك دائرة كاملة تجرى فيهـا تيارات التـاريخ والحياة بلا انقطاع كالدائرة الكهربية المغلقة . وكانت مصر قطبا أساسيا من أقطاب هذه الدائرة . ولهذا كانت تقف على بوابة افريقيا وتنظر الى نافذة آسيا



(شكل ٤) « الحلقة السعيدة » فى الشرق العربى : لاحظ موقع مصر كقطاع فى الدائرة

من هنا كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابتهـا الرئيسـية ومدخلها الأول ، كان بجدارة «ترموبيل مصر»

منه دخلت جميع الموجات التي اكتسحت البلاد فيما عدا أقلية نادرة أتت من الغرب كالليبيين فى مصر القديمة والفاطميين فىالعصر الاسلامى ، أو من الجنوب كالنوبيين والاثيوبيين فى العصر القديم . غير أن من المفيد أن نذكر أن طريق القصير يتضاءل كلية بجنب طريق سيناء ، فلا نكاد نعرف موجة أو حملة أتت عن طريقه يقينا الا حملة الهند فى القرن الماضى . على أنه من الناحية التجارية لم يعدم قدرا كبيرا من الأهمية حيث كان مخرجا ومدخلا أساسيا لتجارة المرور بين البحرين عن طريق الصعيد والوادى ، لا سيما أن القطاع الشمالى من البحر الاحمر لم يكن مرغوبا فى ملاحته لأخطار العواصف والشعاب المرجانية كما كانت تتهدده أحيانا الاخطار الشمالية كأيام الصليبيات ، هذا فضلا عن أنه كان طريق الحج التقليدى فىالعصور الوسطى . وتنعكس كل هذه العوامل علي تاريخ موانى جبهة هذا الطريق خاصة القصير

وبغض النظر عن القيمة النسبية لكل من طريقى سيناء والقصير ، فقد صبا أغلب نشاط مصر الخارجى فى الجبهة الاسيوية . فكانت كل الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية تتم على ارض أسيوية . وقد كان اطار النشاط المصرى فى آسيا لا يخرج تقليديا عن الهلال الخصيب حتى أقدام الاناضول ومشارف الفرات وتخوم العرب البتراء . واذا كانت مصر لم تصل فعليا فى مدها الاسيوى الى قلب العراق فضلا عن فارس بينما وصلت قوى مختلفة من كل منهما أكثر من مرة الى مصر ، فليس هذا لقصر ما فى نفس الحركة المصرية ، بل أن العكس هو الصحيح ، فقد كان لمصر بعد آخر برمته هو البعد الافريقى ، بينما لم تعرف العراق أو

فارس أبعادا أخرى مماثلة

ولكن هذا الزحف نحو الشرق Drang nach Osten اتسعت رقعتــــه فى القرن التاسع عشر حتى شملت الاناضول وكادت تشرف على اسطنبول مرة ، كما توغلت فى نجد والحجاز حتى اليمن من الناحية الاخرى . وفى كثير من فترات التاريخ كانت ولاية مصر تشمل ضمنا جزءا قل أو كبر من الشام واياالاته ، كما تمددت الى غرب الجزيرة العربية أكثر من مرة

ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط ، سواء قبل الاسلام أو بعده . فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثـــلاثة . فمواطن الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينها مثلثا أو سهما رأسه يشكل مماسا لمصر فى سيناء . فقد انصبت هذه الرسالات جميعا فى مصر على التوالى ، وان كانت كل فرشة منها تطفى وتغطى على سابقتها حتى سادت أخراها فى النهاية . والى هذا ، فان مصر لعبت فى مراحل الدعوة الى ثلاثتها دورا أو آخر ، فكانت لموسى قاعـــدة ومنطلقــا ، ولعيسى ملجأ وملاذا ، بينما كانت مع النبى محمد هدية ومودة

غير أن أهمية البعد الاسيوى فى الشخصية المصرية ـ التى تنعكس حتى منذ فجر التاريخ فى العنصر السامى المؤكد فى اللغة المصرية القديمة ، الحامية أساسا ـ زادت واكتملت خاصة منذ العرب حين أخذت مصر الشخصية العربية كاملة فى اللغة والثقافة والدين ، بل لم تلبث أن أصبحت بها قلب العالم العربى والعروبة وهمزة الوصل بين المشرق والمغرب ، بين آسيا العربية وافريقيا العربية. ومنذ العروبة يلاحظ أن كل الدماء القريبة أو البعيدة

التى انصبت أو تسربت الى مصر ، جماعات أو أفرادا ، جاءت كلها تقريبا من الجبهة الاسيوية باستثناءات قليلة . فبجانب العرب ، يصدق هذا على عناصر الأكراد والتركمان والغز والديلم ممن أتوا كمماليك الأيوبية والمملوكية ، كما يصدق على الأتراك فيما بعد ومعهم الشراكسة ثم فى القرن الاخير الارمن وغيرهم . وفى نفس القرن اشتدت هجرة ودخول عرب الشام ولبنان وفلسطين الى مصر .

أما فى الوقت الحاضر فلا جدال أن الثقل الاكبر من السياسة القومية لمصر الثورة يتجه الى الجبهة الاسيويه، عودا فى الحقيقة على بدء قديم قدم التاريخ . وقد أكدت قضية فلسطين هذا التوجيه وحتمته تماما مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . ومنذ حرب فلسطين ثم منذ الثورة ، خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الاسيوية بما فى ذلك اليمن . فمن الواضح اذن أن البعد الاسيوى هو البعد المحورى فى توجيه مصر الخارجى ، وأنه أساسا علاقة أخذ وعطاء من طرفين ، تمتاز بالاستمرار والاطراد دون ذبذبة أو تقطع ..

البعد الافريقى

كما يتداخل الكل مع الجزء والعام مع الخاص ، يتداخل هذا البعد مع البعد النيلى .. حتى ليمكن أن نزعم أن القطاع الأكبر من بعدنا الافريقى انما هو ببساطة بعدنا النيلى ، يكمله من يمين قطاع ثانوى نسبيا على طول البحر الاحمر وشرق أفريقيا ، ومن شمال قطاع أخطر يجمع المغرب العربى والصحراء الكبرى . ولهذا يحسن أن نتحدث عن البعد الافريقى

بايجاز وتعميم قبل أن نركز على جوهره البعد النيلى

وواضح أن أرض مصر جزء من جسم إفريقيا ، أما السكان فمن النظريات ما تربطهم بالقرن الافريقى أصلا وترى قرابة ما بين المصريين القدماء والصوماليين (١) . غير أننا اذا قبلنا نظرية عصر الجفاف التى أعقبت العصور الحجرية القديمة ، فلعلها لا تحتم بالضرورة أن يكون المصريون من أصل غير محلى أو اقليمى . وأيا ما كان فان هناك اتجاها متزايدا هذه الايام ــ ربما كرد فعل متطرف لمحاولات الاستعمار المتطرفة لتمزيق القارة ــ للبحث عن تلك الاصول فى مجال الاركيولوجيا الافريقية والانسان الاول . غير أن هــذا اتجاه تحف به مزالق علمية كثيرة ككل ما يتصل بالماضى السحيق ، وقد يرتب نتائج ضخمة على فروض ونظريات تخمينية . والذين يفعلون ذلك ربما كانوا يفعلون أسوأ مما يفعل أصحاب الفرعونية ، فهم لا يعودون فقط الى الماضى البعيد المكتوب ، ولكن الى الماضى السحيق قبل المكتوب وقبل التاريخ ولا نقول قبل الانسان العاقل !

وانما حسبنا أن نقول ان مصر التى كانت طليعة ومهد الحضارة فى القارة ، قد صدرت اليها كثيرا من انجازاتها منذ فجر التاريخ . وخارج البعد النيلى ، فلقد تأكد هذا مرارا على محور البحر الاحمر منذ رحلات بونت الدالة ، كما يحتمل على محور الصحراء الكبرى حيث وجدت أدلة على المؤثرات الحضارية المادية والثقافية بين بعض قبائل نيجيريا وغرب افريقيا وبين القبائل النيلوتية فى أعالى النيل (٢)

---

(١) C.G. Seligman, Races of Africa, H.U.L.

(٢) عبد العزيز كامل ، دراسات فى افريقية المعاصرة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٧٢ ــ ٧٩

ولكن العلاقات على محور شمال افريقيا جاءت من نوع آخر أدخل فى الوجود العربى الكبير . وهى والبعد النيلى بمثابة ذراعين طويلتين ضخمتين تنتهيان الى مصر لتتصلا عن طريقها بالحلقة السعيدة فى المشرق العربى . فمنذ البداية دخلت مصر مع الليبيين فى احتكاك بعيد المدى بالغارات والحملات ، وبالتسرب والتوطن ، سواء فى غرب الدلتا أو جبهة الفيوم والصعيد . بل واسسوا كما رأينا احدى الاسرات فى تاريخ مصر

كذلك فما أكثر ما امتد التوسع والنفوذ السياسى المصرى الي برقة خاصة أيام البطالسة والعرب . وكانت مصر بوابة التعريب بالنسبة للمغرب كله ، وتواترت العلاقات المتبادلة فى العصور الوسطى ، فكان طريق الحج — الذى ترمز اليوم اليه العشرات من اضرحة ومقابر الشيوخ المغاربة على طول ساحلنا الشمالى الغربى ثم الى قلب الدلتا ابتداء من سيدى برانى الى سيدى المرسى الى السيد البدوى ... الخ — كان هذا الطريق رافدا سنويا أو دائما يصب مؤثراتهم بهدوء فى مصر . وكان طريق التحذير الساحلى الشهير بنيرانه (١) يؤكد هذه العلاقة ، التى وصلت الى قمتها فى الغزو الفاطمى لمصر . واليوم يمثل أولاد على بمريوط حلقة وصل بشرية بين مصر والمغرب الكبير

من السهل اذن أن نرى أن البعد الافريقى فى كيان مصر يتفق فى معظمه وباستثناء هوامش ثانوية مع المجال العربى سواء فى ذلك فى دائرة النيل أو الصحراء أو المغرب . من هنا يبرز السؤال : أين وكيف تقع مصر بين العروبة والافريقية ؟ وما العلاقة بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية ؟ وهنا تصر الاتجاهات الاستعمارية

---

(١) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٥

على ابعاد وعزل العرب – لا سيما مصر التى تلعب اليوم فى السياسة دورا قياديا فى افريقيا مثلما لعبته قديما فى الحضارة – عن القارة ، وتزعم أن الصحراء الكبرى فاصل طبيعى كالمحيط يقسم القارة الى قارتين ، ويحدد ثنائية أساسية هى ثنائية العرب – الزنوج ، ويجب اى وحدة افريقية .

والنظرية – التى تكاد تبدو كأنها الوجه الآخر لنظرية الاستعمار الاخرى عن « وحدة البحر المتوسـط » – تنتهى الى خلق تعارض مقصود بين فكرتى الوحـدة العربية والوحدة الافريقية . فهما – هكذا هى تصور – خطان متعامدان : اذا قلت بالوحـدة الافريقية شطـرت الوحدة العربية ، وان أنت قلت بالوحـدة العربية مزقت الوحدة الافريقية . ومن ثم تبدو النظرية كلها سـلاحا ذا حدين بل متعدد الحدود ، يمزق كل شىء وفى كل اتجاه سواء فى العروبة أو فى افريقيا ، وهذا بالضبط هو الهدف الاساسى سياسيا ..

تلك هى القضية كما يضعها الاستعمار ، ولكنها فى الحقيقة وببساطة قضية مزيفة . فمن ناحية لم تكف المؤثرات العربية أو المصرية عن اختراق الصحراء منذ فجر التاريخ القديم . ومن المبالغة أن نتكلم عن الصحراء كمحيط رملى فى عصر الطيران . ومن ناحية أخرى – وهذا أساس كل خلط وخطأ – فليس المقصود بالوحدة الافريقية الا « وحدة عمل » ، وحدة تضامن فى المجال الدولى سياسيا واقتصاديا وحضاريا مواجهة لضغوط الاستعمار المشتركة . أما الوحدة العربية فوحدة كيان ومصير . الأولى لا تستهدف الوحـدة الدسـتورية ، والثانية جوهرها الوحدة الدستورية والاندماج السياسى ، أى أن الوحدتين من مستوى مختلف ، وهو اختلاف فى

النوع لا الدرجة ، ومن ثم لا تعارض بينهما . ولهذا فليس على مصر جناح أن تولى وجهها شطر افريقيا وبعدها الافريقي كما فعلت دائما ، وليس لها أن تنسى أنها بوابة القارة وحارسها فى الشمال الشرقى ، ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الاسيوى الافريقى . كل أولئك دون أن تضعف عروبتها فى أى معنى .

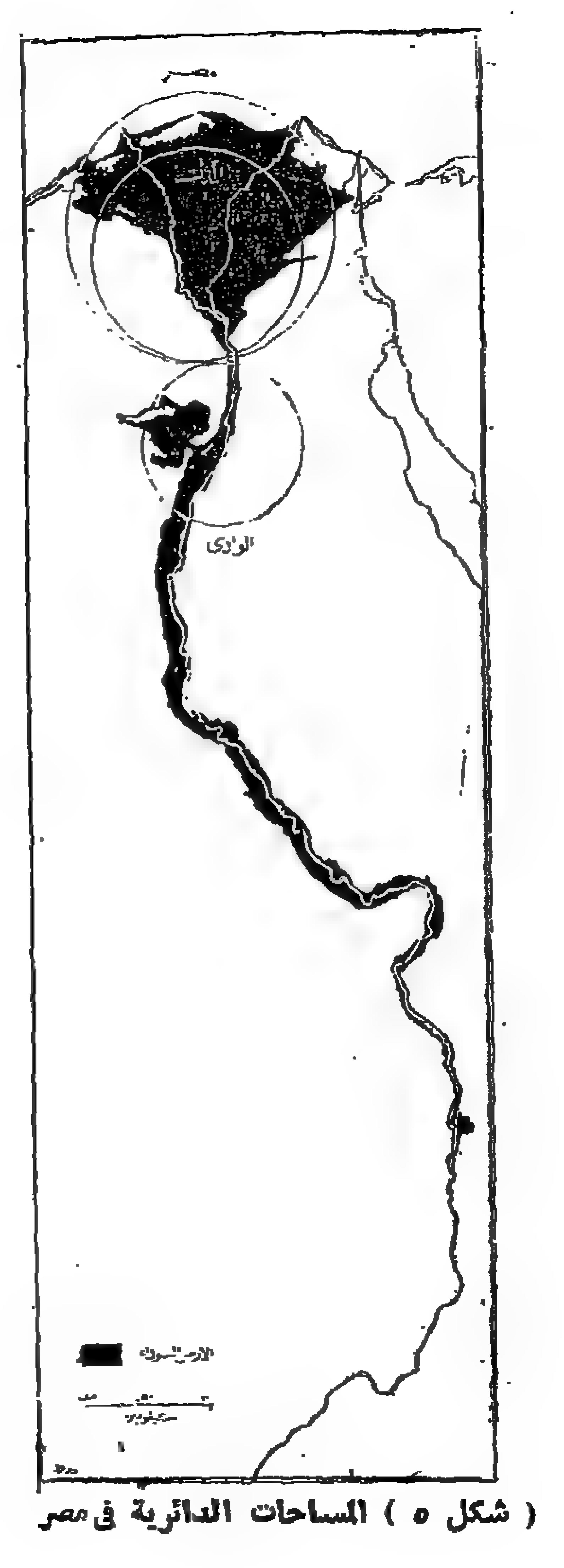
ومن هنا نرى أن ما طالب به البعض أخيرا من النص دستوريا على أن مصر جزء من افريقيا بمثل ما ينص على أنها جزء من الامة العربية ، انما هو قياس مع الفارق وينبع من منظور خاطيء يضع الوحدة العربية على نفس مستوى الوحدة الافريقية . فأن ننص على عروبتنا فى الدستور ، هو تعبير سياسى عن مضمون قومى ، ومن ثم هو أمر فى موضعه السليم . اما أننا جزء من افريقيا ، فحقيقة جغرافية بديهية مجردة لا يستتبعها بالضرورة أى التزام سياسي أو قومي حتمي، ولذا فمكانها الطبيعى فى كتب الجغرافيا ولكنها جديرة بأن تبدو فى الدستور فضولا وتزيدا لا محل له

البعد النيلى

أما البعد النيلى فسيلاحظ ابتداء ان نمط الصعيد الخطى الطولى linear ليس « اقتصاديا » من حيث العمران أو المواصلات أو الانتاج لان كل هذه المجالات انما تخدم الحد الادنى من السكان اذا اعتبرنا وحدة المسافة . ويكفى أن نعلم أن الاثنى عشر الف كيلومتر مربع ونيفا التى تؤلف مساحة الصعيد وتمتد نحو ٨٠٠ كم من الشمال الى الجنوب يمكن أن تستوعبها برمتها دائرة مكتنزة قطرها ١٢٥ كم . ان شكل جغرافية الوادى الاقتصادية قد لا يكون الأمثل للجغرافى

الاقتصادى ، ولكنه لنفس السبب مثالى للاستراتيجي ولأغراض الحضارة والتاريخ . فالصعيد الخطى هو فى الحقيقة الذى وسع رقعة مصر الكلية بأن أضاف اليها الرقعة الكبرى من غلافها الصحراوى . ولو كان الصعيد ملموما كالدلتا لكانت رقعة مصر الكلية أصغر مما نعرف بكثير . وأهم من هذا أن الصعيد الخطى هو الذى أعطى لمصر عمقا حضاريا فى افريقيا ـ هو سهم مرسل نحو قلب القارة حمل حضارة مصر وثقافتها ، مخترقا الصحراء فى مضاء ونفاذ يتحاشى بهما ـ بقدر الامكان الميكانيكى ـ الاحتكاك بحواجز الصحراء العنيدة . ولو كان الصعيد ملموما كالدلتا لتغير بلا مراء تاريخ علاقة مصر بالقارة ولكانت أسيوية أكثر مما هى الان ولأعطت ظهرها للقارة الأم بصورة أو بأخرى . وعلى العكس من هذا ، لو أن نيل النوبة بثنيته المسرفة فى الالتواء ، مضى مستقيما مباشرا لكان رباطا أوثق . ومع ذلك كله فقد كانت الصحراء أبدا عائقا خطيرا فى سبيل تعميق هذا البعد النيلى وتمديده سواء غربا أو جنوبا ، كما كانت جنادل النيل ـ التى يعدها البعض الحد الشمالى للمؤثرات الزنجية أو المتزنجة فى حوض النهر ـ عقبة أخرى فى طريق الشريان الوحيد الى قلب القارة . ولهذا كانت حدود النفوذ المصرى لا تتعدى غالبا الشلال الثانى أو الثالث ، ولو أن النفوذ الحضارى توغل كثيرا حتى اثيوبيا القديمة .

ويقدم حزين نظرية مناخية ثاقبة تفسر جزئيا ميكانيكية التوجيه الجنوبى النيلى لمصر القديمة كمكمل حينا أو كبديل حينا آخر للتوجيه الشمالى الاسيوى . فهو يقترح أن الذبذبات المناخية ـ التى لا ينبغى بالضرورة أن تكون بعيدة المدى طبيعيا ـ والتى عرفتها مناطق



(شكل ٥) المساحات الدائرية فى مصر

شمال المشرق العربى حتى العصور الكلاسيكية ، كانت تسبب الاضطرابات والقلاقل فيها ، وتطرد البدو فى غارات تشل مجرى التجارة بين مصر والبعد الأسيوى من ناحية كما تفريهم بغزو مصر فى شمالها خاصة من ناحية أخرى . فعندئذ تنسحب القوة المصرية الى معقلها التقليدى فى الجنوب فى الصعيد لا سيما حول طيبة حيث تأخذ صبغة دينية تحفزها تلقائيا الى أرض البخور والمر والعطور — بونت والصومال ، فيسود التوجيه الجنوبى ويتبلور البعد النيلى الافريقى (١)

Drang nach Süden على أن الاتجاه الجنوبى لمصر لم ينقطع طوال العصور القديمة وبعدها . فكانت تلك التخوم الجنوبية هى فيما يبدو أرض « النهس » عند المصريين القدماء واقليم « المريس » فى العصر القبطى . وكلها يبدو تاريخيا كهوامش وأطراف على المنطقة الحضارية التى قلبها مصر ، اليها تصل مؤثراتها وعناصرها ببطء نوعا وبفارق زمنى ، وفيها تخضرم بعد أن تكون قد تطورت أو ربما اندثرت فى القلب نفسه ، وتبدو بذلك الى حد ما كما لو كانت متحفا جغرافيا حيا لتاريخ مصرى انطوى

وقد كان هذا الاشعاع المصرى يتم — كقاعدة — على محاور ثلاثة كالحزمة : محور النيل أساسا ، ثم أودية الصحراء الشرقية ، وطرق قوافل الصحراء الغربية (٢). فمصر الفرعونية اتصلت بالنوبة منذ البداية وهى فيما يظن التى أعطتها اسمها نسبة الى الذهب — نب — الذى اجتذبها هناك . وعن مصر أيضا أخذت النوبة الحضارة

---

(١) S.A.S. Huzayyin, Arabia & the Far East, Cairo, 1942, pp. 30-1.

(٢) عبد العزيز كامل ، ص ٦٤ — ٦٧

وتأثرت لغتها باللغة المصرية ثم القبطيــة ، بل يعتقــد البعض ـ ربما مجرد تخمين ـ أن اللغة النوبية هى بقايا حفرية بشكل ما للمصرية القديمة . وقد توسعت الدولة الوسطى فى الحملات التأديبية على النوبة ، حتى اذا كانت الدولة الحديثة كان قد تم تمصيرها جيدا وأسست العاصمة نباتا قرب الشلال الرابع . كذلك احتكت مصر باستمرار بالبجا فى مرتفعات البحر الاحمر واشتبكت معهم فى معارك تأديبية اخضاعا وردا على غاراتهم المتكررة ، كما اشتبكت معهم فى علاقات حضارية وثقافية فأعطتهم كثيرا من حضارتها الى جانب ديانتها عبادة ايزيس

وكما صدرت مصر عناصر حضـــارتها وعقيدتهـــا الفرعونية الى الجنوب ، كررت دورها مع المسيحية ثم الاسلام . فرغم أن المسيحية اتخذت فى مصر شــكلا خاصا بها حتى أصبحت القبطية فى معنى ما ديانة من الديانات التى توصف بأنها « جغرافية وعنصرية » معا أى تتحدد باقليم معين وبشعب معين ، فانهــا لم تلبث أن امتدت جنوبا وبعيدا بين النوبة والبجا ، بل توطنت المسيحية وتوطدت فى النوبة خاصة حيث نشأت مملكتان هامتان هما دنقلة وعلوة . ومن الغريب أن المسيحية بعد أن هجرت فى مصر ، اتخــذت من النوبة معقلها على الطريق ، فظلت تقاوم المد الاسلامى طويلا حتى سقطت مملكتا النوبة فى القرن الرابع عشر

وبالمثل تخلفت المسيحية فترة بين البجا ، أما فى الحبشة فكانت نهاية ـ وقمة ـ الاشعاع الدينى لمصر ، حيث ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية ، وحيث اعتصمت القبطية أساسا فى المعقل الاخير لتصبح الحبشة أكبر جزيرة قبطية فى افريقيا بعد أن هاجرت تقريبا من الموطن الأم وتخلفت نوعا ما على الطريق . وبهـــذه الهجرة

الحقيقية أصبحنا نجد أن ملامح الماضي فى النواة المصرية هى ملامح الحاضر على أطراف منطقتها الحضارية أو أبعادها النيلية

ومع الاسلام يتأكد دور مصر من جديد . فرغم أن من الثابت الآن أن تعريب السودان سبق اسلامه بكثير ، وأن اسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الاحمر رأسا سبق اسلامه عن طريق النيل ، فقد لعبت مصر دورا هاما فى دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان . فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الاسلام الى السودان ، أما عقبة النوبة المسيحية فقد احتواها الاسلام وغزاها طويلا وعميقا بالانتشار الفشائى الفعال قبل أن يغزوها بالقوة الحربية . ثم انفتح الطريق كاملا

واذا كنا نرى من هذا أن تعريب السودان فى العصور الوسطى لم يكن دور مصر وحدها ، فقد ظل البعد النيلى كذلك منكمشا على نفسه طويلا حتى انطلق فجأة واخيرا فى القرن التاسع عشر أيام الامبراطورية المصرية ــ العربية ــ الاسلامية فى حوض النيل وشرق افريقيا . وقد وصل هذا الزحف نحو الجنوب بسرعة الى بحر العرب ــ الغزال ولكنه توقف أمام الاستوائية بسبب « السد » ، لأن النيل الذى كان ينبغى منطقيا أن يكون طريقا متصلا الى قلب القارة وأعالى الحوض لا يلبث أن يتحول ــ لنفس الاسباب التى جعلته شريانا هائلا ــ الى حاجز مصمت هو السد . فاضطر المد الشمالى الى الدوران حوله وتخطيه الى ساحل البحر الاحمر فى ارتريا والصومال . ولكنه لم يكن قد بدأ بالكاد حتى ظهر له سد جديد سياسى لا طبيعى هذه المرة هو الاستعمار البريطانى فارتد الى الأبد (١) . ومما له مغزاه

---

(١) هوسكنز ، ص ٧٩ وبعدها ، محمود كامل ، القانون الدولى العربى ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٨

أن السودان « العربى » انما ينتهى عند بحر « العرب » بالذات

وهنا سيلاحظ من الناحية السياسية أن حدود الامبراطورية المصرية العربية الاسلامية قد تعدت حدود حوض النيل بالفعل ، وأنها تقدمت على محورين النيل والبحر الاحمر ، وتعبر بذلك أوضح تعبير عن تداخل البعدين النيلى والافريقى لمصر . كذلك تعرض هذا البعد لمحاولات البتر أو التقليم الاستعمارية . فحاول الاستعمار البريطانى أن « يقلب » الانحدار الطبيعى والتاريخى للحوض بعيدا عن مصر ، فسعى الى فصل جنوب السودان توجيها له الى شرق افريقيا والمحيط الهندى ، وحاول تحريف وجهة السودان الشمالى نحو البحر الاحمر بدلا من مصر النيل . وأخيرا يلاحظ أن مصر بعد أن كانت قد تحولت الى دولة « مختلطة » جيوبولتيكيا تتألف من النواة الكثيفة الأم ومن نطاق « واسع » تابع ، عادت دولة كثيفة نووية كما بدأت

وعند هذا الحد ، يمكن أن نجمل خصائص البعد النيلى فى كيان مصر بصفة عامة . بعد أصيل وجوهرى لا شك ، لم يعرف الانقطاع بل لعله بعامة زاد عمقا على العصور . غير أنه بعد هذا يغلب عليه الطابع الحضارى والسياسى أساسا ، وهو من هذه الزاوية من طرف واحد بالضرورة : ايجابا فى الشمال وسلبا فى الجنوب . ولكن هذا انما يعنى النواحى البشرية ، أما طبيعيا فهذا بعد هيدرولوجى بالغ الخطورة بحسبانه أساس الوجود المصرى كله ، وهو ما يمنحه تلك الاهمية السياسية الخاصة

البعد المتوسطى

ان البحر المتوسط بعد من أبعاد التوجيه المصرى ،

قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية . فالبلد اذ يطل عليه بجبهة بحرية مشرفة مترامية نوعا ، واذ يمثل البحر أحد ضلوعه الاربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى باعتبـــار الضلع الغربى ميتا والجنوبى والشرقى شبه ذلك ، نقول ان البلد بهذا لا يملك الا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش . غير أن السؤال هو الى أى حد ، وكيف يستقر البعد المتوسطى فى وجودنا ؟

فالبعض من مثقفينا يود أو ود يوما أن يجعلنا جزءا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط . غير ان هــذا الاتجاه أدنى فى الحقيقــة أن يكون « رجعــة » تاريخية الى نظرية سادت وروج لها كثيرون فى الغرب ، ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك . والاشارة هنا بطبيعة الحال الى نظرية « وحدة البحر المتوسط » الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الاغريقى ثم الرومانى حققاها بالقوة بين شاطئى البحر الشمالى والجنوبى حين كان شمال افريقيا من جبــل طارق الى السويس بل الى الاسكندرونة خاضعا لهما . ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد ، وسلبية من الطرف الآخر ، ولا يمكن أن تحسم علاقة

كذلك تكاد النظرية أن تنتهى منطقيا الى تصور « قارة وسطى » — أو شبه قارة بين القارات الثلاث تتحلق حول البحر ، أو على الأقل تفصــل افريقيا شــمال الصحراء عن بقية القارة . ومن الناحية الاخرى ، فقد تلقف النظرية بعض من الكتاب الاستعماريين فى عصرنا هذا وعمل على بعثها والدعوة اليها لأهداف ســياسية بعيدة وهى توجيه المنطقة ، سواء مصر أو غير مصر من

دول البحر العربية ، توجيها أوربيا يجرها الى عجلتها السياسية ، أو على الاقل حتى تتطلع الى أوربا كقبلة حضارية ، وزعموا فى هذا الصدد أن « أوربا تبدأ عند الصحراء » (١)

لكن الواقع أن هذه النظرية المبتسرة يمكن أن تجعل من جنوب أوربا ملحقا لافريقيا ، وليس العكس بالضرورة . فاذا كانت الصحراء فاصلا ، فالألب فاصل كذلك . واذا قيل ان « أوربا تبدأ عند الصحراء » ، فقد قيل بالمقابل « عند البرانس تبدأ افريقيا » (٢). واذا كان الساحل الاوربى قد طغى سياسيا على الافريقى ، فقد طغى الثانى على الاول قرونا وقرونا . كذلك فان توسع المعمور وآفاقه منذ العصور القديمة خطوة خطوة ، أبرز أوربا كاملة مثلما كشف عن افريقيا كاملة فى النهاية ، وعاد كل من شاطئى البحر المتوسط يرتبط — والانسان حيوان برى أولا — بظهيره القارى أساسا . وفى النتيجة فتلك النظرية لا يمكن أن تسلخ شمال افريقيا عن افريقيتها أكثر مما تسلخ جنوب أوربا عن أوربيتها

أما حقيقة العلاقة داخل البحر المتوسط ، فنمو وتطور تاريخى مر فى أدوار متعاقبة مرتبطة وثيقا باستراتيجية العلائق المكانية الكبرى فى العالم القديم . فقديما كما رأينا لم تكن دائرة المعمور الفعال لتزيد بالتقريب عن الشرق القديم وحوض البحر المتوسط ، أما أوربا شمال الألب وافريقيا جنوب الصحراء فكانتا اما ضبابا وبرابرة واما مجاهيل وبدائيين . فكان طبيعيا جدا أن يستقطب البحر ذلك العالم لا سيما وهو يتوسطه كما يدل الاسم . كان قبلة أو بؤرة مشتركة للجميع بما

(١) Fitzgerald, Africa.
(٢) W. Z. Ripley, Races of Europe. 1900, p. 272

فيهم مصر . من هنا علاقاتنـــا الفرعونيـــة الحضـــارية والتجارية بكريت المينوية ثم باليونان وروما الكلاسيكيتين عدا الشام وقبرص ... الخ

أما فى العصور الاسلامية فقد أصبح البحر المتوسط بعدا حقيقيا وخطيرا فى كياننا حيث كان كل من البحر ومصر مواقع خطى وحلقات حتمية فى طريق تجارة المرور العالمية . فالتحمت مصر بالبحر ، ولكن بالذات خاصرته الوسطى ، وكانت الاسكندرية ودمياط مع البندقيـة وجنوة وبيزا كالمدن المترابطة على البعد ، وامتد بينها جسر بحرى بمعنى الكلمة . فكانت الاسكندرية والقاهرة موطنا دائما ، خاصة أيام المملوكية ، لمستعمرة نشطة متجددة من تجار المدن الايطالية (١) . وبالمثـل كانت علاقاتنا الكثيفة مع الشام تتم بالبحر أكثر منها بالبر . حتى الاخطار الخارجية جاءتنا على البحـر ، فأكدت الصليبيات بعدنا المتوسطى وان يكن عسكريا

واذا كان العصر العثمانى قد شهد هجرة تجارة المرور العالمية ، فان توجيهنا المتوسطى لم ينقطع تماما ، وانما انتقلت البؤرة من خاصرة البحر الى حوضـه الشرقى أو اللفانت بمعناه الواسع . وحتى مع الخاصرة لم يعدم الأمر ان حلت التجارة المحلية محل العالمية ، ولو أنهـا كالجدول بعد نهر . والواقع أن العثمانية ربطتنا مع اللفانت ومع الاناضول أكثر مما نتصور عادة ، فقـد اشتد الاتصال بعاصمة الاسلام « اسلامبول » وسواحل البلقان فى اليونان وألبانيا ... الخ . وانتقل كثير من مهاجرى هـذه المناطق الطاردة الينـا ، أو جنودها ، وأقاموا أو انصهروا ابتداء من الانكشارية حتى أرناؤوط وألبان محمد على ... الخ ، وبقيت أسماؤهم المعربة

(١) Clerget, Le Caire, t. II.

تكشف أصولهم أحيانا

(وقد يمكن أن نذكر هنا ــ عابرين ــ بعض مثل هذه الاسماء ، التى تستخدم على الطريقة التركية اللام فى النسبة ، والتى لا زالت تنتشر بيننا . فثمة الدرمللى (من مدينة دراما فى مقدونيا) ، والسلانكلى (سلانيك) ، الجريدلى أو الجريتلى (كريت) ، الاسلامبولى (أستانبول) ، المستيرى (موناستير فى البلقان) ، الأزميرلى (أزمير) ، هذا عدا قبائل الموراليا (من المورة) فى الشرقية الان . وهذا ــ بالمناسبة ــ يذكر بمجموعة مماثلة من الاسماء المشتقة من جبهة الالتحام بين الاناضول والشام : كالعنتبلى (من عينتاب) ، المرعشلى (مرعش) ، المردنلى (ماردين) ، أورفلى (أورفا) ، الخربوطلى (خربوط) ، البابلى (الباب قرب حلب) وانلى (بحيرة وان) ، وهكذا ... الخ ..)

هذا ، ومع محمد على والتغريب والأوربة ، استمر ارتباطنا بشرق الحوض ، ولكن أضيف اليه غربه خاصة فرنسا وايطاليا ، الى أن انقرضت بالتدريج العلاقة مع شرق الحوض . ثم جاءت قناة السويس فأعادت تأكيد البعد المتوسطى فى كيان مصر ، ولو أننا نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا حققت عالمية مصر ، التى لم يعد البحر المتوسط الا حلقة فى سلسلتها

تلك هى دورات المد والجزر فى بعدنا المتوسطى ، ومنها نرى أن بوصلة مصر الجغرافية كانت تعكس ــ ولم تملك الا أن تعكس ــ نبض البحر وحوضه ، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محليا . ولعل أبرز ما كان ذلك فى المدن العواصم وموانى الساحل ، فكانت اقدارها ومصائرها وأجرامها تتحدد بتلك الذبذبات والاشعاعات . فابان الكلاسيكية خلقت

الاسكندرية من لا شيء لتصبح قلب العالم الهللينى البطلمى وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحرى على جبهة الالتحام بين الظهير المصرى (الهنترلاند) والنظير اليونانى (الفورلاند) . غير أن هذا كان يتركها من وجهة الظهير أشبه بمدينة غريبة أجنبية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا أكثر منها نبتا انبثاقيا طبيعيا ..

أما فى العصور الوسطى ومع علاقات البندقية وجنوه فكان لرشيد أهمية الطريق ، حتى اذا تحول التوكيد الى شرق البحر كانت الصدارة لدمياط وتنيس حيث لا تزال الاولى تحتفظ بآثار تلك العلاقة الشامية فى وظائفها المعاصرة . وقد ورث محمد على هذا الوضع ، ولكنه فى اندفاعه نحو الغرب عاد أولا الى رشيد ، الا ان حاجته الى نافذة حقيقية على أوربا ـ كحاجة شبيهه فى الروسيا بطرس الأكبر ـ أدت به الى اعادة خلق الاسكندرية ـ مثلما خلق هذا سان بطرسبرج . ورغم طفرة الاسكندرية ودورها فى تجارتنا وعلاقاتنا الخارجية ، فقد جاء الطيران ليقلل نوعا من دور البحر ودورها النسبى ولينقل الثقل المطلق الى القاهرة الداخلية (١)

من هذا كله تتضح أبعاد الموقف . فلا جدال أن البحر المتوسط بعد ، وبعد هام ، فى توجيهنا الجغرافى . فهو نافذة لمصر على الشمال ، وضابط ايقاع لنبضها الحضارى والمادى . غير أن من الواضح أنه توجيه متقطع يشتد حينا ويضعف حينا ، أى أنه مذبذب بين شد وجذب . ثم أن دور مصر فيه استقبال أكثر منه ارسال ، وان كانت العلاقة عكسية فى التاريخ القديم ، كما أن دوره

---

(١) Clerget, t. I; Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, pp. 22-3.

هو فى كيان مصر ربما تضاءل على مر التاريخ باطراد ، وذلك لأن دور البحر المتوسط ككل قد قل نسبيا مع اتساع العالم

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوربا المعاصرة عن طريقه فهى لا تجعل منه الا محطة طريق أكثر منها محطة وصول . فرغم أن الجزء الاكبر من تجارتنا الخارجية وعلاقاتنا الحضارية تعبر البحر المتوسط اليوم ، فان نصيب دوله منها محدودة الى حد بعيد ، ومعروف كقاعدة عامة فى التجارة الدولية أن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الانتاج فيه (١)

وبعامة فبعدنا المتوسطى حضارى أكثر منه طبيعيا ، واقتصادى أكثر منه بشريا . وهو فى النهاية وعلى خطورته واهميته ، بعد تكميلى لا يرقى بالقطع الى مستوى البعد الاسيوى أو العربى الذى هو أسبق وأثبت . وعلى أية حال ، فلعلنا لا نغالى اذا قلنا ان دور البحر المتوسط فى مصر أقل منه فى معظم بلاد الحوض ، ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بالشام أو بالمغرب فضلا عن أشباه الجزر الاوربية الثلاث

وخلف هذا التحديد والحدود ترقد الجغرافيا . فأولا ، الحوض كله تطوقه وتغلفه حلقة جبلية متصلة تقطع الساحل الشريطى المختنق عن الداخل مما يجعل الأول بيئة طاردة تقذف بالسكان الى البحر كمجتمعات امفيبية حقا ـ وذلك باستثناء مصر. فهنا ، وهنا فقط ، تنكسر الحلقة وينفسح السهل الساحلى وينفتح الى وادى النيل الضخم . فعوامل الطرد فى البر لا توجد ، بل له على العكس كل الجاذبية . ومن ثم كان نداء النهر

---

(١) Siegfried, Mediterranean, p. 179

أقوى بكثير جدا من نداء البحر

ثانيا ، نجد أن كل وحدات الحوض تطل على البحر بجبهة بحرية مستطيلة ممدودة كالمغرب والشام مثلا ، ولكن مصر ـ كفرنسا فى هذا الصدد ـ تطل عليه عموديا أو رأسيا . فالنيل ـ كالرون ـ يتعامد على البحر فى نقطة تماس أكثر منه بجبهة تواز ، لا سيما أن قطاعا كبيرا من قاعدة الدلتا بحيرات ومستنقعات تفصل عن البحر . كذلك ولذلك فان مصر ـ كفرنسا ـ لها علاقتها بالبحر ولكنها ليست العلاقة الوحيدة فى كيانها ، فكما أن فرنسا دولة بحرين ، فكذلك مصر ، وكما أن لفرنسا قاعدتها الارضية الضخمة خارج الحوض ولها أبعادها فى غرب أوربا الاطلسية ومشارف وسط أوربا ، فكذلك لمصر أبعاد اكثر أهمية فى آسيا وافريقيا

وأخيرا ، يلاحظ أن مصر هى أبعد وحدات الحوض عن سواحله المقابلة الهامة ، كما أنها مناخيا الوحيدة فى الحوض التى لا تتبع أساسا مناخ البحر المتوسط . ولعلنا ان أردنا أن نضع دور البحر المتوسط فى ميزان قيمنا الاقليمية ، أن نقترب من الحقيقة أو أن نقربها اذا قلنا انه أقوى بالتأكيد من دور البلطيق فى توجيه الروسيا مثلا ، وأشبه بالتقريب بدور البحر المتوسط فى توجيه فرنسا

تعدد لا انفصام

كيف تفاعلت أبعاد مصر الاربعة ، خاصة البعدان الاسيوى والافريقى ، فى شخصية مصر ؟

من الخطأ أن نتصور العلاقة بين البعدين الافريقى والاسيوى لمصر التاريخية أو المعاصرة على النحو الذى يحاول البعض أن يصور به العلاقة بين البعدين الاسيوى

والاوربى للروسيا القيصرية مثلا . صحيح أن مصر هى أكثر أجزاء افريقيا أسيوية وأقلها افريقية ، بمثل ما أن الروسيا كانت أكثر أجزاء أوربا أسيوية وأقلها أوربية ، ولكن « ازدواج الشخصية » الذى ينسب الى الروسيا لا يصدق على مصر . فقد كانت الروسيا تتجه بكليتها الى جانبها الاسيوى حين كانت تلقى رفضا أو هزيمة أو صدا فى أوربا ، والعكس (١) • ولكن الابعـــاد الافريقية والاسيوية بالنسبة لمصر ليست مناورة أو تكتيكا سياسيا بل هى عناصر أصيلة فى كيانها الحضارى والتاريخى . وليس صحيحا مطلقا أن مصر فى السنوات الاخيرة لم تتجه وجهتها الافريقية القوية بوضوح الا بعد أن لاقت المتاعب فى المشرق العربى وحدثت الردة الانفصالية فى سوريا ••

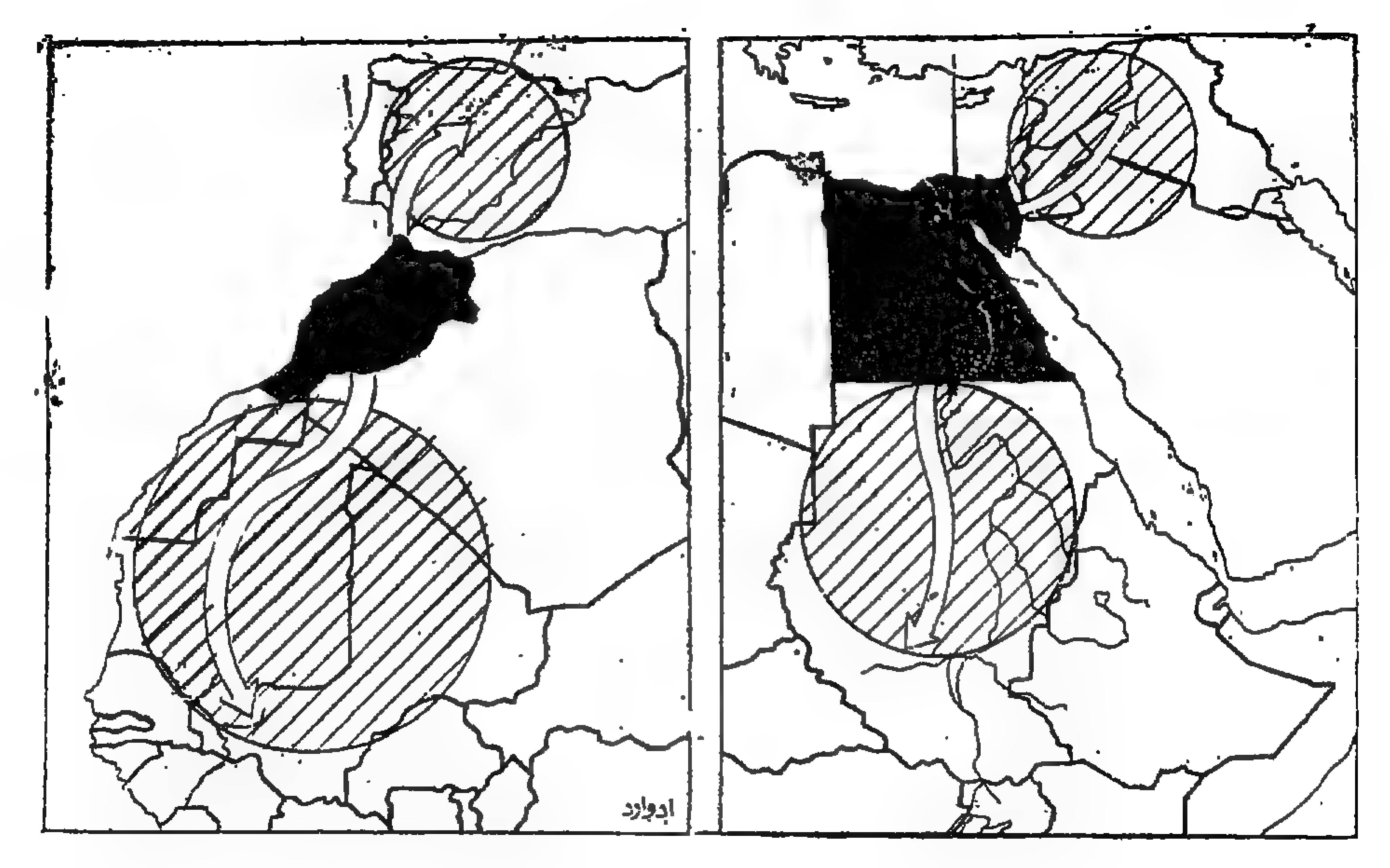
وبين تركيا ومصر مشابهات على السطح قد تغرى بالمقارنة . فتركيا جسر بين آسيا وأوربا بمثل ما أن مصر جسر بين آسيا وافريقيا . بل ان الجسم الاكبر فى كل منهما يقع فى قارة ، بينما لا يقع فى القارة الاخرى الا قطاع صغير : سيناء وتراقيا على الترتيب . وفى كلا الحالين انما يفصل بينهما ممر مائى عالمى خطير • أضف الى ذلك التناظر القريب فى حجم السكان . ولقد تمددت تركيا فى أوربا حتى فينا كما وصلت مصر الى البحيرات فى افريقيا ، واندفعت كل منهما فى آسيا من الناحيـــة الاخرى . ولكن كل هذا تشابه مضلل لأنه سطحى ، وسطحى لأنه جزئى فربما ليس أكثر من تركيا نقيضـــا تاريخيا وحضاريا لمصر . هى بلا تاريخ ، بل بلا جذور جغرافية ، انتزعت من الاستبس كقوة « شيطانية » مترحلة ، واتخذت لنفسها من الاناضول وطنا بالتبنى • وبلا

(١) G. B. Cressey, Asia's Lands & Peoples, 1952.

حضارة هى ، بل كانت طفيلية حضارية خلاسية استعارت حتى كتابتها من العرب. ولكن أهم من ذلك انها تمثل قمة الضياع الحضارى والجغرافى ، غيرت جلدها وكيانها أكثر من مرة : الشكل العربى استعارته ثم بدلته بالشكل اللاتينى ، والمظهر الحضارى الاسيوى نبذته وادعت الوجهة الاوربية . انها بين الدول بلا تحامل الدولة التى تذكر بالغراب يقلد مشية الطاووس . وهى فى كل أولئك النقيض المباشر لمصر ذات التاريخ العريق والأصالة الذاتية والحضارة الانبثاقية ... الخ

بعد هذا ربما انصرف الذهن لثالث وهلة الى بريطانيا بموقفها بين أوربا والكومونولث : فهى موقعا جزيرة ـ أرخبيل ـ على ضلوع أوربا بمثل ما أن مصر جزيرة صحراوية على مشارف افريقيا . وكل منهما امتاز بقدر ما من عزلة خفيفة ، ثم ان امتدادات بريطانيا تقع خارج القارة الى الكومنولث كما أن مصر تتعدى افريقيتها الى آفاق العالم العربى . ولسنا نريد بعد هذا أن نتتبع المقابلة الى عنصر الاستمرارية والمحافظة الذى عرفته كل منهما ولا الى أن كلا منهما أكثف وحدات قارته سكانا وأقدمها سياسيا وكانت له الصدارة فيها لفترة أو أخرى . ولكن الشىء الهام أن حيرة بريطانيا وتذبذبها بين القارة والكومنولث (غير المنظور) لا مثيل لها فى حالة مصر التى لا تجد تعارضا أو انفصالا بين بعديها الحيويين

ولعل أقرب تشبيه الى ثنائية الابعاد المصرية هو المثل المراكشى . فكل من مصر والمغرب الأقصى (مراكش) يتناظر فى موقع الركن والزاوية فى افريقيا ومن ثم فى دور المحط وقاعدة الاحتشاد والتوزيع ، فكان لكل منهما توجيه جغرافى مزدوج عبر التاريخ : مصر شمالا الى الشام وآسيا وجنوبا الى السودان وحوض النيل وشرق



« شكل ٦ » البعدان الاسيوى والافريقى لمصر ، ومقارنة مع المغرب

افريقيا ، ومراكش شمالاً الى اسبانيا وجنوبا الى « شنقيط » (موريتانيا) وغرب افريقيا . ولكن البعد الشمالى الاوربى لمراكش ، بعد أن كان « المغرب الاوربى» بكل معنى ، لم يلبث أن بتر تماما ، بعكس نظيره المصرى. وقد كان هذا مما نقل مركز الثقل الى البعد الجنوبى نهائيا فى حالة مراكش ، بينما ظل نظيره المصرى مهملا أو ضعيفا

وفيما عدا النيل ، فموريتانيا بالنسبة للمغرب هى كالسودان بالنسبة لمصر . بل ان تسمية السودان فى حوض النيل تكرر تسمية مماثلة فى المغرب حيث لا زال السكان ـ بحسب الأصل ـ ما بين «بيضان وسودان» . وكما كانت مصر (الواحة الصحراوية) هى القاعدة البشرية التى بدأ منها تعريب السودان ، كانت مراكش (الواحة الساحلية المتوسطية) هى القاعدة البشرية « للمرابطين » فى اسلام وتعريب موريتانيا حتى السنغال ـ ومعروف أن كلمة سنغال هى تحريف فرنسى لاسم الصفة من صنهاجة كبرى القبائل البربرية المستعربة فى العصور الوسطى والتى شاركت فى الزحف جنوبا . وكما كانت مصر رائدة النيل ، كانت مراكش سيدة غرب الصحراء الكبرى بلا جدال

والخلاصة ان دور مصر الثنائى فى آسيا وأفريقيا أشبه ما يكون بدور المغرب الثنائى فى أوربا وافريقيا . وفى كلا الحالين كانت هذه الثنائية أصيلة صحية فى كيان الشخصية الاقليمية وليست « انفصاما » مرضيا نتيجة للمضاربات الانتهازية السياسية كما عرفت بلاد أخرى فى الشرق والغرب

الفصل الثامن

الاستمرارية والانقطاع

فرعونية أم عربية ؟

الاستمرارية

لعل أنسب مكان لهذه الخاصية المتأصلة فى الشخصية المصرية ـ الاستمرارية ـ هو نهاية المطاف أو قريبا منها ، لأنها صفة مشتركة بين كل جوانب الشخصية الاخرى . فما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها دون أن يصر فى الحاح على عنصر الاستمرارية فى كل مقوماتها ومقدراتها . وقد ضربت مس بلاكمان مثلا معروفا حين تتبعت خلال التاريخ منذ الفراعنة حتى الوقت الحالى عشرات من الملامح الاجتماعية والثقافية ، والتقاليد والعادات ، والالفاظ والافكار ، ابتداء من المحراث حتى شم النسيم ومن وفاء النيل حتى الختان . فالماضى دائما يعيش فى الحاضر أو يرقد خلفه . وربما بالغ البعض وأسرف فى المبالغة فقال « مصر التى لا تتغير **Immutable Egypt** » ، وتحدث عن حضارة أبى الهول . وربما استنتج البعض أن روح المحافظة الشديدة هى طابع قومى عميق الجذور

والمؤكد أن القاعدة العامة فى الخلفية التاريخية لمصر هى الاستمرارية بقدر أو آخر . ولكن المهم الا نبالغ فى

تقديرها وتقريرها ، فليس صحيحا تماما أن الحياة فى مصر كانت تكرارا لانهائيا لمعادلة ميكانيكية كما يصور مارش فيليبس بقوله « ان مصر بالتأكيد — من بين كل بلاد العالم — هى التى تقترب فيها الطبيعة أشد ما تقترب من الانتظام الميكانيكي والتكرار الميكانيكى . ونمط ترتيب الاقليم نفسه نمط رياضى بسيط من التكرار الذى لا يتقدم ولا يتغير » (١) . ومثله يفعل فيدن حين يقول عن مصر الحديثة المعاصرة « .. أمامك ترقد مصر القديمة بلا تحنيط ، وانما محفوظة فى بلسم الشمس وفي غرائز السكان المحافظة » (٢) . فالمغالاة الكاسحة هنا جد واضحة

والحقيقة أن الاستمرارية المصرية لا تعنى التكرار repetitive ، بقدر ما تعنى التراكمية Cumulative ولعل قولة نيوبرى أدنى الى أن تعبر عن هذه الحقيقة : « مصر وثيقة من جلد الرق ، الانجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت ، وفوق ذلك القرآن ، وخلف الجميع لا تزال الكتابة القديمة مقروءة جلية » (٣) . اننا يمكن أن نضعها قاعدة عامة انه اذا كانت جغرافية مصر تراكبية أساسا ، فان تاريخها تراكمى فى الدرجة الاولى . واذا كان ثمة استمرارية — واستمرارية لا شك هى — فانها معتدلة ونسبية

وليس من الصعب بعد هذا أن نفسر تلك الاستمرارية. فالمركب الحضارى الذى نمته مصر منذ البداية كان يمثل ، فى واقع الأمر ، حالة تلاؤم بيئى Symbiosis محكمة ، وحقق علاقة فعالة Workable connection مع ظروف

(١) Works of Man, p.61.

(٢) Land of Egypt, p. 8.

(٣) P. E. Newberry, «Egypt as a Field for Anthropological Research, Brit. Assoc., 1924, p. 19

البيئة الطبيعية لم يكن من السهل دائما التقليل من قوتها أو التجويد عليها ، ومن هنا بدت حضارة بطيئة الخطى ثقيلة القدم كما يقول برودريك (١) . كذلك لا شك أن دور الصحراء فى مصر كان سلبيا أكثر منه ايجابيا اذا ما قورن بالعراق مثلا . فهو فى مصر منع اغراق الحضارة المحلية فى طوفان من التيارات الاجنبية ، بينما فى العراق مكن للتيارات أن تتـوالى بلا انقطاع وترج الوجـود الحضارى والبشرى المحلى كل مرة . ولا شك أن دور البداوة والرعاة فى تاريخ العراق الواحة الاستبسية أقوى منه بكثير فى تاريخ مصر الواحة الصحراوية . كما أن موقع مصر كان أبعد عن قلب آسيا مصدر الهجرات والتيارات التـاريخى . وبينما خضع البـدو والرعاة المحيطون لمصر فى أغلب مراحل التاريخ ، خضعت العراق فى مراحل كثيرة لحكم الرعاة البدو (٢) . وهكذا فان مصر كان لها على العراق ميزة « الدفاع بالعمق » : كانت تستطيع دائما أن تشترى الزمان بالمكان .. ولهذا فان الموقع والموضع وفرا لمصر استمرارية تاريخية تخلو من الهزات العنيفة والانقطاعات الفجائية ـ بعكس العراق تقريبا

وقد ظلت هذه الاستمرارية تتمثل فى نوع من التوازن الاستاتيكى Static equilibrium فى جوهره طوال الجزء الاكبر من تاريخ مصر . ويتضح هذا خاصة فى الزراعة العمود الفقرى للحضارة المـادية واللامادية المصرية . فتاريخ الفن الزراعى المصرى يمكن أن يقسم كما رأينا بوضوح الى عدة مراحل « جيوتكنية » تحتل واحدة منها بعينها (مرحلة الفن القديم) الجزء الاكبر من تاريخ

(١) Brodrick, Tree of Human History, p. 104

(٢) Benjamin Thomas loc. cit., p. 424.

مصر • وهى اذا كانت قد خضرمت وازمنت طويلا وعاشت تاريخا ألفيا طويلا ، فان المرحلة الباليوتكنية لم تكن توازنا ميتا بل كانت بلغة هربرت سبنسر « توازنا متحركا **Moving equilibrium** » بفضل تغييرات صغيرة وحركات قصيرة ولكنها تراكمية . فمنذ أيام اليونان أخذت مصر بالطنبور ومنذ البطالسة أدخلت الجاموس ومنذ الفرس الابل ، ومنذ العرب عرفت محاصيل جديدة كالقطن والارز . الخ ... أما المرحلة الجديدة مرحلة الفن الزراعى الحديث (النيوتكنى) فقد اعتمدت فى تحريكها على قوى حضارية خارجية وكانت انقلابا اقتصاديا وحضاريا جذريا كاملا . فانقلاب الرى الدائم كما رأينا هو بالنسبة لمصر كالانقلاب الميكانيكى بالنسبة لانجلترا ، وانقلاب القطن كالانقلاب الصناعى

ولا شك أن انقلاب الرى والزراعة الحديث قد غير وجه مصر تماما ، وأحدث انقطاعا أساسيا فى كيانها . كان عملية تتابع للسكنى **Sequent occupance** بكل معنى للكلمة . لقد غير وجه اللاندسكيب الحضارى كلية حين خلق حالة من « الهيدرولوجيا المقلوبة **Inverted hydrology** فبعد أن كانت مصر تتحول أثناء الفيضان الى بحيرة موسمية كبرى متصلة تنقطها القرى وحلات الأكوام وتختطها الجسور النحيلة ، انعكست الصورة تماما فأصبح الوادى الأنجافا الا من آلاف الترع والمصارف . ومع هذا الانقلاب الهيدرولوجى تحرر المسكن القروى من اسار القرية النووية المجمعة وانطلق نحو التبعثر بدرجة أو بأخرى سواء كعزب او كتراب من المنازل **poussière de maisons**

كذلك تغيرت وجهة مصر كما تغير وجهها : فبعد

اقتصاد الحبوب المنوع والكفاية الذاتية ، قلبت زراعة المحصول الواحد الاقتصاد بطنا لظهر ، ووجهته من السوق المحلية الى السوق العالمية . ومن المحقق أن هيكل الاقتصاد المصرى المعاصر فى تطور داخلى ونيد لكنه جذرى ، من ارهاصاته مفارقات تطورية مثيرة ، فقد بدأت مزرعة قطن لانكشير التقليدية تصدر الغزل والمنسوجات الى أوربا بما فى ذلك بريطانيا ، بينما أخذت صومعة غلال روما التاريخية تستورد القمح من دول أخرى من بينها ايطاليا ! على أن الذى لا شك فيه هو ان الانقلاب الذى بدأ بالرى والقطن كان بداية وأداة الانقلاب الحضارى الحديث وعملية « التغريب » . ولا شك أن القطن بالذات كان وسيلة شرائنا لهذه الحضارة الأوربية

ومن الناحية الاجتماعية فلا جدال ان مصر اليوم تحمل مجتمعا يختلف كما وكيفا عن مجتمع مصر القديمة التقليدى . فلا مجال للمقارنة بين حجم السكان بالامس واليوم بعد أن تضاعف سكان الوادى بل وتخطوا فعلا ضعف الطاقة القصوى القديمة . وأما كيفا فالثورة السياسية الاشتراكية طفرة فلتة فى تاريخ مصر غيرت كل تركيبها السياسى والاجتماعى ، مثلما أتت ثورة التحرير قلبا كاملا لتاريخنا الاستعمارى الذى طال وأزمن ..

تلك اذن ملامح انقلابنا الحضارى الحديث وهذا نتجه النهائى . وقد يرى البعض ان هذا الانقلاب المعاصر هو أخطر عملية انقطاع حضارى فى تاريخ مصر . وانه لكذلك . الا ان هذا لم يكن مقصورا على مصر أو بضع حالات غيرها ، بل أتى ظاهرة عالمية معدية . ولهذا قد يجوز لنا أن نقتطعها من شريط الزمن ، وحينئذ ستتبقى

لنا استمرارية نادرة فى الحضارة المادية عبر القطاع الاكبر من التاريخ المصرى .

واذا كان توينبى يقول انه عبثا بحث عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديثة ، ويعلن لذلك ان الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم ، فان هذا صحيح بالتأكيد فى الجوانب اللامادية ، كما يصدق كذلك على كثير من نواحى الحضارة المادية . ولكن هناك بقايا ورواسب مادية لا زالت تكمن - ربما على استحياء وفى خباء - فى النسيج الحضارى المادى المعاصر . ولعل الزراعة الحوضية أهم هذه الخيوط : نعم هى تحتضر منذ قرن وأكثر ، ومع ذلك فلم يدفنها نهائيا الا السد العالى .

واليوم لم تعد مصر الفرعونية الا مكدسة فى المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننتهى الى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها ، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية

ويمكننا أن نخلص من هذا كله الى أن هناك أربع علامات كبرى فى تاريخ مصر الحضارى أثرت تأثيرا هائلا فى كيانها : اكتشاف الزراعة وبدء الحضارة نفسها ، ثم التعريب والاسلام ، ثم تحول التجارة الى طريق الرأس ، وأخيرا وحديثا الحضارة الغربية . كل واحدة من هذه كانت انقلابا كاملا وانقطاعا جوهريا . هناك اذن بطريقة ما تطور عن طريق الثورة **evolution by revolution**

ولكن شدة ترامي الوراء التاريخي لمصر يجعلها جميعا تبدو غير متعارضة مع الاستمرارية العامة أو محطمة

لها . وهى اذن — فى معنى — ثورة بطـــريق التطور revolution by évolution

من هذه العلامات يمكننا أن نستبعد اكتشاف الزراعة باعتباره نقطة ابتداء لا تقاس الى ما قبلهـــا . كما ان تحول التجارة لم يكن تغييرا بقدرماكانهبوطا وانحدارا. وأما الحضارة الغربية فهى طارىء حادث جدا وليس مقصورا على مصر بل هى أولحضارة عالمية فى التاريخ. ولهذا لا يتبقى لنا فى تاريخ مصر سوى انقلاب التعريب الذى من بعده أصبحت جزءا لايتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا اقليما أو رأسا فى دولتـــه السياسية وفى ظل وحدته القومية . ولهذا اذا كنا نقول ان انجلترا مثلا تمتاز بالاستمرارية السياسية والانقطـاع الاجتماعى ، بينما تمتاز فرنسا بالاستمرارية الاجتماعية والانقطـاع السياسى (١) ، فاننا يمكننا أن نقول ان تاريخ مصر يمتاز بالاستمرارية فى حضارتها المادية والانقطاع فى حضارتها اللامادية ..

الانقطـاع

تلك الاستمرارية المادية التى تسود التاريخ المصرى لاينبغى اذن أن تغفلنا عن ذلك الانقطاع الهام للغاية فى الناحية اللامادية : فى الحياة الثقـــافية والروحيـــة : التعريب والاسلام . صحيح ان الانقطاع لم يكن بالمعنى « الجنسى » بقدر ما كان بالمعنى الحضارى ، وصحيح ان التعريب — وأكثر منه التبشير بالاسلام — مضى أبطأ وأقل مدى فى مصر منه فى بلد كالعراق الذى هو أقرب موقعا الى البلد الأم وأدخل موضعا للبـــدو والرعاة . ولـــكن هذا الانقطاع يظل أعظم حقيقـــة فى تاريخ مصر

(١) H. J. Fleure, ed., La Personnalité géog. de la France, La Blache, 1946, p. XV.

الثقافى والروحى ، ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى . ولا بد أن ندرك ان اهمال هـذه الحقيقة أو الاهتمام بها قد أصبح له مغزاه السياسى الخطير. فهناك من يحاول أن يبالغ فىجانب الاستمرارية فى كياننا لا ليبرز اصالة ما ولـكن ليقلل من جانب الانقطاع ، وبالتالى ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا بذلك عن عروبتنا ويطمس معالمها

هم يفعلون ذلك حين يتسـاءلون فى كلام له خبىء « فرعونية أم عربية » ؟ ونود ان نضيف ، بين قوسين ، انهم قد يخفون نفس السؤال وراء قضية اخرى جديدة هى المقابلة بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية . فهميرتبون على المقدمات السابقة أن مصر « ليست عربية ولـكنها مستعربة » ، « ليست عربية ولكنها متكلمة بالعربية » ، « ليست عربا ولكن أشباه عرب » . لقد اندثرت كلمة « المستعرب Mozarabe » فى المغرب الاوربى ومعه ، ولكن هناك الآن من يبدو انه يعمل لبعثهـا فى المشرق العربى !.. والهدف من كل هـذه الدعاوى هو دائما تخريجات سياسية واضحة ترمى الى التشكيك فىعروبة مصر وبالتالى الى عزلها عن العالم العربى

ونبدأ فنقول ان مصر لم تكن الوحيدة التى أثير حولها هذا الجدل، فالسودان وصف بأنه افريقى وليسعربيا، والمغرب زعموا انه بربرى لا عربى ، وقيـل عن لبنان والشام حينا آخر انه فينيقى أو سورى وليس عربيا ، والعراق كذلك لم ينج من الاتهام . بمعنى آخر ان كل أجزاء العالم العربى خارج الجزيرة العربية دمغت بصورة أو بأخرى بأنها ليست عربية ولـكنها مستعربة على أسـاس ان السكان قبل التعريب لم يكونوا عربا « جنسيا » . ولكن هذا الاساس ينهار من اللحظة التى

يتطلب فيها « عروبة جنســـية » ، فالعروبة مضمون ثقافى لا جنسى أولا . ومع ذلك فكل الغطاء البشرى الذى يغطى ما يعتبر الآن العالم العربى هو أساسا فرشـــة واحدة من جذر واحد . وعلى الاقل فان الاختـــلاط والانصهار الدموى بين العرب الوافـــدين والســـكان الاصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى . على ان الذى يكشف خواء المناقشة من أساسها ويجعلها جوفاء حقا أنها تمثل منطق مزايدة وهروب : ففى عقر دار العرب ستظل تجد « العرب العاربة » و « العرب المستعربة » ! ولكننا لا نسمع من يقول ان عرب الشمال ليســوا عربا ولكنهم متكلمون بالعربية . ولا ندرى الى أى مدى يمكن المضى فى تجريد جزء آخر من العرب العاربة بدورها من اصالتها !

والواقع ان هذا المنطق من شــأنه أن يجعل العرب كالامريكيين : فهو يخلق فى الذهن ما يمكن أن يسمى **hyphenated-Arabs** على غرار **hyphenated-Americans** بمعنى أنه يخلق لنا في مصر شعبة فرعوبية (فرعونية ـ عربية) ، وفى العراق شعبة أشوربية (اشورية ـ عربية) ... الخ ! وكل هذا يتجاهـــل ان أكثر من ثلاثة عشر قرنا تجمع بين الجميع فى اطار واحد يجب مثل هــذه العرقية الشعوبية .

وهو أكثر من هذا يتجاهل ان العروبة نقيض الامريكية تماما فى أصولها : فالاخيرة نشأت من هجرة أجزاء من شعوب متنافرة لتتصاهر وتنصهر معا فى بوتقة وطن جديد عبر المحيط ، بينما ان العروبة قامت من هجرة جزء من شعب واحد لتتصاهر وتنصهر مع شـــعوب متباينة فى أوطان قديمة متلاصقة . الاولى تحولت فى الواقع الى أوربا الصغرى **Little Europe** بينما خلقت

الثانية بلاد العرب الكبرى Greater Arabia

أين الحقيقة اذن فى عروبة مصر ؟.. أين هى من الفرعونية القديمة ؟ .. أهناك حقا فارق بين نوع العروبة شرق السويس وغربها كما يزعم بعض الدعاة ؟.. ثمة عدة حقائق . فاذا بدأنا من البداية ، فان أول مايجبهنا هو ان الفرشة الجنسية الاساسية التى كانت تغطى نطاق الصحارى فى العالم القديم من المحيط الى الخليج كانت تنتمى الى أصل واحد متوسطى . وفى العصر المطير ، حين كانت الصحراء سفانا يسودها صيد الحجرى القديم ، كانت كثافة السكان مخلخلة جدا ولكنها غطائية عالمية بصفة عامة . وفى هذا الاطار كانت الحركة والهجرة والترحل ظاهرة دائمة ، ومن ثم كان الاختلاط الجنسى أساسيا ولا محل لعزلة أو نقاوة ما .

وكل الذى حدث بعد ذلك مع عصر الجفاف أن تجمعت كل مجموعة من هؤلاء السكان فى رقعة محدودة ، وبذلك تحول الغطاء العالمى الى الارخبيل الجزرى الذى نعرف الآن . ومعنى هذا انه حدث « تقطع » فى الغطاء القديم المتجانس جنسيا الى عدة رقع متباعدة جغرافيا ولكنها تظل متجانسة جنسيا . وهذا بالدقة مفتاح انثروبولوجية عالمنا العربى . فشعوب المنطقة – قبل العرب والاسلام – هم أساسا وأصلا أقارب انفصلوا جغرافيا ، ابتداء من العراق الى الشام الى الجزيرة العربية ومن مصر الى المغرب أو السودان . والتوطن المحلى والمؤثرات الدخيلة الموضعية والتزاوج الداخلى الذى حدث بعد ذلك ، لايمكن أن ينتج أكثر من ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الاصل الدموى وتجانس العرق فى كثير ، وان تطورت اللغات والالسن ما بين سامى وحامى . ويظل العالم العربى أو بيت العرب

الجغرافى الكبير هو « دوار العـــرب » ، بمعنى الاسرة الموسعة التى تضم عدة أسر نووية أو خلوية . هــذه واحدة .

أما الثـانية فحقيقة تاريخية تؤكد السابقة وان كنا نغفل عنها دائما . نحن نعرف ــ دينيا وتاريخيا ــ أن اسماعيل هو أبو العرب العدنانيين ، ولكننا نعرف أيضا انه ابن ابراهيم العراقى من هاجر المصرية . واذا كان لهـــذا أى معنى انثروبولوجى ، فهـــل يمكن ــ أليس كذلك ؟ ــ أن يكون الا شيئا واحدا ، وهو أن العرب أصلا انصاف عراقيين أنصاف مصريين ؟ قد يبدو هذا للوهلة الاولى تخريجا ثوريا ، ولكنه منطق أولى للغاية. وكم يبدو غريبا أن يلح من يلح على أن العرب واليهود « أبناء عمومة » لأن اسحق أبا اليهود اخ غير شـــقيق لاسماعيل أبى العرب ، بينما نتغافـــل عن علاقة الأبوة والبنوة بين المصريين والعرب ، فضـــلا عن العلاقة غير المباشرة بين المصريين والعراقيين ، على نفس الاساس ؟ وتأسيسا على هذا ، فهل يكون تعريب العراق أو مصر فيما بعد الا عملية زواج أقارب مباشرة ، ولا نقول نوعا من التلقيح الذاتى أو الزواج الداخلى على نطاق جغرافى عريض ؟

وثمة بعد هــــذا حقيقة لغوية تؤكد علاقة القرابة . فالثابت المحقق الآن ان اللغـــة المصرية القديمة ، وهى حامية تصنيفا ، كانت تشمل نسبة هامة من المؤثرات والكلمات السامية ، وقد أثبت البعض اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية (١) حتى ليعتبرها بعض الفيلولوجيين لغة انتقـالية بين الحامية والسامية . وقدكتب فى هذا كثير بما لايدع مجالا لاطناب

(١) محمد عزة دروزة ، الوحـــدةالعربية ، بيروت ، ١٩٥٧ ص ٢٧

ثم يأتى أخيرا عامل الهجرة . فمن الثابت كذلك أن عرب الجزيرة لم يكفوا عن الخروج منها والتدفق على مصر أو التسلل اليها طوال التاريخ المكتوب وقبله . ومن المتفق عليه بعامة أن ما لم يسجل التاريخ أكثر مما سجل من موجات سامية قديمة الى مصر (١) . وكانت صحراء سيناء وأطراف الدلتا بالنسبة لهم منطقة انتقال وتأقلم الى أن يتم اندماجهم وتشربهم . ومعنى ذلك بوضوح أن تعريب مصر سبق فى بدايته الفتح العربى والعصر الاسلامى ، وانه قديم فى مصر مثلما كان قديما فى السودان ، وان كان الفتح نفسه هو الخطوة الحاسمة ...

ولعلنا الآن ، بعد هذه المؤشرات والمفاتيح ، بحيث نستطيع أن نحدد حقيقة تعريب مصر . فحين التقى العرب بالمصريين وتصاهروا واختلطت دماؤهم ، لم يكن ذلك فى الحقيقة الا لقاء أبناء عمومة أو أخوة فى المهجر ، او هو كان لقاء آباء بأبناء أو أجداد بأحفاد . وقد يكون الاصح أن نقول اعادة لقاء — بعد أن باعدت بينهم الصحراء التى استحدثها عصر الجفاف . واذا كانت قد تبلورت بعض ابتعادات ثانوية أو تعديلات جسمية مكتسبة على المدى التاريخى والبعد الجغرافى ، فقد جاءت الموجة العربية — فى مصر كما فى غيرها من البلاد العربية — أشبه بعملية « خض » أو تقليب عميق لجزيئات متماثلة أصلا ، تعيد مزجها حتى لا تتخثر أو تتحجر . والمد العربى بهذا وبنتائجه يبدو — فى معنى — كما لو كان عودا الى نمط العصر المطير ، حيث نشر العرب مؤقتا شبكة غطائية متجانسة على وجه المنطقة

---

(١) يوسف ابو الحجاج ، وحدة الوطن العربى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٤٩ — ٥١

جميعا ، وصلت ما انقطع وأعادت تأكيد الوحدة الاولية

وانطلاقا من هذا مرة أخرى ، يمكن أن نصفى بعض المتناقضات التى تبدو على السطح فى العلاقة بين الفرعونية والعروبة . فاذا صحت دلالة السند الدينى عن الجانب المصرى فى أصل العرب ، فقد عاد العرب بدورهم ليعطوا مصر جانبا عربيا فى أصلها ، عادوا ليعطوها أبوة جديدة . فالعلاقة الدموية اذن علاقة متبادلة على التعاقب والتناوب . انها علاقة دائرية أكثر منها خطية ، الكل فيها أب وابن على التوالى ، والكل فيها فى النهاية مضاف ومضاف اليه أكثر منه فاعلا ومفعولا به

ولكن لما كان العرب هم الأب الاخير فى السلسلة ، فان القول بأن مصر فرعونية أصلا عربية مصاهرة قد يكون منطقا « جاهليا » ـ منطق ما قبل الاسلام يعنى ـ ونوعا من الردة التاريخية تنسب الابن الى الجد دون أبيه ، أو قبل أن تنسبه الى أبيه . وانما الاصح أن نقول ان مصر فرعونية بالجد عربية بالأب ، وكل من الجد والأب من أصل جد أعلى واحد مشترك . غير أن العرب هنا ، وقد غيروا ثقافة مصر ، هم « الأب الاجتماعى » فى الدرجة الاولى ، وليسوا « الأب البيولوجى » الا فى الدرجة الثانية حيث كانوا بالضرورة أقلية عددية بالقياس الى المصريين .

ولنفس هذه الاسباب يمكن أن نفهم لماذا يقال ان العرب اذا كانوا قد عربوا مصر ثقافيا ، فان مصر قد مصرتهم جنسيا . فأما تعريب مصر ثقافيا فأمر لا يحتاج الى تفسير . وأما تمصير العرب جنسيا ـ الذى قد يبدو مناقضا للأصل الجنسى المشترك الواحد بين الطرفين ـ فليس فى الحقيقة الا من قبيل تغليب الاغلبية

العددية على الاقلية دون أن يعنى فارقا أساسيا فى الاصل والنوع بين الطرفين .
وعند هذا الحد من المناقشة يمكن أن ننظر الى الفرعونية وغيرها من دعاوى الرجعة التاريخية historicism والوطنيات الضيقة كالفينيقية والاشورية ... الخ من زاوية جديدة ومنظور علمى . لاشك ان المقصود بمثل هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المنغلقة . وهى لهذا مرفوضة ابتداء ودون مناقشة

ولكن من الناحية العلمية ، ينبغى أن ندرك أنها انما تقوم على الجهل وحده ، وانها فى الحقيقة سلاح مفلول يرتد الى صدور أصحابه . فهم لايدركون أنهم اذ يهربون من الحاضر القومى الواحد ، ويرتدون الى وطنياتهم الشعوبية القديمة البائدة ليعتصموا بها منه ، فهم عبثا يحاولون الافلات ، ولا يثورون عليه الا ليقعوا ثانية فى دائرته المحيطة الفلابة

فكل هذه الوطنيات هى ـ أصلا وقبل العرب ـ أجزاء لا تتجزأ من أصل واحد مشترك قديم ، وكانوا جميعا أقارب بمثل ما ان أصحابها اليوم وبعد العرب أقارب . وفى النتيجة فان دعاواهم الشعوبية الضيقة فاشلة علميا فى الافلات بهم من العروبة ، أما كل ما تنجح فيه عمليا فهى أن تصمهم بالحفرية والتحجر والردة التاريخية التى تضع الماضي الميت قبـل حاضر حى واقع ينبض ويتفجر بالحيوية
وهنا يحسن أن نشير الى بعض النظريات التى تحاول أن تضفى على انفصاليات الرجعة التاريخية هذه رداء علميا ، ولتكن نظرية الاثنيم ethneme التى يقدمها سبايسر . فهو يقترح حدا أدنى للوحدة المتجانسة من

الارض أو الناس ليكون الحد الانسب لمفهوم الامة بالمعنى السياسى ؛ وليكون فى الحقيقـــة مقياســـا لدعاوى أو ادعاءات التوحيد السياسى ، ويدعو ذلك الحد بالاثنيم • أما أسسه فتشمل اللغة والدين والبيئة الجغرافية .. الخ ..

ومن هذا المنطق لا يرى ان العالم العربى وحدة واحدة وانما يتحلل الى عدة وحدات ، بمعنى انه ليس أمة واحدة بل عدة أمم . وهو يبدأ بتخصيص مصر بالذات كاثنيم مستقل ، فيقول « من الناحية الاثنولوجية ، عرب هم المصريون . ولكن على الاساس الاثنيمى لفكرة الدولة التقليدية ، فان مصر تتطلب ان تخصص على حدة بمعزل عن الدول العربية الاخرى » (١) . وعدا ما فى النص من تناقض صريح ، فالمؤكد ان مصر او ايا من الدول العربية ليست أمة كاملة فى ذاتها ومستقلة ، وانما هى شعب من أمة ، وشعبة من اثنيم واحد هو العالم العربى كله.

هذا ، ولسنا بحاجة الى ان نضيف أن قوى الرجعة التاريخية والوطنيات الضيقة تكمن بعد هـــذا أولا فى الرجعيات الحاكمة حفاظا بالطبع على وجودها الانفصالى ، ثم فى الاقليات المختلفة سواء عرقية أو لغوية أو طائفية. وكلها تجد قوى أجنبية تبارك موقفها آليا ، ونعنى بهذا الاستعمار ، وهذا وحده دليل على خطأ اتجاهها

غير ان مثل هذه القوى تجهل ان أعظم امجادها كوطنيات انما تحققت فى اطار القومية الكبير ، وليس فى حدود كياناتها الضيقة القديمة . وبالنسبة لمصر ، فقد يبدو غريبا أنها حققت قمم تاريخها لا فى عصر الفرعونيـــة ـــ

(١) E. A. Speiser, Cultural Factors in Social Dynamics in the Near East, in Social Forces in the Middle East, ed. S. N. Fisher, N. Y. 1955, pp. 5-7.

على سموقه وشموخه ـ وانما فى عصرها العربى . وعلى سبيل المثال ، فان التوسع المصرى الفرعونى لم يصل فى أقصاه الى ما وصل اليه توسع القرن التاسع عشر ، وأعظم معارك مصر لم تكن معـارك تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى ، وانما صلاح الدين وقطز وبيبرس ، وهكذا . والخلاصة ان دعاوى ودعوات الوطنية الضيقة الانفصالية ليست رجعة فحسب بل وانتكاسا ايضا

ويبقى فى النهاية أن نعرض للنظرية التى تقول ان هذا أكثر عروبة وذاك أقل من حيث النسب ، وتنتهى بذلك الى اصطناع « مقياس مدرج » للعروبة يصنفون عليه طبقات ودرجات من العرب . والتصنيف يبـدأ عادة بالادعاء بأن العرب انما يوجدون فقط فى آسيا العربية ـ شرق القناة ـ أما غربها فليس ثمة الا أشباه عرب أو أنصاف عرب أو متكلمون بالعربية ومستعربون .. الخ. وغالبا ما يستهدف هذا الادعاء التشكيك فى عروبة مصر خاصة ، محاولة لعزلها عن المشرق العربى . واذا بدا أن هذا يسىء الى مصر ـ على السطح فقط كما سنرى ـ فانه جدير بأن يسىء أكثر الى من يقع غربها ، والا فماذا نقول عن المغرب أو السودان

غير أن هذا منطق مردود . فما دام الاصل الجنسي القاعدى مشتركا فى العالم العربى قبل العرب ، فليس يهم تماما بعد ذلك كم قطرة دم عربى انصبت هنا أو هناك . وبهـذا تبقى العـروبة والتعريب فى جوهرها المنشود مضمونا ثقافيا أساسا . واذا كان لابد من مقياس مدرج للعروبة ، فليس جنسيا هو ، ليس كمية الدم العربى التى أضيفت ، ولكنه كمية اللسان العربى التى استعيرت . بمعنى آخر ، مقياس العروبة ، مثلما هو أساسها اللغة ، لا الجنس .

الفصل التاسع

بين الوطنية المصرية والقومية العربية

مشكلة الضخامة وقضية الزعامة

.. وبحرية نتبنى التقليد او الاتجاه الجديد الدارج حاليا من التمييز بين كلمتى الوطنية والقومية ، وذلك من قبيل اليسر والسهولة ، رغم ان البعض قد يتحفظ فى هذا الصدد . والمهم أن نحدد طبيعة العلاقة بين « المصرية » ـ كما يضعها البعض ـ والعروبة . ما وضع مصر فى العالم العربى ودورها فيه ؟ ما مستقبلهما معا ، والى أين ؟ أى مشاكل أو معوقات على الطريق بينهما ، وحقيقتها ؟ ماذا أعطت مصر للعرب وماذا أخذت ، وماذا يمكن أن تعطى وأن تأخذ ؟ كل هذه وغيرها أسئلة تبحث عن الاجابة العلمية الدقيقة ، ونرجو أن يكون فى هذا الفصل الختامى من شخصية مصر بعض مساهمة فيها

لقد رأينا أن مصر تشترك مع غيرها من وحدات العالم العربى فى كثير من السمات والخصائص ، وأن خيوطا كثيرة تشترك فى النسيج الاقليمى لكل منها ، ولعل العراق بالذات هو أقربها شبها بمصر حتى ليعدان بمثابة « نظائر جغرافية » . غير أن هذه الملامح المشتركة فى النوع غالبا ما تختلف من وحدة الى أخرى فى النسب والأهمية أى فى الدرجة ، ومن هنا تتولد توليفات

وتركيبات متباينة بقدر أو آخر . ومن هنا بالتالى تكون الطوابع المحلية والالوان الاقليمية . ومن هذه الزاوية وحدها يمكن أن نرى ما تتفرد به مصر فى الوطن العربى — شأنها فى ذلك شأن بقية دوله تماما — من شخصية ذاتية وعبقرية مكان ، دون ان نعنى او ندعى انها بدع فى ذلك أو أعجوبة

وضع خاص ؟

وأول ما تنفرد به مصر الضخامة ، ضخامة الحجم التى تجعل منها حجرا شامخا ، وهى حقيقة أدركها وأحس بها دائما جيرانها طوال التاريخ قديما وحديثا (١) فمصر وحدها اليوم ثلث العرب او انقص منه قليلا : ٣٠ مليونا من ١٠٠ مليون بالتقريب . وهى بهذا تفوق أيا من المغرب العربى الكبير كله أو آسيا العربية ، كما تفوق اى دولتين عربيتين أخريين معا ، ولا يفوقها بالكاد الا اكبر ثلاث دول أخرى معا (المغرب، الجزائر ، السودان) . واذا التفتنا الى جيران العرب المباشرين ، فان مصر هى الدولة العربية الوحيدة التى تناظر الوحدات الكبرى فيها مثل تركيا وايران واسبانيا ... الخ

ويضاعف من ضخامة مصر النسبية ويؤكدها فى المجال العربى أن جاراتها المباشرة تأتى — كما يتفق — من صغار العرب حجما (ليبيا ، فلسطين ، الاردن ... الخ) بالمقارنة الى الاطراف الأبعد حيث تسود الاحجام المتوسطة (الجزائر ، المغرب ، العراق) . والصورة العامة لأثقال الدول العربية أشبه شىء بدوامة فى حوض مائى تحركها ذراع ضخمة من مصر فى الوسط ، وحضيض الدوامة حولها ، بينما جوانبها الحائطية المرتفعة نوعا فى

(١) ويلسون ، ص ١٣١

الاطراف . والنتيجة الطبيعية ان « الانحدار الجيوبولتيكى » شديد الحدة بين مصر وجاراتها . ويكفى ان نـــذكر ان مجموع سكان الجارات المشتركة معها فى الحدود يبلغ نحو ١٦ مليونا ، أى بنسبة ١ : ٢ تقريبا

ولكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم الخام وحده ، بل ومن تجانسها الشديد . فهى ليست حجرا ضخما فقط بل انها حجر وحيد الى ذلك كما قلنا . فوحدتهـــا الجنسية واللغوية مطلقة ، وأقليتها الدينية تعد محدودة اذا قورنت ببعض البـــلاد العربيـــة الأخرى ، وكل من الأغلبية والأقلية على حدة لا يعرف التشيع أو التشرذم الطـــائفى ، والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك فى الوطن العربى . ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك ككتلة واحـــدة عادة دون أن تعـــرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، مما يمنحها ثقلا فعالا ووقعا يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها . ولهذا فان الاستقرار السياسى ـ حتى فى ظل الاقطاع ـ سـمة واضحة تتباين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلا

ومن المثير حقا أن تنعكس هـــذه الوحـــدة مع تلك الضخامة على أغلب مجالات الحياة فى مصر حتى البسيطة منها . فنحن نجد دائما قلة معدودة من وحدات ضخمة فى كل شىء : ابتداء من مشاريع السدود والقناطر الى محاصيل الزراعة فى الحقل ـ بعكس سوريا مثلا . وفى التغير السياسى تسجل مصر المعاصرة ثورة واحدة خلاقة مقابل طوفان من الانقلابات العابرة فى ســـوريا مثلا . وحتى فى الصحافة اليومية نجد قلة من وحدات قوية فعالة مقابل « مظاهرة » صاخبة من وحدات متواضعة فى الشام . وهكذا وهكذا

والنتيجة المنطقية لهذا كله أن مصر مركز الثقل الطاغي وقطب القوة فى العالم العربى ، ينتشر ظلها وشبه الظل بل والصدى بعيدا فى آفاقه . ومع أن المصريين لا ينتشرون بأى كثرة خارجها ، فوجودها محسوس بقوة هناك ، بينما يصعب المثل على غيرها من الشقيقات الا بوجود فعلى لأبنائها وجالياتها المهاجرة فيها . من هنا كانت مصر أكثر من عضو ضخم فى الجسم العربى ، انها رأس ، ورأس موح مؤثر ، ثم هى جهاز عصبى مركزى فعال.

وهى فى الحالة الاولى بمثابة جيروسكوب العالم العربى الذى يرسى سفينته فى وجه العواصف الخارجية ويمنحه من وزنه ليمنع تميعه أو ضياعه بين الضغوط والاغراءات . وهى فى الثانية كبوصلة العالم العربى التى تتحسس نبضه وترصد تيارات العالم ثم تحدد اتجاه القافلة

ومن الملاحظ فى هذا الصدد أن مصر كانت أسبق الدول العربية الى المجال العالمى وأقدرها عليه . فاذا قلنا ان الدول الحديثة الاستقلال التى نفضت عنها الاستعمار أخيرا ، تجد نفسها فى مرحلة تكوين سياستها فى الأسرة الدولية أمام ثلاثة آفاق : الدائرة المحلية ، والاقليمية ، والعالمية ، فلعل مصر هى الوحيدة بين العرب التى اقتحمت الدائرة العالمية من قبل وأصبحت من محاورها مثلما أصبحت العالمية نفسها محورا من محاور العمل المصرى فى المجتمع الدولى

ومن هذه الأوضاع جميعا تحتمت على مصر بانتظام مسئولية الحماية والدفاع عن العروبة ، ابتداء من الصليبيات والتتار حتى الاستعمار الأوربى الحديث والاستعمار الصهيونى الاحدث . ومن حسن الطالع وتمام

التوفيق أن نهضت مصر بتلك المسئوليات وكانت عند حسن ظن العرب ، فحفظت عليها عروبتها واسلامها وكيانها ضد غزاة العصور الوسطى ، وردت لها اعتبارها ورفعت قامتها فى وجه غزاة الأمس القريب ، وهى الان تتأهب لاستئصال السرطان الصهيونى .

ومن نفس هذه الأوضاع ينبع عداء القوى الأستعمارية لمصر ـ أحيانا الى درجة الحقد . فهم يعلمون عن يقين أن ها هنا قلعة العرب وها هنا مفتاح القلعة ، فكانت دائما الهدف النهائى لضرباتهم ومؤامراتهم . ونحن نسمع دائما وبانتظام عن محاولات « عزل » مصر ، ولا نكاد نسمع عن مثلها بالنسبة للبلاد العربية الاخرى

بكل تلك الخصائص الموضعية اذن تنفرد مصر بين العرب . ولكن موقعها الجغرافى يأتى ليمنحها المزيد من التفرد . وأبرز ما فى هذا الموقع أنه كالقلب من الجسم ، واسطة العقد ، وهمزة الوصل بين آسيا العربية وأفريقيا العربية . واذا كان المتفق عليه أن مصر جزء من المشرق العربى ، وان كان البعض رآها تجمع ما بين المشرق والمغرب ، فانها هى التى « قدمت » المغرب العربى الى المشرق تاريخيا وجغرافيا

وحسبنا أن نتصور ـ كمجرد تخيل أكاديمى بحت ـ أن النيل كان ينتهى فى السودان الى البحر الاحمر مثلا ، وكانت مصر صحراء مطلقة ، وخرج العرب كما خرجوا تماما ، فهل كان يقدر للوطن العربى أن يظل على تجانسه ووحدته وتماسكه الراهن ؟ أغلب الظن أن لا . ونحن اذا نظرنا الى هيكل النمط العمرانى الفعلى فى الوطن العربى ، فسنجد مصر فيه كالعقدة البشرية ، فعندها وحدها تلتحم ذراعا العروبة فى افريقيا ـ المغرب والسودان ـ بالحلقة السعيدة التى تطوق المشرق العربى

وبحكم هذا الموقع كانت مصر دائما ملتقى العرب ومجمع الأسرة ، وأحيانا ملجأ وملاذا وخط دفاع اخير عن التراث العربى . ففى العصور الوسطى حين بدأت أخطار الاندلس وقلاقل المغرب ، تدفق العلماء والصناع على مصر (كابن خلدون ، مثلا بارزا) ، ومن العراق مع الطوفان المغولى وبعده انتقلوا بالآلاف الى مصر (١) . وفى العصور الحديثة خاصة القرن الاخير كانت مصر بؤرة تستقطب موجات النازحين والمهاجرين من الشام من المثقفين والمضطهدين . وفى كل الحالات كانت تلعب دور المنار للاسلام ودور المنبر للعروبة

ويتميز موقع مصر فى العروبة بعد هذا بصفة هامة . فمصر من الدول العربية القليلة التى لا حدود لها مع غير العرب . فهذا العمق الجغرافى لم يمنحها الأمن والسلامة الاستراتيجية فحسب ، بل جعلها طوال التاريخ تتعامل وتتفاعل مع عرب وعروبة ، بعكس أطراف العالم العربى نفسه حيث تعرضت للمؤثرات الاجنبية المتاخمة . وبعض من أطراف العروبة تعرف ملامح خلط ثقافى وحضارى بل وجنسى خطير . فثمة مؤثرات التهنيد فى كل الجنوب العربى ، ومؤثرات التعجيم فى الخليج العربى ، والتتريك فى تخوم سوريا ، وثمة كانت أخطار الصبغة الاسبانية فى هوامش المغرب ، وبالمثل المؤثرات الزنجية فى السودان

ولكن من كل هذا ومثله نجت مصر بحكم أنها دائما جزيرة عربية يحيط بها العرب من كل الجهات . ومن هنا ، وسواء عد التاريخ عاملا من عوامل الترشيح أو من عوامل التكثيف ، فان مصر مع التاريخ تزداد عروبة ،

---

(١) Hitti, The Arabs, p. 190

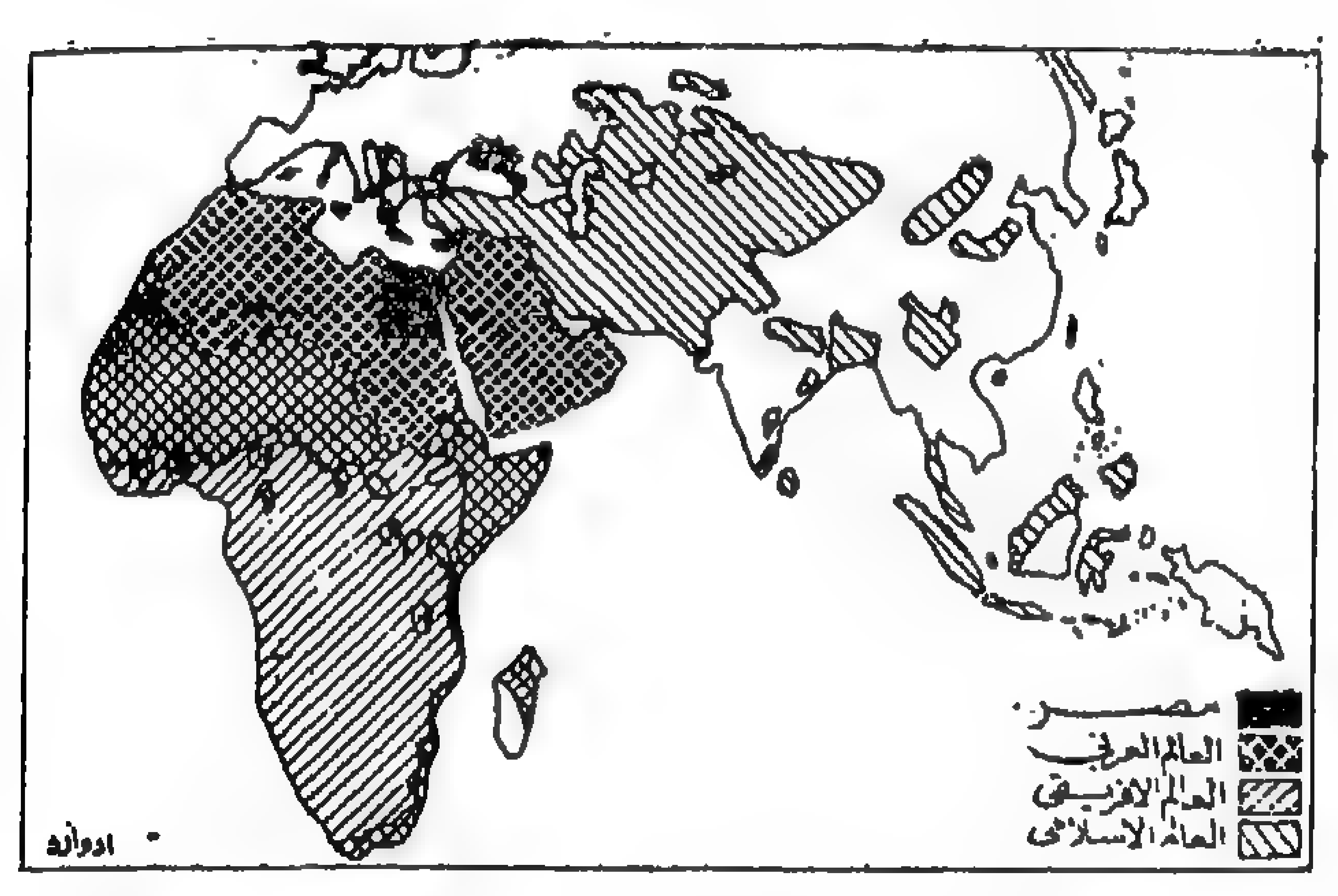
وعروبتها تزداد عمقا وكثافة ، ربما بعكس الأطراف . وفى ضوء هذه الحقيقة تبدو غريبة حقا بل وجاهلة تلك التخرصات التى تثار من حين الى حين عن عروبة مصر بالذات .

وعدا هذا ، فمن نفس هذه الحقيقة تنبع حقيقه أخرى لا تقل خطرا ودلالة . فبحكم هذا الموقع ، وبحكم هذه العلاقات النقية مع العروبة الخالصة ، فان مصر — وحدها تقريبا — هى التى امتصت وتمثلت واستوعبت عناصر وعينات من كل الشعوب العربية أو معظمها . فعدا الدم العربى من الجزيرة ، ثمة انصب الشوام دائما واستقروا وذابوا ، وبالمثل فعل الليبيون والسودانيون . ومن المغرب الكبير أتى الحج بالمغاربة فكان منهم من أقام وانصهر على الطريق

واذا كانت بقية البلاد العربية قد تبادلت الهجرات والجاليات كل مع جاراتها العربية المباشرة ، فان الاطراف البعيدة قل أن تتلاقى بطبيعة الحال ، فالعراق لم يعرف مغاربة مثلا تذوب بين ظهرانيه ، أو سودانيين ، ولا السودان عرف عراقيين أو مراكشيين بدرجة مذكورة ... الخ . وفى النتيجة تبدو مصر ، فى حدود تجانسها القاعدى الاساسى مع ذلك ، بوتقة العالم العربى فى معنى ما ، وهى بهذا المعنى خير تصفير كما هى خير تكبير للعالم العربى ، وقاسم مشترك بين أجزائه

وتأكيدا لنفس هذا المعنى ، ليس صدفة أن نجد مصر نسبيا أكثر البلاد العربية شبها بكل أو بأكبر عدد من البلاد العربية الاخرى ، وذلك فى الملامح الجسمية والسحنة واللون ... الخ ، دون أن يخل هذا — مرة أخرى — بجوهر تجانسها وتميزها العام . فهى بما فيها

من مؤثرات ليبية ، أقرب العرب الى صفات المغاربة . ثم لعلها أن تكون أقرب فى تلك الصفات الى البلاد العربية الاسيوية بصفة عامة من أى من المغرب أو السودان مثلا . بل حتى بالامتداد الجغرافى تبدو مصر قاسما مشتركا فى العالم العربى . فاذا كانت العروبة بامتدادها الطبيعى أسيوية ـ افريقية ، فان مصر ببيئتها الافريقى ونافذتها الاسيوية خير ما يشخص ويلخص العروبة



« شكل ٧ » موقع مصر كبؤرة لعوالم ثلاثة : الدائرة العربية ، والدائرة الاسلامية ، والدائرة الافريقية

على هذا الوضع اذن تستقر مصر كعضو فى الجسم العربى . ومعظم القوميين العرب يرون فيها « وطنا ثانيا » لكل عربى أيا كان موطنه . هل ترانا اذن نبالغ أو نصدر عن شوفينية الوطنية الضيقة التى نبذناها لتونا ، اذا وصفناه « بالوضع الخاص » أو « العلاقة الخاصة » ؟ بغير قصد ـ بالتأكيد ـ من استعلاء أو طبقية أو تباعد نقولها ، فان هذا ما يعبر عنه العرب

انفسهم ، بل على العكس تماما ان هذا الوضع الخاص نفسه كان دائما سلاحا ذا حدين ، فلطالما استغله أعداء مصر وأعداء العروبة ضد مصر وضد العروبة . فهذا الوضع الخاص لا يعنى بداهة الا شيئا واحدا هو « الزعامة الطبيعية » فى العالم العربى ، أو أن مصر فى العالم العربى كالقاهرة فى مصر ، وهذا بالدقة ما يفزع الاستعمار

وبحقد من ثم حاربه فى ميدانين : الاول محاولة عزل مصر نفسها عن بقية العرب ، والثانى تشويه تلك الزعامة والتشهير بها وتحطيمها . واذا بدا هذان الميدانان من المناطق الحساسة الدقيقة التى يمكن أن تنزلق فيها المناقشة وتنساق الى مزالق عاطفية ، فاننا نرى أن الابتعاد المتعمد عن طرح هذه القضايا الشائكة هو بعينه الذى ترك المجال للدعايات الملفقة أن تتسرب الى بعض النفوس . ولكن مع الوعى العربى الجديد ، فان المناقشة العلمية الصحيحة الرصينة على أساس الجغرافيا والتاريخ جديرة بأن تبدد كل شك مدسوس . ولنبدأ بقضية العزلة

عن العزلة السياسية

فأما عن دعوى العزلة السياسية فهى امتداد أو انعكاس لقضية العزلة الجغرافية التى فندنا من قبل . ويكفى هنا أن نقول انه تماما مثلما تمددت أبعاد المكان ووحدة الجغرافيا من المقاطعة nome السابقة للأسرات، الى « الوجه » السابق للتوحيد ، فقد استمرت الحركة مطردة فى نفس الاتجاه من مصر ما قبل التعريب الى مصر العربية بعده . ولا شك أن دور مصر العربى فى التاريخ كان يكون أعظم لولا شرنقة الصحراء المحيطة ،

ومع ذلك فان أثر المواصلات الحديثة هو بمثابة اختزال والغاء لهذه الصحراء . واذا كان الاسلام قد غزا الصحراء ـ الصحراء الكبرى ـ بالجمل ، فالطيارة اليوم انما تحذفها

ومن ناحية المسافة الجغرافية البحتة ، نجد أن مصر بموقعها الأوسط وبمساحتها وحدودها المعروفة ، قريبة بالفعل من الرقعة الكبرى فى الوطن العربى ـ بل ان بعض البلاد العربية اقرب مسافة الى مصر أو أجزاء من مصر ، من بعض اجزاء مصر الى بعضها البعض . فدمشق أقرب ـ كما يطير الطائر ـ الى القاهرة ، من القاهرة الى أسوان . وقد يبدو غريبا أن بغداد أقرب أو لا تقل قربا الى القاهرة من رفح الى جبل العوينات ، أو أن بنغازى أقرب الى الاسكندرية من الاسكندرية الى حلايب وهكذا ..

رغم هذا كله ، فقد روج الأعداء فكرة مشوهة عن عزلة موهومة لمصر عن العروبة خلال القرن التاسع عشر بالذات . وقد راجت الفكرة حتى غزت بعض المثقفين فى المشرق العربى ، وكادت تصبح من المسلمات حتى بين البعض منا . والواقع أن هناك سوء فهم بقدر ما هناك من مغالطة فى هذا الصدد . فأولا ينبغى ان نفرق بين الاتجاه الحقيقى للشعب والمصالح العابرة للرجعيات الحاكمة ، ثم لا بد أن نعتبر الواقع الاستعمارى المفروض

فأصل دعوى العزلة هو ما حدث للاسرة الحاكمة من انطواء على نفسها بعد أن حطمت بريطانيا سياسة محمد على فى المشرق العربى وطردته منه ، فكان رد الفعل العزلة السياسية عن العروبة (١) . ولئن صح هذا فهو

(١) محمد أنيس ، القومية العربية، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية والتعليم ، سبق ذكره ، ص ٣١٩

يدل فقط على أن الرجعية الحاكمة فرضت العزلة على مصر الشعب ، ولا يدل بحال على أن مصر الشعب انسحبت (كيف ؟!) من العروبة . بل ان من المحتمل أن نفس الظاهرة تكررت فيما بعد فى نهاية تاريخ الرجعية مثلما بدأت مع بدايته

فهناك من يرى أن مصر بدأت تتجه اتجاها عربيا فى الأربعينات الماضية خاصة ، كنتيجة لصراعات التوازن الأسرية بين الرجعيات الحاكمة فى المشرق العربى ، فرحبت الملكية المصرية بانشاء جامعة الدول العربية كرد - جزئيا على الاقل - على سياسة الهاشمية ممثلة فى أطماع سوريا الكبرى » (١) . ثم زاد الاتجاه العربى بالضرورة مع حرب فلسطين ، حتى اذا كانت الهزيمة حاولت الرجعية الحاكمة العزلة مرة ثانية قبل أن تأتى نهايتها مباشرة على يد ثورة لم تقم الا لتأكيد الاتجاه العربى وعروبة مصر . ومعنى هذا وذاك بوضوح أن سياسة العزلة عن العروبة أو الاتجاه اليها كانت أساسا مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالح الرجعية الحاكمة ، ولا تدل على واقع الشعب الطبيعى أو اتجاهه الحر ..

غير أن هذا ليس الا جانبا واحدا من الصورة . والجانب الآخر أن مصر ، التى خضعت كما خضع المشرق العربى قرونا « للاستعمار الدينى » التركي الذى استغل صفته الدينية هذه ليخدر العرب عن حقيقته الاستعمارية ، مصر هذه لم تلبث أن وقعت مبكرا فريسة للاستعمار الاوربى الحديث ، بينما ظل الاستعمار التركى جاثما فى المشرق . ولهذا فبينما تحول كفاح مصر الى

(١) B. Shwardran, Jordan : A State of Tension, N. Y., 1958, pp. 220-230.

صورة استقلال وطني استغرقها تماما لدرجة أجلت مؤقتا الهدف العربي النهائي ، كان لا مفر للكفاح السوري مثلا أن يأخذ شكلا عربيا مباشرا ضد الاتراك ، مما بدا معه الهدف العربي أساسيا ومباشرا

ومن هنا حملت سوريا بالضرورة مشعل الدعوة العربية ، بينما بدت مصر بالضرورة أيضا مشغولة عنها. ومن الواضح أن ليس في هذا عزلة طبيعية ولا مقصودة عن العروبة ، ويكفي أن سوريا مثلا حين أصابها الاستعمار الاوربي أجلت هي أيضا الهدف العربي رغما عنها الى حين ، بينما حين نفضت كل من مصر والمشرق هذا الاستعمار برزت الدعوة العربية فيهما متعاصرة بصورة لها كل مغزى . بل لقد نزعم أن الدعوة العربية كما ظهرت من مصر جاءت أكثر نضجا ووضوحا منها كما جاءت من سوريا الحرب الاولى

فاذا كان لا شك في سبق وأصالة وتقدمية الدعوه السورية المبكرة في العشرينات ، فمن الثابت كذلك أنها لم تخل جزئيا من دوافع معينة بحثت عن القومية العربية كبديل عن الاسلامية التركية ، كما أن مما له مغزاه أن نفس هذه الدوافع الجزئية ، حين أوشك تحقيق القومية العربية أن يكون أمرا واقعا ، نكصت عنها وتخندقت في انفصالية الوطنيات الضيقة . ولهذا قلنا ان الدعوة المصرية وان جاءت أكثر تأخرا زمنيا فقد جاءت أكثر نضجا قوميا ، حتى ليمكن أن نميز بين مرحلتين من الدعوة الى القومية العربية : المرحلة العاطفية أو الرومانتيكية كما ظهرت في سوريا العشرينات ، والمرحلة الواقعية أو العلمية كما ظهرت في مصر المعاصرة

هذا التصحيح يستدعي اذن وقفة محققة عند عزلة مصر المقولة في القرن الماضي . ولا شك ابتداء أن

الاستعمار البريطانى « أغلق » مصر عموما فى المجال السياسى . ولكنه لم يغلقها ويقطعها عن العالم العربى فحسب كما يقال ، ولكن أيضا عن العالم الاسلامى الذى كان لا يزال وحدة فعالة يمثلها الاستعمار التركى . من هنا ووجهت مصر بفترة متميعة مليئة بالمتناقضات ومن ثم بالحيرة . فقد كان ثمة أبعاد أربعة متصارعة ، منها ما هو أصيل أو دخيل ، قهرى أو انتهازى ، تعرض عليها بالحاح . أولها الوطنية المصرية الضيقة كما فرضها عليها الاستعمار كأمر واقع وكما أرادتها الرجعية الحاكمة كمصلحة ذاتية انفصالية . ثم على النقيض من هذه المحلية المفرطة كانت العالمية الاوربية التى جلبتها معها قوة اغراء الحضارة الجديدة الكاسحة . يلى هذا بعدان أحدهما خارجى قريب العهد هو الاسلامية التى كانت تمثلها تركيا عدة قرون ، والثانى داخلى قديم قدم مصر الاسلامية وهو العروبة

وفى وجه هذه الاختيارات ، تعددت الاتجاهات الحزبية وتصارعت بحسب المصالح الضيقة ، وتجسد هذا فى البرامج الحزبية المختلفة . فقوى الاستعمار والرجعية الحاكمة صاحبة « مصر قطعة من أوربا » ، وطفيلياتهم من بورجوازية المثقفين النامية وبعض الأقليات نادت بالوطنية المصرية ، فرفعت الفرعونية راسها لتكون الاطار الفكرى . واذا كانت « مصر للمصريين » تبدو شعارا تحرريا ضد ــ استعمارى ، فقد كانت ايضا شعار تلك الانفصالية الخبيثة . ونحن ندرك الان أيضا أن بعض من يدعو اليوم الى « افريقيا للافريقيين » لا يقصد بذلك فى الحقيقة الا عزل مصر عن المشرق العربى . ومن هذا البعض نفس العناصر التى رفعت الشعار الأقدم

وقد ارتبط « بمصر للمصريين » اتجاه آخر أوسع

قليلا هو « وحدة وادى النيل » . ولكنه فى الحقيقة لم يكن يخرج عن اطار توجيه الرجعية الحاكمة الانعزالية أو ضغط الاستعمار الجاثم . ذلك أن توزيع العالم العربى بين القوى الاستعمارية فى القرن الماضى ادى الى تقسيمه الى ثلاث وحدات كبرى كل تمثل دائرة مفتوحة داخليا مغلقة خارجيا ، وهى المغرب العربى تحت الاستعمار الفرنسى ، وآسيا العربية تحت الاستعمار التركى ، يبقى بينهما الاستعمار البريطانى فى حوض النيل بمصر والسودان (١)

وعلى طرف النقيض من هذا كله ظهرت دعوة الاسلامية ممثلة فى تيار « الجامعة الاسلامية » وفى الارتباط بالخلافة العثمانية . وهذا الاتجاه استغل تقليد التاريخ الوسيط الذى كان العالم الاسلامى فيه نوعا من الاطار المتميع يدور داخله نوع من الوحدة الاكثر تميعا . وجاءت حركة الجامعة الاسلامية مناورة من تركيا لاستبقاء هذا الوضع والابقاء على كيانها المنهار . ومن الناحية الاخرى رأى فيه بعض المصريين مخرجا وملجأ من الاستعمار البريطانى الغاصب . ولعل هذا هو السبب فى أن البعض خدع به وعبرت عن ذلك بعض الأحزاب . ولكن حقيقته انكشفت مع بروز عنصرية الوطنية التركية واستعلائها وخطط التتريك ... الخ . ومن هنا انشطرت تلك العناصر بالتدريج عن دعوة العثمانية ، فى الوقت الذى بدأت دعوة القومية العربية تؤكد نفسها كهدف مستقل!

والذى نراه فى هذا المناخ السياسى المتلاطم من اجل توجيه مصر ، هو أنه على علاته وأخطائه لم يكن بلا فائدة تماما بل ربما كان ضروريا بمعنى ما من المعانى . فقد

(١) أنيس ، السابق ، ص ٣٠٥

كان أساسا فترة اعادة تفكير فى كياننا ومكاننا ازاء تحديات العالم الحديث ، وكانت فترة العزلة المفروضة مناسبة للتعرف على حقيقة ذاتنا وللاختيار على أساس من التجربة والخطأ . باختصار ، كانت بحثا عن شخصية مصر وعبقريتها المكانية ، واستكشافاً لمفتاح أو معادلة او صيغة لجغرافية مصر السياسية . لهذا كان ثمة صراع فكرى حاد وشاق ، وحدثت عمليات عزل وانتخاب قاسية ، انصهرت مصر فى بوتقتها ايديولوجيا الى أن خرجت منها بوضوح الرؤية الكامل لكيانها وجوهرها

فاذا الاسلامية وحدة عقيدة وتعاون لا وحدة قومية ومصير ، واذا وحدة وادى النيل جزء من كل فقط ، واذا الوطنية المحلية جزىء قاصر ناقص من نفس الكل ، اما هذا الكل فهو العروبة وحدها ، وقدرنا هو القومية العربية ، ومصير مصر هو الوحدة العربية ، وهذا ما عبرت عنه بصورة نهائية وحاسمة مصر الثورة . ولم تكن فترة العزلة المفروضة تلك اذن فترة اجترار للذات وانغلاق على المصرية ، بل أساسا فترة استبطان ذاتى حبلى بالنتائج الحاسمة التى ستتمثل فى العروبة الكاملة. واذا كانت تلك الفترة قد استغرقت بعض الوقت ، فان التعرف على الذات القومية هو — كنمو الذات القومية نفسها — عملية تطور نامية وتدرج تاريخى مديد

وفى هذه الرحلة المفعمة ساعدت عوامل متعاقبة على تصفية المواقف المتعارضة ، منها تصفية الاستعمار الدينى التركى ، ثم الضغوط الاستعمارية المشتركة على كل الوطن العربى وما تلاها من تصفيتها ، ثم كانت تصفية الرجعية الانفصالية الحاكمة ؛ الى أن كانت كارثة فلسطين بمثابة « اختبار الاحماض » فى صحة اعادة اكتشافنا لعروبتنا ، فحسمت الموقف الى الابد . وهكذا

كانت فترة العزلة المفترضة فترة تشتت وتشعب فى اتجاهات الشعوب العربية كما لو خلال عدسة مفرقة . ولكنها لم تلبث أن تحولت الى حزمة أشعة متوازية ، وانتهت أخيرا الى التجمع والالتقاء المصيرى بعدسة مجمعة

قضية الزعامة

وهذه أيضا فى حقيقتها قضية مزيفة مفتعلة ، لأن الجغرافيا حسمتها مرة واحدة والى الابد . فان دور مصر القيادى والريادى فى العالم العربى لم ينقطع أبدا حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية الى غيرها . بل اننا نوشك أن نقول ان الزعامة العربية خارج مصر لم تكن فى جوهرها الا مرحلة تجريبية أو تجربة مرحلية : عابرة وموقوتة ــ قل فترة أو محطة حضانة . كذلك كانت تجربة الشام الأموى : قصيرة العمر متواضعة الاساس حتى لقد اضطرت لكى تبقى على نفسها أن تهاجر الى قاعدة ارضية بعيدة هى المغرب الاوربى . وكذلك من بعدها كانت تجربة العراق أطول عمرا وأرسخ بنيانا بما لها من موضع ثرى عريض الثراء وموقع كان طليعيا ــ موقع رأس الحربة ــ فى العالم الاسلامى المتمدد حينذاك نحو الشرق . ولكن موضع العراق كان يتضمن دائما جرثومة ضعف هى نظامه النهرى ولهذا هوى عند أول اهمال . أما الموقع البارز فى العالم الاسلامى فقد كان يفقد مغزاه بسرعة فى عالم علمانى باطراد حتى انتهى الى مجرد موقع هامشى على ضلوع العالم العربى : الى خط دفاع أمامى حطمته الطرقات المغيرة أكثر منه قلب دفين يعتمد على الدفاع بالعمق

والواقع أننا ننسى أن تركز الزعامة مؤقتا فى كل من

الشام والعراق فى صدر الدولة الاسلامية انما يعكس الجغرافيا التاريخية السابقة للاسلام فى الشرق الاوسط، حيث أن هذا وذاك كانا مراكز السيطرة اليونانية ـ الرومانية والفارسية على الترتيب ، فكان طبيعيا أن تتركز القوة الصاعدة الجديدة فيهما بحكم الاندفاع التاريخى . ولكن بمجرد أن تكونت للقوى الجديدة منطقة واضحة وأبعاد محددة ، ثبت أن هذا التركز القديم لم يعد صالحا ، وانبثق قلب جديد أصيل وطبيعى لم يكن مفر من الانجذاب والتحرك اليه عن المركزين السابقين ، تماما بمثل ما انتقل من قبل من الجزيرة العربية نفسها اليهما ولنفس الاسباب الجغرافية الكامنة

وغير العراق والشام كان المغرب : حين تطلع بصورة أو بأخرى (الفاطمية) الى الزعامة فى العالم العربى هجر أرضه بكل بساطة وبلاغة ليمارسها من مصر ! وهكذا كانت التجربة التاريخية الحرة تؤكد باصرار أن الزعامة التى آلت الى مصر العربية هى زعامة طبيعية وملمح أصيل فى شخصيتها الاقليمية . وحتى تحت نير الاستعمار الاوربى الحديث ـ حتى حين انحسر مبكرا فى وحدات خارج مصر بينما كان لا يزال يجثم فيها ـ كانت مصر بلا جدال القلب الحضارى للعرب cultural hub وظلت « واحة العرب »

ويلخص هذا جميعا ما يقتبسه واحد من أكبر رواد دعوة القومية العربية الحديثة فى دور مصر . « لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقى والاسيوى منها . كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم اليها العالم العربى بحكم السياسة

والظروف .. وكل ذلك من الموقع الجغرافى الى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة ، وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية » (١)

والواقع ان كل الشعوب العربية وكل القوميين والمثقفين العرب المخلصين يؤمنون عن يقين بزعامة مصر ويبايعونها بها بلا تردد . أما أنها ـ هذه الزعامة ـ مشكلة ومثار صراع فهذا لم يكن قط الا من فعل الرجعيات الأسرية الحاكمة والاقطاع السياسي ومناورات ودسائس الاستعمار من ورائهم . وفى هذا السبيل أطلقوا سلسلة من التخرصات والافتراءات لا تصمد للمناقشة الموضوعية الهادئة ، كما حاولوا أن يختلقوا زعامات اصطناعيةمضادة ، ولكن دون جدوى كذلك

فعن الاولى صوروا ضخامة مصر فى العالم العربى كأنها جليفر فى بلاد الاقزام ، وتحدثوا عن « بروسيا العرب » لينتهوا الى خرافة « الاستعمار المصرى » .. وقد خدعت هذه الدعاية بعض العرب بالفعل ، حتى لقد اقترح بعضهم منذ بضع سنين تقسيم مصر الى وحدتين تفاديا « لطغيانها » على الاتحاد بثقلها الضخم (٢) ! وعدا هذا فهناك من زعم أن مصر ليست متخلفة فقط ، بل وحديثة عهد بالاستقلال ..

غير أن الذين يروجون لمثل هذه الافتراءات هم عادة نفس الذين قالوا ان الفتح العربى كان استعمارا (كذا !) (٣) ، وهم الذين ينسون أن أحدا لم يقل ـ وقد

(١) ساطع الحصرى ، آراءوأحاديث فى الوطنية والقومية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١١٨

(٢) محضر محادثات الاتحاد الثلاثى بين سوريا والعراق ومصر ، الاهرام ، ٦٣/٦/٢٢ ، ص ٣

(٣) Nevill Barbour, A Survey of N. W. Africa (Maghrib), 1959, p. 16.

حكمت مصر أكثر من قرنين من دمشق وبغـــداد (١) ـ ان الأموية كانت استعمارا شاميا ، أو أن العباســية كانت استعمارا عراقيا ! ولعل هذا هو الرد المنطقى على اكذوبة الاستعمار المصرى

ومن الناحيــة الأخرى كانت ســياسة الاســتعمار البريطانى التقليدية فى المنطقة هى اختلاق زعامات ملفقة مصطنعة ليدقوا أسفينا عميقا بين العرب ويخلقوا محاور متعارضة وأقطابا متنافرة تقطع غائرة فى الوحدة القومية وتتعامد عليها . وينبغى الا نتحرج علميا فى مناقشــة هذه المحاولات ، التى اعتمد الاستعمار فيها احيانا على النواحى الدينية أو التاريخية واحيانا أخرى على النواحى المادية المباشرة . وكانت تلك المحاولات تتردد غالبا بين العراق والسعودية بالتحديد .

فعن الأول ، صورت بريطانيا العلاقة بينه وبين مصر على أنها مساجلة تاريخية (بل وقبــل تاريخيــة !) واصطنع له عقدة العباسية . غير أن عدم التكافؤ الحاد جعل المناورة الاستعمارية سخرية سياسية ضخمة بل قميئة ، وكان العراقيون أنفسهم أشد المستنكرين لها . ومن بعد العراق حاولت بريطانيا أن تصنع من مؤسس السعودية « ملك الملوك » فى الشرق العربى ـ هــذا تعبير تشرشل مهندس المشروع نفسه ـ ولكن بفشل اشد سخرية لأن الجغرافيا ضده الى درجة تجعل منه فضيحة جغرافية حقيقية !

وقد أعاد الاستعمار الجديد نفس الكرة مع خلفائه على التعاقب ، وعلى أساس الثروة البترولية الضخمة التى تدفقت فى السعودية ، جنبا الى جنب مع الاساس الدينى للثيوقراطية الحاكمة المستبدة بالاراضى المقدسة .

---

(١) شارل عيسوى ، ص ٤

ولا شك ان البترول ، كسلاح وكثروة أسرية اقطاعية بحتــة ، قد جــدد أوهام الاستعمار ، غير أنه لم يكن للبترول ولا غير البترول مهما كان أن يقلب أو يهــز ميزان القوى الطبيعية فى المنطقة كما حسمتها الطبيعة منذ البداية . وتحطمت بصورة كاسفة كل محاولات افتعال زعامات مضادة

ونعود لنتساءل : ثم ما المقصود بالزعامة ؟ اليست هى صميم الديموقراطية القومية، اذا كانت الديموقراطية تعنى عد الرءوس ، وكانت الرءوس متساوية كما ينبغى؟ انها اذن لا تعنى طبقية اقليمية داخل العروبة ، وانما تعنى أولوية بين أكفاء primus inter pares ، وأسبقية لا رياسة فى حلبة مفتوحة تظل تترك دار العرب « مائدة مستديرة » . انها انما تعنى دور قائد الاوركبسترا ، تعنى الشــقيقة الكبرى أكثر منهــا حق وراثة الابن الاكبر primogeniture

ولكن حتى دور الشقيقة الكبرى هذا يود المغرضون لو يجحدونه أو يجرحونه . غير أن مصر فى أى مرحلة من تاريخها العربى مهما تواضعت (سواء قبل البترول أو بعده !) لم تكن قط الشقيقة الكبرى بمجرد السن والحجم (فى حين أنها الســاذجة بمقياس اللماحيــة والجمال كما يلمحون) . ولهذا فان دورنا القيادى يظل قائما ، ويظل قائما لا كمجرد زعامة كم خام . ومع ذلك كله فليس دور الزعامة الجغرافية ادعاء فظا غليظا ، وانما ممارسة متواضعة صامتة ، وهو بهذا لا يمكن أن يكون تشريفا أو تخليدا ، بل هو تكليف وتقليد : تكليف من الجغرافيا ، وتقليد من التاريخ . انها ليست أبهة أو نعرة سياسية بل مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة

أما الذين يضغطون على ضخامة حجمها ووزنها فانهم

يسيئون تصوير الحقيقة ، كأنما قد أصبحت قوة مصر نقطة ضعف لها وحجمها عبئا على نضالها القومى مثلما قد أصبح على نضالها الاقتصادى محليا ! فجزء من هذه الضخامة النسبية مرده الى تفتيت الاستعمار للعالم العربى ، وبدلا من أن يفكر البعض فى تفتيت مصر كان أجدر بهم أن يفكروا فى اعادة تكتيل الوحدات الجغرافية الطبيعية الكبرى فى الوطن العربى كاقليم الشام مثلا . فليس سليما أن تتم الوحدة العربية الكبرى على أساس الوحدات المفتتة حاليا . ومثل هذا جدير بأن يخلق قدرا معقولا من التوازن داخل دولة العرب الكبرى يجب كل مخاوف حقيقية او وهمية

كذلك فان فى تهجير فائض السكان المصرى الى أنحاء الوطن العربى التى تعانى من تفريط السكان ، ما يمكن أن يحل مشكلة مصر السكانية جنبا الى جنب مع مشكلة تقارب أحجام الوحدات العربية السياسية . ولعله قد آن الاوان بالفعل فى عصرنا الحديث لأن تحدث حركة انتشار وخروج من الوحدات الزراعية بعد أن حدثت مع الاسلام من الوحدات الصحراوية

ويبقى بعد هذا ان مصر لايمكن الا أن تكون النواة النووية فى الوحدة العربية . ويمكننا بلا غلو أن نقول ان الوحدة العربية بغير مصر « كهاملت بغير الامير » كما يقولون . والذين كانوا يهدفون الى عزل مصر عن بقية العالم العربى يسيئون اليها بالتأكيد ، ولكنهم يسيئون أكثر كثيرا الى بقية العالم العربى ، لأن مصر تكاد تكون الوحدة السياسية العربية الوحيدة التى يمكنها ـ ان اضطرت ـ أن تسير وحيدة بالحد الادنى من الاخطار فى غاب السياسة الدولية المعاصرة بدوله الماموث وعالم الكتل الدينوصورية الكبرى Grossräume وهى من قبل

قد اصبحت قوة مرموقة فى المجال الدولى ، ومؤثرة فيه تأثيرا ايجابيا خلاقا ، وهى الدولة العربية الوحيدة التى تؤثر بقوة فى كثير من الدول خارج العرب بل تعد من زعماء العالم الثالث المبرزين . ومع ذلك فان مصر ، أكثر من غيرها ربما ، تدرك الا ضمان ولا كيان حقيقى لها الا بالوحدة وفى ظلها

ومن الناحية الاخرى ينبغى على مصر نفسها أن تدرك مغزى هذا الدور الذى ألقته الطبيعة عليها . انه أساسا واجب التضحية والبـــذل للدول العربيـــة ، وواجب النموذج والمثل الذى تتطلع اليه . وتلك رسالة اشـــق وأدق مما قد يكون بعضنا على استعداد لأن يتصور .. فهى تعنى من ناحية الاستعداد للبذل المادى ومن الدخل القومى ، والبذل العسكرى من الدم المصرى ، أى تعنى باختصار العطاء أكثر من الاخذ . ومن ناحية ثانية تعنى ان على مصر أن تكثف قواها واقتصادها وتعمق وتعصر حيـــاتها لتكون أهـــلا للقيـــادة ، فان من المسلم به فى السياسة ان الشعوب كالافراد : تســـعى بلهفة الى أقاربها البـــارزين الناجحين النـــابهين ، وتتوارى من الخاملين الفاشلين

وكما ان الكيف لا الـكم سيبقى أبدا مفتاح مستقبل مصر جميعا ، فى الحضارة ، فى العلم ، فى السكان ، فى الانتاج .. الخ ، فكذلك سيظل الكيف قبل الكم أساس وضعها ومكانها فى الوطن الكبير ، دار العرب . واذا كانت القيادة والزعامة مسئولية تمارس وواجبـــا من القيادة يحقق ، فلعل الاختبار النهائى لزعامة مصر قد يرقد فى أن ترقى الى مسئوليتها عن استرداد فلسطين للعرب . واذا صح أن نقول ان لا وحدة للعرب بغير زعامة مصر ، فربما صح أن نقول انه لا زعامة لمصر بين العرب بغير ذلك . .

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص : ب ٢١

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافوره :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo. BRAZIL



عن الكتاب

في الوقت الذي تجابه مصر ، ومن حولها شقيقاتها العربيات ، مد الحقد الاستعماري والغدر الصهيوني للمرة الثانية في غضون عقد واحد تقريبا ، لا يملك كل عربي في مصر والوطن الكبير الا أن يتفقد ذاته ، يرصد كشف حسابه قوة أو ضعفا ، يقوم أهدافه ، ويقيم خططه واسلحته . وهذا الكتاب ، الذي يصل الحاضر بالماضي ويزاوج الجغرافيا بالتاريخ ، يحاول ان يتعرف على شخصية مصر وجوهر كيانها ، لتكون تلك المعرفة بالذات سلاحا فكريا في نضالنا البطولي الشجاع . والكتاب يقدمه مؤلفه للعالم المتخصص والقارىء المثقف والمواطن العربي جميعا على حد سواء - وهل مصر الا في عقولنا وقلوبنا ووجداننا جميعا ؟

معادلة القوة في تركيبها دولة وامة ، العلاقة العضوية بين ارضها وناسها ، بين نيلها وفلاحها ، وجهتها التاريخية وتوجيهها الجغرافي ، حقيقة العلاقة بين عروبتها والفرعونية ، دورها العربي الرائد ومكانتها العالمية المتفتحة ، نقاط القوة ومواطن الضعف في الجسم الوطني ، وخطوط الحركة ومجالات التقدم الممكنة كما تخرج من بين مقوماتها ومعوقاتها ، الى أين في العرب ومع العرب ، أبعاد الوجود المصري في الزمان والمكان ، في الحضارة والثقافة ، وكذلك في السياسة والاقتصاد : تلك بعض القضايا والاسئلة التي تثيرها الدراسة ، بالتأكيد لا لتضع دستورا او بوصلة للعمل المادي والحضاري أو القومي لمصر - يكفي جدا في مثل هذا مجرد مؤشرات ! - ولكن لتختزل عبقرية مصر وروحها الدفينة في صيغة واضحة متكاملة محددة المعالم والابعاد ..